تاريخ المسلمين فى إفريقيا
ومشكلاتهم

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨م

تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم

خديجة النبراوى

١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨م

١٤١٨ هـ / ١٩٩٨م

بيانات الفهرسة أثناء النشر

خديجة النبراوى

تاريخ المسلمين فى افريقيا ومشكلاتهم (خديجة النبراوى)

القاهرة : النهار للطبع والنشر والتوزيع

٧ ش الجمهورية - عابدين ت : ٣٩١٣٦٨٨

الجمعية الخيرية للخدمات الثقافية والاجتماعية

٣٣ ش السودان الكيت كات - العجوزة

١٩٦ ص ؛ سم

تدمك : ٤-١٨/٥٦٧٩ - ٩٧٧

رقم الإيداع : ٩٨/٤٤٤٣

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على أكرم الأنبياء وسيد المرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ، والهادى إلى الصراط المستقيم ، والخير العميم ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَن اهتدى بهديه، واتبع سُنَّته إلى يوم الدين .

تمهـــيد

لا بد لأى بحث من سؤال يسبقه يكون هو الدافع والمحرك للباحث ، هذا السؤال هو: « لماذا هذا البحث بالذات ؟ » ، وأجد نفسى أندفع بكل وجدانى لأختار موضوع البحث: « تاريخ المسلمين فى إفريقيا ومشكلاتهم » لعدة أسباب :

١ - أننى أنتمى لتلك القارة قلباً وقالباً ، فتربطنى بها وشائج الموقع الجغرافى ، ونشرب نحن وبلاد كثيرة من نهر واحد ، أفاض الله به علينا وبخيراته التى لا تعد ولا تحصى ، وقال عنه رسول الله ﷺ : « إنه نهر من أنهار الجنة » (*) ، كما تربطنى بها عقيدة الإسلام الغالية ، وهى أشد من رابطة النسب والقرابة .

٢ - إن إفريقيا ثانى قارات العالم اتساعاً ، وحباها الله من الخيرات والكنوز ، ما يمكن أن يحولها إلى قارة تقود العالم اقتصادياً وسياسياً وفكرياً ، عندما يحسن أهلها استغلال تلك الكنوز كما يريد الله لها .

٣ - إن إعادة كتابة التاريخ بأيدى المسلمين ضرورة حتمية ، يفرضها الواجب والضمير، لأننا تركنا المستشرقين يسجلون ما يحلو لهم ، ويتوافق مع هواهم ، وتقاعسنا عن خوض غمار الحياة ، فسعوا فى الأرض فساداً ، وطمسوا معالم حضارتنا ، وزلزلوا أركان شخصيتنا الإسلامية ، ونحن نتفرج من مقصورة التاريخ ، حتى كادوا يهدون بناء الأمة الإسلامية .

٤ - إن الاهتمام بإفريقيا هو دين فى عنق أُمة الإسلام نرده لها ، لأنها كانت أول أرض فى العالم تفتح ذراعيها للإسلام ، تحتضنه وهو برعم غض ، تتكاتف عليه قوى البغى والعدوان وتضطهد أهله ، ففروا إلى أرض الحبشة بأمر من المصطفى الحبيب ، لأنه علم من رب العالمين أن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده .

(*) من حديث رواه البخارى ، وذكر فى تفسير ابن كثير لآية : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ ، أول الجزء الثالث (دار إحياء الكتب العربية) .

٥ - إن إفريقيا هى الكابوس الذى يقض مضاجع الغرب والأمريكان ، وقوى الظلم والطغيان فى كل مكان ، لأنهم يعلمون تمام العلم ، أنها المارد المحبوس فى قمقم صنعوه لها بإحكام ، لو تزحزح غطاؤه ، لصنع أهلها المعجزات ، لأنهم يملكون أعظم وسائل صنع الحياة المتقدمة الراقية : يملكون مصادر الثروة التى تجل عن الحصر ، ويملكون العقول المفكرة والسواعد الجبارة ، والعقيدة النقية الصافية ، التى ترسى قواعد العدل والحرية والمساواة ، وأسس البنيان المتين ، للأمم التى تتطلع إلى نهضة تصل بها إلى عنان السماء، ولهذا فإفريقيا بالذات ، هى الأرض البكر التى تحتاج إلى أولى العزم من الرجال المخلصين.

٦ - عار علينا عظيم - نحن المسلمين - أن نترك أخوة لنا فى الدين ، يخضعون لاستغلال الكفار والمشركين والصهاينة والملحدين ، ولا نمد لهم يد العون ، لنتكاتف سوياً من أجل حياة أفضل ، تزيل عنا جميعاً وصمة التخلف التى وصمنا بها هؤلاء المستغلون . فقد آن الأوان لتستعيد الشخصية الإسلامية مقوماتها الحقيقية ، ونسجل نحن بإرادتنا وعزيمتنا وقع خطواتنا فى الحياة ، كما أراد الله لنا ورسوله بشريعته العظيمة التى تجعل الإنسان يعى معنى وجوده الحقيقى على الأرض فينتشر ، وينقب فى بقاعها عن مقومات الحياة الحرة الكريمة ، ويثبت للعالم أجمع ، أن الإسلام بحق دين الحياة والحضارة ، فى ظل معانى نبيلة وغايات سامية .

٧ - إن هذا البحث هو محاولة متواضعة ، لإزاحة الغبار الذي ران على تاريخنا الإسلامى المشرق الوضاء ، لوضع الأمور فى نصابها ، ورجوع الحقائق إلى أصحابها ، وبذلك تستعيد الكرامة الإسلامية مجدها وتضمد جراحها ، فلنا شهادة من رب العالمين المولى العلى الجليل ، بأننا خير أمة أخرجت للناس ، إذا عرفنا كيف نعلى راية الحق عالية خفاقة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لتستقيم موازين الحياة ، وتعود فوضى الفساد الناتجة عن الأهواء والشهوات إلى جحورها ، وتشرق شمس الإسلام ، فتمحو ظلمات الجهالة والطغيان ويثبت الإنسان أنه سيد الكائنات عندما يصل نفسه بالسماء .

والله أسأل أن يوفقنى إلى ما يحبه ويرضاه ، وأن يكون بحثى هذا خطوة على طريق الحق ، ولبنة فى بناء الإسلام الشامخ بإذن الله وصدق من قال : « زرع من قبلنا فأكلنا ونزرع ليأكل من بعدنا » . وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، مع دعاء من الأعماق أن يوحد الله كلمة المسلمين ، ويجمعهم تحت لواء الحق والدين ، فالفرقة والنزاع تعنى الفشل والضياع ، فى عالم التكتلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، فما بال الضلال توحد للحفاظ على مصالحه ، ونحن تتنازعنا الخلافات ، كل حزب بما لديهم فرحون ؟! فاللهم رحماك ! .

* * *



المقـــدمة

إنه ليسعدنى ويشرفنى أن حبانى الله بنعمة الكتابة عن تاريخ المسلمين فى إفريقيا ومشكلاتهم ، ورغم أن الموضوع متشعب الأطراف ، ممتد الجذور ، لأنه يمتد عبر الزمان والمكان : فالزمان يرجع إلى ما يزيد على أربعة عشر قرناً خلت ، والمكان يشمل قارة بأسرها ، إلا أن الكتابة فيه تعتبر ضرورة حيوية ، وديناً واجب الأداء ، نحو إخوة لنا ربطت بيننا وبينهم وشائج العقيدة والجوار والتاريخ المشترك والهدف المشترك ، ولكن باعدت بيننا وبينهم قوى الاستعمار بسياستها المشهورة (فرق تسد) . وأصبح شمال القارة لا يدرى الكثير عن جنوب الصحراء الإفريقية وما يليها : ما هى مشاكل إخوانهم ؟ وما هى معاناتهم وآمالهم ومشاعرهم ؟ وما هى إمكانياتهم والمعوقات التى تعترض حياتهم فى سبيل الانطلاق نحو حياة أفضل وتنمية شاملة ؟ ، وكأن تلك الصحراء صارت عقبة فى سبيل التواصل العقائدى والاجتماعى والثقافى ، و . . . .

وليت الأمر اقتصر على هذا ، لهان الخطب والبلاء ، ولكن تناثرت حبات العقد الاجتماعى ، للمسلمين كافة فى أرجاء العالم ، فانفكت عرى ترابطهم ، وأصبح كل منهم كأنه فى صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء ،لا يحس بدفء التواصل العقائدى ، ولا قوة التكافل الاجتماعى بين المسلمين ، وتقطعت شرايين التعاون الاقتصادى والسياسى والاجتماعى ، التى تشكل روح الحياة فى بنيان الأمة الإسلامية .

وانطبق علينا قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ [1] .

ورغم أن تلك صفات أبعد ما تكون عن أمة الإسلام ، إلا أن الله قد ابتلانا بها لابتعادنا عن معانى الحق الرائعة ، ومبادئه السامية فى إرساء أسس حياة فاضلة .

ولذلك فقد سارعت إلى كتابة هذا البحث ، رغبة منى فى وصل ما انقطع ، وبعث ما اندثر ، بيننا وبين إخوة لنا عرفوا الإسلام قبل أن نعرفه نحن ، بل عرفوه قبل معظم أهل المدينة أنفسهم ، لأن تلك الفئة الفارة بدينها من أذى الكفار فى مكة ، وطئت أول ما وطئت أرض الصومال بحكم موقعها الجغرافى ، فلا يمكن لأهل الحجاز الذهاب إلى الحبشة أو الرجوع منها ، إلا بالمرور على أرض الصومال ، وفى تلك البلاد الطيبة عرفوا

---

(١) الحشر : ١٤ .

معنى الإسلام وأصالته ، وقدروه حق قدره ، ومنهما انتشر إلى بقية القارة ، برهاناً على عراقة الشعب الإفريقى ، وعلى رقيه العقلى والنفسى ، منذ فجر تاريخ الإسلام ، لأنه عرف كيف يميز الخبيث من الطيب ، والحق من الباطل ، فاقتنع به عقيدة وشريعة ، ومنهاجاً وسلوكاً ، أضاء جنبات تلك القارة بنور الإيمان وحضارة الإسلام .

وقد شمل هذا البحث ستة فصول مترابطة الأساس والهدف ، متنوعة المضمون :

الفصل الأول : إعادة كتابة التاريخ الإسلامى ضرورة عقائدية :

إن تاريخ الإسلام مشرق وضاء لذوى البصائر ، وهو كيان المسلمين ووقع خطواتهم فى الحياة ، لذلك كان التركيز عليه كبيراً من القوى المعادية للإسلام ، لتشويه صورته ، وطمس معالم العزة والسيادة فيه ، لخلق جيل مستكين ، يخجل من تصرفات من سبقوه، فيحنى رأسه مهانة وانكساراً . لذلك فإن أولى خطوات بعث العقيدة الحقة ، يجب أن تبدأ بإعادة كتابة التاريخ الإسلامى ، وتحرير صفحته مما ران عليها من خبث الخبثاء ، الذين استغلوا توقف باب الاجتهاد الفكرى عند المسلمين ، فعاثوا فى الأرض فساداً يشكلون العقول كما يبغون ، وهذا عار علينا عظيم ، يتطلب منا تشمير ساعد الجد ، لإجلاء الحقيقة التى نستعز بها ، وترفع بها الأجيال هاماتها ، وتعرف كيف تخط خطواتها ، بثبات وعزيمة فى حياتها .

الفصل الثانى : ملامح أساسية عن قارة إفريقيا :

لا بد من التعرف على تلك القارة معرفة كاملة : تشمل مواردها الاقتصادية ، وملامحها السياسية والاجتماعية ، وطبيعة تركيبها السكانى ، وتوزيع المسلمين فيها ، وذلك حتى يتنبه المسلمون فى كل مكان إلى واقعهم المؤلم ، وخيراتهم التى تنهب ، ويعرفون أنواع الضغوط التى يتعرض لها المسلمون فى إفريقيا ، وأنواع المساعدات التى يمكن أن تقدم لهم ، وأشكال التعاون والتكامل الممكنة ، التى تحقق الخير والرفاهية للمسلمين فى كل مكان .

الفصل الثالث : تاريخ الإسلام فى إفريقيا :

إن ذلك الفصل حافل بلا شك بالأحداث ، التى بدأت حينما خرج جعفر بن أبى طالب ابن عم رسول الله ﷺ مهاجراً مع الفئة المضطهدة من المسلمين إلى الحبشة ، حيث كانت تلك الهجرة فاتحة خير على القارة كلها ، واستعرضت فيه أدوار تطور الإسلام فى إفريقيا ، ووسائل انتشار الإسلام فيها ، وأسباب انتشاره بتلك السرعة الفائقة ، ثم عرضت نماذج من القادة المسلمين فى العصر الحديث ، رداً على المزاعم الحاقدة التى تحاول أن تحبط همة المسلمين ، بإفهامهم أن حضارة الإسلام وقدرته على تكوين القادة ، كانت

فيما مضى فقط . أما فى العصر الحديث ، فقد عجز الإسلام عن تحقيق ذلك ، فأردنا أن نثبت أن خير الإسلام مستمر إلى قيام الساعة ، طالما هناك رجال آمنوا به حق الإيمان ، ونصروا دين الله ، فلا بد أن ينصرهم الله ويعلى شأنهم ، مهما كان العصر الذي يعيشونه ، ومهما كانت تحدياته .

الفصل الرابع : المسلمون والاستعمار الأوروبى لإفريقيا :

إنه الفصل الذى يعرض كيف تعرضت إفريقيا لموجات الغزو الأوروبى ، ودور الزعماء المسلمين فى مواجهة ذلك الغزو ، وكيف استطاعت قوى الاستعمار بأسلحتها الحديثة ، أن تقضى على كل مقاومة مخلصة ، للدفاع عن العقيدة والأرض والعرض والنفس ، وكيف أنفذت تلك القوى الباغية معاولها ، لهدم الحضارة الإسلامية الإفريقية ، وكيف بدأ النشاط المسيحى يسترد قوته ، فى القرن التاسع عشر مع موجات الغزو الأوروبى ، وانتشار التبشير واستعلاء مكانته ، ثم تكلمت عن صور التبعية والاستعمار الجديد فى القارة الإفريقية حتى بعد أن نالت حريتها ، والوجود الإسرائيلى فى إفريقيا ، وعدائه الشديد للإسلام والمسلمين ، ثم ختمت الفصل بدراسة عن أسباب الضعف الإسلامى ، وكيف يمكن مواجهته .

الفصل الخامس : مشكلات المسلمين فى إفريقيا (مشكلات ناتجة عن غياب الوعى الإسلامى) :

ونظراً لأن مشكلات المسلمين فى إفريقيا متعددة الجوانب ، فقد قسمتها إلى فصلين (الخامس والسادس) ، وفى هذا الفصل تناولت المشكلات الناتجة عن غياب الوعى الإسلامى وهى : مشكلة التبشير - اضمحلال التراث الإسلامى - غياب الإعلام الإسلامى باللغات الإفريقية المتداولة - مشكلات تتعلق بتوجيه الدعم وصراع الأشقاء - وأخيراً مشاكل الأقليات المسلمة فى إفريقيا .

وقد حاولت - بقدر الجهد - أن أجمع اجتهادات المخلصين من أولى الألباب ، فى علاج تلك المشكلات ، ولم أرد أن أرجئها إلى الخاتمة ، لأن لكل داء دواء ، وما يلائم الخطوات التفصيلية ، غير التحليل الكلى ، وقد كان ذلك اجتهادى أيضاً - بفضل الله وحمده - فى كل الفصول السابقة ، حيث كان غاية همى هى : تشخيص الداء والدواء لتحقيق الفاعلية المطلوبة .

الفصل السادس : مشكلات المسلمين فى إفريقيا (مشكلات ناتجة عن التخلف) :

ألقيت نظرة عامة على مشاكل التخلف فى إفريقيا ، وأتبعتها بنظرات تفصيلية تشمل :

مشكلات التخلف الاقتصادى - مشكلات التخلف الاجتماعى - مشكلات التخلف السياسى ، مع عرض تحليلى للمشكلات والاجتهادات المطروحة لمواجهتها .

الخاتمة - النتائج - التوصيات :

فيها عصارة الأحاسيس ، وخلاصة التجارب والخبرات ، التى استقاها وجدانى وعقلى خلال رحلة البحث ، والاطلاع على كل ما وصلت إليه يداى من اجتهادات المسلمين فى تمحيص مشكلاتهم ، ومحاولة إبداء الرأى بقلوب مخلصة وعقول واعية ، أدعو الله أن ييسر لها من ينفعل بها كيانهم ، وتتجاوب معها عقيدتهم وإيمانهم ، ويكونون فى موقع مسئولية ، تمكنهم من الأخذ بيد الشعوب الإفريقية ، وإنها لأمانة جد خطيرة ، ومسئولية عظيمة ، ولكن النتائج بلا شك كريمة ، تشرئب إليها أعناق الرجال الذين ارتووا من منابع الإسلام العذبة الفياضة .

فاللَّهُمَّ تقبل عملى هذا ، واجعله لبنة فى بنيان الحق ، وخطوة على طريق تكتل المسلمين ، أمام قوى المادية الجارفة ، حتى ينجوا من طوفانها ، إلى مرفأ الحق المكين ونوره المبين.

﴿ ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ [1] .

* * *

---

(1) المطففين : ٢٦ .

الفصل الأول
إعادة كتابة التاريخ الإسلامى
ضرورة عقائدية

● التاريخ وروح الإسلام :

عندما بدأت أقرأ فى مراجع متعددة عن تاريخ الإسلام فى إفريقيا : وجدت نفسى أتيه في دوامات شتى ، ولا أكاد أفهم الكثير عن هذا التاريخ ، وكدت أتهم نفسى بالتخلف ، الذى وصمنا به الجماعة الغربيون ، وظننت أنه طابع قد ختم على قلوبنا وعقولنا ، وانزعجت كثيراً ، فهذا معناه انهيار الأمة الإسلامية ، وتلاشيها فى بحار الظلمات ، من جهالة ويأس وتشتت وضياع الهوية ، و . . .

ولكن رحمة الله قريبة من المحسنين ، حيث ساق المولى عَزَّ وجَلَّ إلىّ ، ذلك الكلام الطيب عن ابن سيناء ، الطبيب المسلم العالِم ، وهو يتحدث فى ترجمته الذاتية ، التى نقلها عنه تلميذه عبد الواحد الجوزجانى فيقولَ رحمه الله [1] :

قرأت كتاب « ما بعد الطبيعة » للإلهى ، فما كنت أفهم ما فيه ، والتبس على غرض واضعه ، حتى أعدت قراءته أربعين مرة ، وصار لى محفوظاً ، وأنا مع ذلك لا أفهمه ، ولا المقصود به ، وأيست من نفسى وقلت : هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه ، وإذا أنا فى يوم من الأيام حضرت وقت العصر فى الوراقين ، وبيد دلال مجلد ينادى عليه ، فعرضه علىّ فرددته رد مبرم ، معتقداً أن لا فائدة فى هذا العلم ، فقال لى : اشتر منى هذا ، فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم ، وصاحبه محتاج إلى ثمنه ، فاشتريته ، فإذا هو كتاب « أبى نصر الفارابى » فى « أغراض كتاب ما بعد الطبيعة » ، ويستطرد ابن سيناء فيقول: «ورجعت إلى بيتى ، وأسرعت إلى قراءته ، فانفتح علىّ فى الوقت أغراض ذلك الكتاب» ثم يقول : « وتصدقت فى ثانى يوم بشىء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى » .

ذلك هو ابن سيناء ، صاحب كتاب « القانون » الذى ظل المنهل الوحيد لطلاب الطب

---

(١) من مقال : « العقيدة الصادقة وأثرها فى التقدم العلمى عند المسلمين » ، للأستاذ محمد مصطفى البسيونى، مجلة الوعى الإسلامى - الكويت - العدد (٢٤٤) ربيع الثانى ١٤٠٥ هـ/ يناير ١٩٨٥م (من ص ١٢ إلى ١٧) ، وهذا الكلام من كتاب منطق المشرقيين - تصنيف الرئيس أبى على بن سيناء .

والمشتغلين به فى أوروبا حتى القرن السابع عشر ، والذى قال عن نفسه : « كلما كنت أتحير فى مسألة ، أو لم أكن أظفر بالحد الأوسط فى قياس ، ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى يفتح لى المنغلق ويتيسر المعسر » .

وقرأت فى نفس المقال عن عالم الطبيعة ، ومؤسس علم الضوء ، فى كتابه الأشهر «المناظر» الحسن بن الهيثم ، الذى يحكى عن نفسه فيقول : « اشتهيت إيثار الحق وطلب العلم ، واستقر عندى أنه ليس ينال الناس من الدنيا شيئاً ، أجود ولا أشد قرابة إلى الله من هذين الأمرين » .

وها هو الكيميائى المسلم الأشهر جابر بن حيان ، الذى كثيراً ما صرح بأن مصدر علمه هو النبى ﷺ ، فيقول مثلاً فى المقالة الرابعة والعشرين ، من كتاب « الخواص الكبير » : «فوالله ما لى فى هذه الكتب إلا تأليفها ، والباقى علم النبى ﷺ » . وعلى هذا الضوء يمكن أن نفهم اسم الكيميا ، الذى أطلق على أبحاث جابر ، إذ هو اسم معرب من اللفظ العبرانى ، وأصله : كيم يه ، أى أنه من عند الله . وقد عنى جابر بن حيان بإبراز السلوكيات العلمية ، التى ينبغى أن يتحلى بها العلماء ، وقد كان الإسلام عنده أهم مصدر يجب أن يستمد منه العالم أخلاقه ، وكم نصح العلماء فى مقالته آنفة الذكر ، بأن يثابروا على البحث العميق والدرس الدقيق ، مهما اشتد العناء دون يأس ، ثم هو يستشهد فى هذا بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ [1] .

وهكذا عرفت لماذا لم أفهم تاريخ الإسلام فى إفريقيا فهماً جيداً ، لأنه تنقصه أصلاً روح الإسلام ، فصار جسداً بلا روح ، لا يغنى فى رى التعطش ، إلى معرفة الحقيقة معرفة كاملة، وذلك فى رأيى يرجع إلى سببين رئيسيين :

أولهما : توقف باب الاجتهاد الفكرى عند المسلمين ، منذ حوالى قرنين من الزمان[2]، وفى خلال هذين القرنين ، حدث تغير هائل فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، بعد الانقلاب الصناعى والتطور التكنولوجى ، تبعه تغير فكرى وسياسى ، ولم تعد كتابات المسلمين الأوائل عن تاريخ الإسلام فى إفريقيا ، تفى بالرد على أسئلة جديدة ، فرضتها حركة التبشير الواسعة النطاق فى إفريقيا ، نتيجة التوسعات الاستعمارية التى بدأها البرتغاليون ، حيث أنشأوا أول مراكز للتبشير ، فى ساحل الذهب ومصب نهر الكنغو ، واعتنق ملك الكنغو الدين المسيحى عام ١٤٩١م [3] . . .

---

(١) يوسف : ٨٧ .

(٢) « نحو اجتهاد إسلامى معاصر » : د . يوسف القرضاوى ، مجلة الدوحة العدد (١٠٩) ربيع الثانى ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م ، (ص ٨) .

(٣) « الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا » : د . حسن أحمد محمود ، دار الفكر العربى (ص٣٦).

تلك الأسئلة تتمثل فى : ما هو مدى نجاح حركة التبشير ، بوسائلها الدينية والتعليمية، فى الانتشار فى إفريقيا ؟ وما مدى إقبال الشعوب الوثنية على الدين الذى تدعو إليه ؟ وهل استطاعت أن تجارى الإسلام فى قوته وسعة انتشاره ؟ وأيهما أكثر قبولاً لدى أهل البلاد: الإسلام أم المسيحية ؟ وأيهما أكثر ملاءمة لأحوال الناس وحياتهم وتقاليدهم وعاداتهم ؟ وأيهما أقوى على البقاء وأقدر على المقاومة ؟ ولمن الغلبة فى هذا العراك بعيد الأثر فى مستقبل إفريقيا والإفريقيين ؟

أسئلة كثيرة تحتاج إلى أولى العزم من المسلمين المخلصين ، الذين يدفعهم إيمانهم إلى البحث العلمى الجاد ، موقنين بأن الله سبحانه وتعالى الذى حثهم على التفكير والبحث، لا بد أن يفتح لهم بقدرته أبواب العلم الموصدة ، ما داموا مخلصين له الدين ، متسمين بالحيدة والموضوعية والأمانة العلمية .

ثانيهما : أنه منذ توقف باب الاجتهاد الفكرى ، والبحث العلمى المتواصل عند المسلمين، ووقوع إفريقيا لقمة سائغة فى يد المستعمرين الغربيين ، وهذا التاريخ يكتب بأقلام مشبوهة وقلوب تضمر حقداً على الإسلام . وإن فرضنا أن بعض الكتاب التزم أمانة البحث العلمى فى سرد التاريخ ، فإننا نستبعد كل البعد ، أن يكتبوا بروح سمحة ، تظهر عظمة الإسلام ، ودوره فى إرساء دعائم الحضارة فى إفريقيا ، وكيف أنه لم يهدم المجتمعات أو يحاول اجتثاثها من جذورها ، كما فعل الغربيون باستعلائهم وتكبرهم ، بل حافظ الإسلام على الأصول القبلية ، وزادها تألقاً بأخلاق الدين العذبة ، ومبادئه النبيلة ، وأهدافه السامية ، مما يتوافق مع الفطرة البشرية فى كل زمان ومكان .

كما لم يبرز هؤلاء الكتاب : أولئك الذين بزغوا فى كل مكان على أرض إفريقيا ، وساروا منارات شامخة فى أصول الفقه والعقيدة وكل العلوم ، أضاءوا طريقها ، وبددوا ظلماتها وحملوا مشعل الحضارة ، فكانوا نوراً يهتدى به ، كل من تتشوق نفسه إلى الرقى الروحى والتقدم المادى .

من أجل هذا وذاك ، ظهر تاريخ الإسلام فى إفريقيا مشوهاً ، تنقصه روح الحياة الحقة، روح العقيدة الراقية ، روح التطور الفكرى والحضارى ، روح الإخلاص ونماذج القمم الإنسانية ، التى جاهدت فى الله حق جهاده ، فاستحقت أن تكون نماذج ، تحفز الهمم وتشحن الصدور ، بعزيمة الإيمان الصادقة ومثالياته الراقية ، فالسلوك والقدوة هما دعامتان أساسيتان فى المنهج الإسلامى ، لتكون علامات على طريق الحق ومنارات هدى للسالكين ، ولنا فى القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة خير دليل على ذلك ، حيث احتشدا

بنماذج لكل معانى النبل الوفاء والتضحية والإيثار ، عظة وعبرة لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ [1] .

● ضوابط فى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى :

تدل كلمة التاريخ على الإعلام بالوقت ، مضافاً إليه ما وقع فى ذلك الوقت ، من حوادث وأخبار ، والتاريخ بهذا المعنى اللغوى قديم ، تمتد جذوره إلى الأسرة الأولى من البشر [2] ، وهو بالنسبة للمسلمين يمثل عقيدة ، لأن القرآن ذكر لنا قصة خلق آدم ، وما صاحبها من أجواء روحية ، وأحداث فى الملأ الأعلى ، تكون لنا نبراساً فى خطوات شريعتنا ، تحذرنا من الشيطان ومداخله إلى النفس البشرية ، نتيجة عداوته الأزلية لأبينا آدم ، ثم تطورت أحداث القرآن فى تتبع رحلات البشر على الأرض ، وقصص الأنبياء وجهادهم ، لدعوة الناس إلى الحق وهدايتهم إلى سبيل الرشاد ، ثم بيان عاقبة الظالمين ، كنتيجة حتمية لمعاندتهم لأنبيائهم ، وتعارض أهوائهم مع سنن الفطرة ومبادئ الحق والعدل .

وهكذا ، فالتاريخ بالنسبة للمسلمين ليس مجرد أحداث صماء أو أخبار جرداء ، بل هو روح الحياة ، وهو ماضيهم الذى يسرى فى وجدانهم ، ليكون لهم عظة وعبرة فى حاضرهم ، ووسيلة من وسائل التخطيط والتنبؤ للمستقبل ، لأن عقيدتهم تشمل ما قبل قبل التاريخ ، وما بعد بعد التاريخ ، بل والحياة بأسرها ، ولذلك فهناك ضوابط متعددة، ومؤشرات هامة ، يجب أن تكون سلاح المسلم وعدته ، وهو ينقب فى التاريخ .

تلك الضوابط تتمثل فى :

١ - أول المنابع الأصلية للتاريخ الإسلامى هو كتاب الله . قال عنه رسول الله ﷺ : «إنها ستكون فتنة » ، قيل : فما المخرج منها ؟ قال : « كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا تلتبس الألسن ، ولا يخلق عن الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تفته الجن إذ سمعته عن أن قالوا : ﴿ **إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد** ﴾ من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به آجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » (رواه الترمذى عن علىّ رضى الله عنه) .

---

(١) إبراهيم : ٢٥ .

(٢) « منابع التاريخ الإسلامى وبدء الكتابة فيه » : د . محمد طيب النجار ، مجلة الأزهر ، (ص١٥٩٧) ، الجزء التاسع (مجمع البحوث الإسلامية) ذو الحجة ١٤٠٠ هـ/نوفمبر ١٩٨٠م .

٢ – ثانى تلك المنابع هى : السُّنَّة النبوية المطهرة ، ففيها مبادئ الدين الإسلامى الحنيف وآدابه ، وفيها بيان لأحوال المجتمع ، الذى كان يعيش فيه الرسول ﷺ وأصحابه، وتصوير صادق لما مر بهم ، من الآمال والآلام والأحداث الكبار الجسام ، مما يشكل فى مجموعه منهاجاً متكاملاً لأساسيات الحضارة الإسلامية (سياسية واقتصادية واجتماعية وعسكرية و . . .) .

٣ – إن مناهج علوم الحديث والفقه والأصول ، أوجبت ألا يقبل الخبر إلا إذا رواه العدل الضابط عن مثله ، فيصل السند من غير شذوذ ولا علة ، وهذه المناهج تتحدى أرقى ما وصلت إليه مناهج البحث الحديثة فى الدنيا كلها حتى يومنا هذا ، حيث انفرد المسلمون بالإسناد ، ولم يكن الحال كذلك بالنسبة لكتابة التاريخ الإسلامى أو تصنيفه ، حيث جمعوا فى مصنفاتهم كل ما سمعوه أو قرأوه ، لأن هذه الروايات تمثل أخباراً لا تتصل بالحلال أو الحرام [1] .

وهذا يستلزم من الباحثين التمحيص فى تسجيل التاريخ ، بحيث يكون مؤشرهم فى ذلك قواعد القرآن الأساسية ، والمؤشرات العامة للسُّنَّة النبوية .

٤ – استفاد خصوم الإسلام من عدم تحقيق هذه الروايات ، فنقلوها كما هى ، ونسبوها إلى المؤرخين ، ليضفوا عليها الثقة ، يدفعهم إلى ذلك أحقادهم المدفونة نحو ذلك الدين القيم : فمثلاً ينقل الطبرى عن أبى مخنف خبراً عن التحكيم ، ثم ينقله عنه ابن مسكون، وكذا ابن الأثير ، ثم ابن كثير ، وابن خلدون . . . ويخيل للقارئ أن الخبر قد رواه خمسة من الرواة ، وورد فى ستة مصادر تاريخية ، وهو فى الحقيقة قد رواه شخص واحد ، هو أبو مخنف الأزدى ، ومصدر واحد هو الطبرى .

وهذا المصدر قد نبه صاحبه : أنه نقل ما سمع من صحيح وسقيم للأمانة العلمية ، وأن ما ورد من روايات فيها شناعة ، فليس مسئولاً عنها ولا يوثقها ، إنما نقل ما نقل إليه ليخضع للتمحيص والتحقيق . . كما قد يخيل للقارئ أن الراوى أبا مخنف الأزدى ، هو الصحابى الجليل مخنف بن سليم بن الحارث الأزدى ، الذى كان أميراً على أصبهان، من قبل الإمام علىّ رضى الله عنه . وقد روى له أصحاب السُّنَّة الأربعة ، ولكن بالبحث الدقيق والعميق يتضح غير ذلك ، فأبو مخنف الأزدى يروى عن التابعين ، فهو ليس من طبقة الصحابة ، واسمه لوط بن يحيى ، ويكنى « أبو مخنف الأزدى » ، وهو حفيد الصحابى الجليل سالف الذكر ، وهذا الحفيد أغفله المؤرخون وعلماء الرجال ، فلم يرد اسمه ضمن الرواة الثقات أو الضعفاء ، فلا يجوز والحال هذه توثيق روايته [1] .

---

(١) « الحاجة إلى منهاج للتاريخ الإسلامى » : للأستاذ سالم البهنساوى ، الوعى الإسلامى (ص٥٢) ، العدد (٢٣٥) ، رجب ١٤٠٤ هـ/ أبريل ١٩٨٤م .

(٢) المرجع السابق : « الحاجة إلى منهاج للتاريخ الإسلامى » (ص ٥٧) .

٥ – يجب أن يعى الباحثون جيداً : قدرة العقل الإنسانى على الاجتهاد المستمر والابتكار المتجدد ، فكل عصر له مشكلاته وواقعه وحاجاته المتجددة ، ولذلك سيظل أبد الدهر فى المفهوم الإسلامى كلمتان مشتقتان من مادة واحدة ، لهما أكبر الأثر فى الحياة الإسلامية ، وفى مسيرة الأمة الإسلامية على امتداد التاريخ ، هاتان الكلمتان هما : «الاجتهاد والجهاد» ، وقد اشتقتا من مادة جهد ، بمعنى بذل الجهد (بضم الجيم) أى الطاقة ، أو تحمل الجهد (بفتح الجيم) أى المشقة ، والكلمة الأولى هدفها معرفة الهدى ودين الحق الذى أرسل الله به رسوله ، والأخرى هدفها حمايته والدفاع عنه [1] .

الأولى ميدانها الفكر والنظر ، والأخرى ميدانها العمل والسلوك .

وعند التأمل نجد أن كلا المفهومين يكمل الآخر ويخدمه ، فالاجتهاد هو لون من الجهاد العلمى ، والجهاد هو نوع من الاجتهاد العملى ، وعندما يضع المسلمون السلاح ، فإن مداد العلماء يقاس بدماء الشهداء .

٦ – إن مصادر التاريخ الإسلامى بحالتها ، لا تعبر تعبيراً صادقاً عن حقيقة الأحداث ومغزاها وأهدافها ، ومما يؤسف له أن الكتاب فى تاريخ الإسلام ، مخلصهم ومغرضهم أقبلوا على هذه المصادر ، يأخذون كل ما فيها ، دون أن يكون هناك منهاج محدد ، يسير الباحث على ضوئه ، ليميز الخبيث من الطيب ويهتدى سواء السبيل ، ولذلك ظلت عصور التاريخ الإسلامى ، مرتعاً خصباً للدس والوضع والتجنى والجهل بالإسلام ، مما أوقع التاريخ الإسلامى ضحية مؤامرات كبرى ، لتشويه صورته ، والافتراء على أصول الإسلام ، وإلباس الباطل ثوب الحق ، والطعن فى رجال الإسلام وقادته ، لزعزعة عقائد المسلمين ، وإبعادهم عن مصدر قوتهم وعزتهم ، والانتقاص من حضارة الإسلام ، صاحبة الفضل الأكبر على الحضارة الحديثة .

٧ – إن المسئولية الملقاة على عاتق علماء المسلمين اليوم : هى جمع أخبار التاريخ الإسلامى وتصنيفها وتحقيقها وتهذيبها ، فى ضوء منهج لا يتعارض مع أصول الدعوة الإسلامية ، وهكذا نؤصل القيم العليا التى ورثناها عن ديننا الحق ، والتى هى أساس وجودنا ، فأخطر الأخطار ، أن نستمد تاريخنا من أناس ، تمتد جذور فكرهم ، إلى مبادئ بعيدة كل البعد عن ديننا ، ونعزل الفكر الإسلامى عن جذوره وامتداداته منذ نزول القرآن ، فتاريخ أربعة عشر قرناً تعتبر ثروة فى مجال التشريع والاقتصاد والسياسة

---

(١) « نحو اجتهاد إسلامى معاصر » : د . يوسف القرضاوى ، مجلة الدوحة ، العدد (١٠٩) ربيع الثانى ١٤٠٥ هـ/ يناير ١٩٨٥م ، (ص ٨) .

والاجتماع ، إذا محصنا ما اعتراه من ذبول ، وسجلنا تجارب القادة والمصلحين ، فى محاولاتهم العديدة ، للعودة بالحياة إلى الصيغ التى أرادها الله ورسوله (١) .

٨ - يجب أن يكون فى وعى الباحثين : أن تزييف حقائق التاريخ الإسلامى ، والعبث بها من أخطر أسلحة الحرب الصليبية الجديدة فى ساحة الفكر ، فبعد الهزيمة العسكرية فى الحروب الصليبية ، وفشلهم فى تحقيق أهدافهم على الأرض الإسلامية ، عادوا أدراجهم من حيث أتوا ، وبدأ عدد من القساوسة والرهبان العائدين ، ينشر مذكرات وكتب عن الإسلام والمسلمين ، ملئت بالطعن والعيب ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تداعى رجال الكهنوت والسياسة والفكر ، من أجل وضع الخطط التى تكفل لهم تخليص بيت المقدس وإعادة الأرض الإسلامية إلى السيطرة النصرانية ، وقام القس الأسبانى « ريمون رول » ينادى باستخدام سلاح التنصير والغزو الفكرى ، بدلاً من الحرب الصليبية العسكرية ، فكان أول من نادى باستخدام الإرساليات النصرانية ، وكذلك أول من نادى بضرورة إيجاد كرسى ، للدراسات الشرقية الإسلامية فى الجامعات الأوروبية ، وهو الذى أدخل تعليم العربية فى المعاهد النصرانية للدراسات العليا (٢) .

٩ - إن تلك الحملة الشرسة على تاريخنا الإسلامى ، تستلزم أن نعض بالنواجذ على ديننا وعقيدتنا ، فقد كان المسلمون فى مختلف العصور - حتى فى أشدها ضعفاً وتخلفاً - قائمين بالحق ، فى وجه محاولة احتوائهم أو صهرهم فى بوتقة الأممية ، وكانوا فى أسوأ عهود الاحتلال العسكرى والاستعمار السياسى ، غاية فى اليقظة تجاه محاولة صهرهم فى بوتقة أجنبية . وللأسف بعد أن تحرروا من السيطرة الاستعمارية ، دخل عليهم إحساس خادع بالأمن ، أودى بهم فى متاهات الاقتباس من الغرب ، وزيف الحضارة الخادعة ، مع أن الإسلام يدعونا ونحن فى أشد حالات القوة ، إلى الحذر الدائم ، والمرابطة فى الثغور ، حتى لا نفقد أصالتنا ، نتيجة غزو أسلوب العيش الغربى لنا ، وسيطرة قيمه الوافدة على مفاهيمنا وسلوكنا ، وهذا أشد حالات الضياع (٣) .

عندما لاحت فى العالم الإسلامى ، فى أواخر القرن الثامن عشر ، بوادر الحركات الإصلاحية ، هال ذلك الغرب ، وخاف من عودة المارد الإسلامى ، إلى حال الصحوة ، فقرر

---

(١) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى « من محاولات الإصلاح فى التاريخ الإسلامى » بقلم د . عماد الدين خليل ، مجلة الأمة (ص ٣٤) ، العدد (٢١) السنة الثانية رمضان ١٤٠٢ هـ/ يوليو ١٩٨٢م .

(٢) « منهج استشراقى فى تزييف حقائق التاريخ الإسلامى » : إسماعيل الكيلانى ، مجلة الأمة ، العدد (٤٧) ، السنة الرابعة ذو القعدة ١٤٠٤ هـ/ أغسطس ١٩٨٤م .

(٣) « فى قضية الاقتباس من الغرب » : للأستاذ أنور الجندى ، مجلة الوعى الإسلامى (ص١٥٢) - السنة السابعة عشرة - العدد (١٩٤) ، صفر ١٤٠١ هـ/ ديسمبر ١٩٨٠م (الكويت) .

أن يهيمن على هذه الحركة ، يدخلها فى كل قناة إلا قناة الإسلام ، لذلك فقد عوملت المجتمعات الخاضعة للاستعمار ، وكأنما هى مجتمعات نصرانية ، لا مناص فيها من فصل الدين عن الدولة ، كما حدث فى أوروبا ، وإقامة سائر الهياكل الثقافية ، على أسس لا دينية علمانية ، تقضى على أخلاق الإسلام ، ووجهة نظره فى السياسة والعلم والتعليم والإعلام ، وبالتالى لا يكون هناك وجود للفهم القرآنى والشرعى لحياة المسلم [١] .

وهكذا يلزمنا فى البحث العلمى لتاريخنا الإسلامى ، أن نكون على حذر مما نتلقاه من معلومات ، وأن نفند منها الحقائق ، التى تتفق مع عظمة تراثنا ، وأصالة عقيدتنا ، حتى يوفقنا الله إلى الصراط المستقيم ، فهو ليس خطأ وهمياً ينشأ عن هوى الأفراد والجماعات، وإنما هو خط حقيقى يرسمه من الناحية العلمية القرآن الكريم ، ومن الناحية العملية الرسول الذى حمل الوحى وطبقه ، وربى جيلاً من الناس على عقائده وشرائعه . إنه جهاد عام لإقامة إنسانية توقر الله ، وتمشى فى القارات كلها وفق هداه ، حتى لا يذل مظلوم أو يشقى محروم ، أو يعبث بالحقوق مغرور [٢] .

ولن يتحقق ذلك الصراط المستقيم ، إلا باعتزاز المسلمين بتاريخهم ، وتطهير صفحته مما علق بها من أدران الحاقدين والطامعين .

● أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ [٣] :

اعتاد الدارس والقارئ للمراجع التاريخية والجغرافية ، أن يقرأ : أن كثيراً من بلاد العالم ، ومنها إفريقيا وآسيا ، وما يسمى فى عصرنا « بالأمريكتين » وبعضي الجزر فى البحار والمحيطات ، كانت مجهولة للإنسان من ذرية آدم عليه السلام ، وأن الذين أخذوا زمام المبادرة ، وكشفوا هذه المجاهيل ، هم أبناء أوروبا ، ومنهم الأسبان والبرتغاليون والإنجليز والهولنديون .

وأن أوروبا حينما اكتشفت هذه المجاهيل ، وجدت فيها أناساً يعيشون حياة بدائية ، لا تكاد تختلف عن حياة إنسان - ما سموه أيضاً - بالعصور الحجرية ، أو عصور ما قبل التاريخ ، ولذلك؛ فإحساساً منها - أى أوروبا - بمسئوليتها أمام التاريخ ، قررت أن تحتل هذه البلاد ، لكى ترتقى بهذه الأمم والشعوب فى سلم الحضارة : وهذا كله من باب

---

(١) « العلمانية ذلك الطاعون الأكبر » : للأستاذ أحمد العنانى ، مجلة الوعى الإسلامى (ص ٥٥) العدد (٢٤٥) - السنة الحادية والعشرون - جمادى الأولى ١٤٠٥ هـ/ فبراير ١٩٨٥م (الكويت) .

(٢) « شعاع على مسار الدعوة » : الشيخ محمد الغزالى ، مجلة الأمة (ص ١٤) ، العدد (١٩) - السنة الثانية - رجب ١٤٠٢ هـ/ مايو ١٩٨٢م .

(٣) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ : إفريقيا يراد لها أن تموت جوعاً ، د . جمال عبد الهادى محمد مسعود - د . وفاء محمد رفعت جمعة ، دار الوفاء للطباعة والنشر - المنصورة .

الأكاذيب التى لم تجد من يتصدى لها ويبين حقيقتها - وإن وجدت - فلا تكاد تجد لها صدى كبيراً ، لدى من يتعرفون على تلك الحقيقة نظراً لقلة عددهم ، فى مقابل الأعداد الضخمة من بنى آدم الذين يتخرجون من دور العلم ، وقد لقنوا تلك الأكاذيب على أنها حقائق لا تقبل المناقشة أو التشكيك .

ونحاول هنا تفنيد تلك الأكاذيب بعون الله ومشيئته ، وبما يسمح به المجال فى بحثنا هذا ، ولذلك نكتفى بما يلقى الضوء ، ويعيد الثقة إلى مسلمى قارة إفريقيا ، وليواصلوا الخطى بعزيمة تنبع من أصالة العقيدة ، حتى يستعيدوا مجدهم وعزهم ، ويردون بالدليل العملى على دعاوى الغرب الباطلة ، ويعلنون للعالم أجمع : أن إفريقيا عرفت الحضارة منذ فجر التاريخ ، لأنها عرفت الإسلام عن طريق سام وحام ابنى نوح ، لما رواه الترمذى عن سمرة بن جندب (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم » ، ثم عرفته عن طريق يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وكذلك موسى عليه السلام . . .

ومن العقيدة الإسلامية التى نعتز بها اعتزازاً مطلقاً نخلص إلى ما يلى :

١ - إن الله قد خلق الأرض وأنزل إليها آدم وزوجه ، ومَنَّ الله عليهما بالذرية الكثيرة، وليس من المتصور أن الله سبحانه وتعالى ، قد أنزل آدم إلى الأرض لا يعرف عنها شيئاً، أو لا يعرف عن جزء من أجزائها شيئاً ، لأن الأصل أن آدم هو الذى ربى أبناءه على الإسلام ، وعلمهم مما علمه الله - عَزَّ وجَلَّ - وأنه لا بد وقد أعطاهم معلومات عن الأرض التى سيعيشون عليها ، وواجبهم من ناحية إقامة دين الله عليها ، وذلك يستلزم علم أبناء آدم بالأرض وأجزائها (قاراتها) التى سيعيشون عليها .

٢ - إن أول دين عرفته الأرض هو الإسلام ، وأنه الدين الذى لا يقبل الله من الأوَّلين أو الآخرين غيره ، وعندما جاء وقت استطاع الشيطان فيه أن يجتال أبناء آدم عن دينهم ، أرسل الله إليهم نوحاً عليه السلام ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وبعد ألف عام إلا خمسين من الدعوة إلى الله ، سخر الله الطوفان ، فأهلك المكذبين من ذرية آدم عليه السلام ، ونجى الله نوحاً ومن معه ، وكان لنوح ثلاثة أبناء : سام وحام ويافث : توجه سام إلى جزيرة العرب ، وتوجه حام إلى إفريقيا ، وتوجه يافث إلى أوروبا ، ومعهم بعض المسلمين الناجين من الطوفان ، ليعمروا هذه الأجزاء من الأرض ويتناسلوا ، ويربوا أبناءهم وذراريهم على الإسلام .

٣ - إن القارات - كما يقول الجغرافيون - : كانت بينها معابر أرضية أخرى غير الموجودة حالياً : أحدها عند بوغاز باب المندب ، وكان يربط إفريقيا بآسيا ، وآخر عند جبل طارق ، وكان يربط أوروبا بإفريقيا ، وذلك يعنى أن العبور من قارة إلى أخرى ،

كان ممكناً عن طريق البر ، وكان ممكناً عن طريق البحر ، أى أن الارتباط بين القارات كان قائماً منذ القدم .

٤ - إذا وجد أى إنسان على أية بقعة من الأرض ، فهو من ذرية آدم عليه السلام ، وبذلك فإن إخواننا فى إفريقيا ليسوا من ذرية الحيوان ، الذى نشأ وتطور من الخلية الحية التى نشأت فى البرك والمستنقعات ، كما يدعى أدعياء العلم (١) .

وسكان إفريقيا إما أن يكونوا على الإسلام ، أو أن الشيطان قد اجتالهم عن دينهم . فالله سبحانه وتعالى قد أرسل رسلاً ، إلى كل بقعة من بقاع الأرض ، يدعون إلى دين الله : ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ (٢) .

﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ (٣) .

إذن ادعاء أهالى أوروبا أنهم قد خرجوا فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ليكتشفوا مناطق وقارات ، لم تكن معروفة من قبل ، فهو من باب الادعاء الذى لا يقوم على أساس ، فكل بلاد العالم كانت موجودة ومعروفة للناس .

٥ - إن الحضارة قديمة قدم البشرية ، وادعاء الغرب أنهم أصحاب الحضارة ، ادعاء لا سند له من الصحة ، فآيات القرآن حافلة بذكر حضارات الأمم السابقة ، مما يدحض غرورهم وادعاءهم :

﴿ **إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد** ﴾ (٤) .

وتكلم عن براعة الأمم فى البناء والتشييد ، حتى إنهم بنوا من الجبال بيوتاً : ﴿ **كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين** ﴾ (٥) .

وهناك أمم برعت فى الطب ، لدرجة أدت بهم إلى تقدم العمر ، ظنوا معه الخلود : ﴿**وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون** ﴾ (٦) .

وقد أقام الإسلام حضارة عظيمة ، بسطت أرجاءها على العالم كله ، وأنارت لهم سبل التقدم والرقى ، وحققت إفريقيا حضارة رائعة فى رحاب الإسلام ، والغرب هو سبب نكستها وتأخرها فى جميع المجالات ، وهذا هو ما يجب أن يعيه أهل إفريقيا جيداً ، حتى

---

(١) موسوعة تاريخ العالم ، المجلد الأول ، معالم تاريخ الإنسانية ، المجلد الأول .
(٢) فاطر : ٢٤ . (٣) النحل : ٣٦ . (٤) الفجر : ٧ - ١٠ .
(٥) الحجر : ٨٢ . (٦) الشعراء : ١٢٩ .

يشمروا عن ساعد الجد ، ويرجعوا إلى نبع الحضارة والقيم والمثل العليا : **إلى الإسلام** ذلك الدين القيم .

● قرائن أخرى تؤكد كذب ادعاء الغرب :

أولاً : إن المسلمين قد زاروا إفريقيا والهند والصين وغيرها من البلدان ، وجابوا البحار والمحيطات وما فيها من جزر ، وأنهم كانوا يتجولون بينها ، ويقيمون بين ظهرانى أهلها، وأنهم سلكوا طرقاً برية وبحرية مطروقة ومعروفة ، قبل ما يسمى باكتشافات أوروبا الجغرافية ببضعة قرون .

ثانياً : إن الكثير من أهالى تلك البلاد كانوا مسلمين ، بدليل تولى ابن بطوطة القضاء فى دلهى وجزر الملاديف .

ثالثاً : أوروبا قد اعتمدت فى تعرفها على البلاد ، التى لم تكن تعرفها ، على المعلومات التى قدمها لها الجغرافيون والمؤرخون والرحالة المسلمون .

ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر :

- المسعودى أبو الحسن على بن الحسين بن على الهذلى المسعودى :

ولد فى الثلث الأخير من القرن الثالث الهجرى ببغداد ، وتوفى عام ٣٤٦ هـ بمصر ، زار بلاد فارس سنة ٣٠٣ هـ ، والهند سنة ٣٠٤ هـ ، وسرنديب (سيلان) ، ورحل إلى الصين عن طريق البحر ، وقبل ذلك كان فى فارس وكرمان سنة ٣١٩ هـ ، وطاف البحر الهندى ، ورحل إلى ما وراء أذربيجان وجرجان ، وزار إفريقيا ، وكتب عنها كتاب لم يبق منه إلا « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الذى يعتبر حجة على سبق المسلمين على أوروبا فى معرفة إفريقيا ، وحجة على الرخاء والثراء الذى كان ينعم به إخواننا من أهل إفريقيا ، الذين يعانون اليوم من الموت جوعاً وعطشاً . كتب المسعودى ما شاهده فى زيارته لشرق إفريقيا ، لمدة ثلاث سنوات (اعتباراً من ٣١٢ هـ) انطلاقاً من عمان ، عبر البحر الأحمر ، حيث انتقل من هناك إلى جنوب القارة الإفريقية .

وقد سبق المسعودى فى هذا المضمار وهب بن منبه ، الذى دوّن الكثير من أخبار شعوب وممالك إفريقيا عام ١٣٨ هـ تقريباً فى كتابه (قصة الهجرة العظمى) .

وكذلك الفزارى أبو إسحاق إبراهيم ، الذى زار دولة غانا قبل عام ٢٠٠ هـ وسماها أرض الذهب ، وهذا دليل على الأمن والرخاء الذى كانت تنعم به إفريقيا ، التى كانت غنية وكانت معروفة وكانت آمنة ، وأن الذين أفقروها هم أبناء أوروبا ، وأن الذين أجاعوها هم أبناء أوروبا .

- **ابن بطوطة :**

شمس الدين أبو عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى ، ولد فى طنجة عام ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٤م ، وتوفى عام ٧٧٦ هـ/١٣٦٨م ، طاف معظم بقاع العالم المعروف فى زمنه ، وقد ترك لنا كتاباً هو « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، وفيه وصف لرحلته الأخيرة عام ٧٥٢ هـ/ ١٣٥٢م إلى السودان الغربى ، وتجواله فى مملكة مالى، وصل إلى تمبكتو التى كانت عاصمة للحضارة الإسلامية فى ذلك الوقت ، ثم توغل شرقاً إلى النيجر ، حيث أنه هو أول من ذكر أن النيجر يسير إلى الشرق ، وكان قبل ذلك قد زار شرق إفريقيا (بربرة ومقديشو وممباسا وكلو وصوفالا) ، وزار مدنها الواحدة بعد الأخرى [١] .

- **حسن بن الوزان (ليو الإفريقى) :**

ولد فى غرناطة عام ٨٩٣ هـ/ ١٤٩٣م ، من أصل مغربى ، عاد مع أهله إلى المغرب ، وأقاموا فى فاس ، قاده حب الاطلاع إلى الترحال مع التجار ، الذين يتاجرون مع بلدان جنوب الصحراء المجاورة فى غرب إفريقيا ، كتب عن دولة سنغاى والمناطق المجاورة لها فى مالى والهوسا وبورنو ، وعما شاهده فى رحلاته فى إفريقيا ، التى بدأت عام ٩١٠هـ/ ١٥١٠م ، أسره القراصنة الأوروبيون ، وأخذوه إلى البابا ليو العاشر ، الذى أبقى على حياته للاستفادة من رحلاته ومذكراته ، كتب كتاباً سمَّاه : « تاريخ ووصف إفريقيا » ، كان مصدراً من المصادر التى استقى الأوروبيون منها معلوماتهم ، حيث نشر بالإيطالية عام ١٥٥٠م ، ثم ترجم إلى الإنجليزية عام ١٦٠٠م .

وشهد شاهد من أهلهم :

- يقول « بوفيل » Bovill : إنه قبل قدوم العرب ، لم نكن نعرف الكثير عن إفريقيا جنوب بلاد المغرب ، فنحن مدينون بمعلوماتنا عن التاريخ المبكر لداخل القارة ، إلى فئة قليلة من المؤلفين والرحالة ، من أهمهم : المسعودى ، وابن حوقل ، وابن خلدون [٢] .

- أغناطيوس بوليا نوفتس كراتسكوفسكى : ألَّف كتاباً فى جزئين [٣] : فيهما اعتراف واضح وصريح ، بسبق المسلمين الأوائل فى مجال الكشوف الجغرافية ، وأنهم قد جابوا البحار والمحيطات ، وعرفوا بقاع الأرض ، قبل أوروبا بزمن موغل فى القدم ، وأنهم

---

(١) « جغرافية إفريقيا » : تأليف : د . فتحى محمد أبو عيانة ، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٣م .

(٢) « تاريخ كشف إفريقيا واستعماره » : د . شوقى الجمل ، (ص٤٧) .

(٣) Istoria Arabshoi Gerrgrafivheskou . Literatury, Moskovo - Liningrad, 1957 .

كانوا يعتمدون فى رحلاتهم على أدوات ملاحية متطورة ، وفى الجزء الثانى من كتابه (ص٥٦٣) يذكر :

– وعندما وضع فرامورو مصوره الجغرافى فى عام ٨٥٠ هـ/١٤٥٧م ، ذكر أن ملاحاً عربياً (أى مسلماً) أبحر حوالى عام ٨٢٠ هـ/ ١٤٢٠م ، من المحيط الهندى حول القارة الإفريقية فظهر بالمحيط الأطلنطى .

– وقد شاهد فاسكو دى جاما فى عام ١٤٩٧ – ١٤٩٨م (٨٩٧ هـ) سفناً عربية إلى الشمال من موزمبيق ، تحمل البوصلة (بيت الإبرة) ، وخارطات بحرية ، وعلى إحدى هذه السفن ، وجد فاسكو دى جاما مخطوطات عربية ، بعث بها إلى الملك مانويل .

فهل بعد ذلك يجرؤ إنسان على الزعم بأن تلك المناطق كانت مجهولة بالنسبة للمسلمين ، وأن الأوروبيين هم الذين كشفوا لنا ذلك العالم ؟!

إن هذا يثبت ولا شك التزييف والتحريف ، الذى تعرض له تاريخ اغتصاب العالم الإسلامى ، وصور على أنه تاريخ اكتشافات جغرافية ، لبلاد لم يكن يعرفها المسلمون ويستوطنونها قبل أوروبا بقرون طويلة .

إن الرد على ذلك ما أورده كراتسكوفسكى نفسه فى الجزء الأول من كتابه [1] : حيث ذكر أن مارينو سانودوه (Marino Sanudo) ، وهو أحد الشخصيات الأوروبية النشطة فى القرن الرابع عشر – قد زود مصنفه (كتاب الأرض المقدسة) بخارطة للعالم لتوضيح فكرته المبتكرة ، التى ترمى إلى محاصرة العالم الإسلامى حصاراً اقتصادياً ، وهذه الخارطة على هيئة دائرة مركزها أورشليم .

وهكذا يتضح لنا الهدف اليهودى الصليبى ، من وراء ما أسمته المراجع بالكشوف الجغرافية : هذا الهدف هو محاصرة العالم الإسلامى والإجهاز عليه .

ولا يسعنى أمام كل هذه الحقائق ، إلا أن أسجد لله مسبحة بعظمته شاكرة لآلائه : لأنه اصطفى لنا ذلك الدين القيم ، الذي صمد أمام العواصف والأهواء ، ولم يستطع خضم الجاهلية على مر السنين ، أن يطفئ من نوره أو يزلزل مكانته فى قلوب المؤمنين به .

فاللهم لك الحمد بقدر عظمة ذاتك ، ولو لم يكن فى حياتنا من نعمة غير نعمة الإسلام ، فكفى بها من نعمة ، تتطلب منا أن نعض عليها بالنواجذ ، ونبذل فى سبيل الحفاظ عليها ، أغلى ما نملك من النفس والمال والجهد .

---

(١) المرجع السابق (ص ٢٦) .

● عود على بدء :

وهكذا نعود فنقول : إن إعادة كتابة التاريخ الإسلامى ضرورة عقائدية ، تفرضها ساحة الجهاد الفكرى ، فى مواجهة الغزو الثقافى الذى يواجهنا به المبشرون ، لمحو انتمائنا إلى ذلك الدين القيم الذى أعزنا الله به .

ولهذا سأبدأ محاولة - أدعو الله أن يهدينى فيها سواء السبيل - وهى محاولة استقراء التاريخ من واقع وجدانى المسلم ، فأبرز بقدر الجهد عظمة قلوب الإفريقيين ورقى عقولهم، حيث عرفوا كيف يميزون الخبيث من الطيب ، ويرحبون بدين الله ملء قلوبهم وأسماعهم ضاربين أروع الأمثال ، على أن الإسلام دين الفطرة السوية ، وأنه انتشر بالإقناع ، وليس بالسيف كما يقول الحاقدون ، فالجميع أجمع على أن أهم أسباب انتشار الإسلام فى إفريقيا هم التجار ، أى أنهم اقتنعوا بمجرد الحكمة والموعظة الحسنة ، وصاروا دعاة هداة لغيرهم .

وأول نور تسلل إلى إفريقيا من دين الله ، هم أولئك القلة المستضعفة ، التى هاجرت إلى الحبشة بأمر نبيهم ، فراراً من ظلم الطغاة الجبابرة ، فاستقبلهم ملكها استقبالاً حسناً، وأكرم وفادتهم ، واستمع منهم إلى كلمات القرآن الندية العذبة ، فانشرح صدره للإسلام، بدون سيف أو أى نوع من أنواع القهر .

فإليك أيتها القارة الطاهرة القلب أعظم تحية ، لأنك احتضنت أول نبتة للإسلام ، ورشفت أعذب القطرات ، ودعاء من الأعماق ، أن يزيح الله عنك كابوس الأطماع ، ويحررك من كل الأغلال ، لتكونى من جديد انطلاقة الإسلام فى رحاب الأرض ، لأنك تملكين من الكنوز المعنوية والمادية ما يحقق لك ذلك .

إنك أيتها القارة الإفريقية ، قد تعرضت لمؤامرات وأطماع استعمارية شتى ، وما زالت قوى الاستعمار تغير أشكالها وألوانها تحت مسميات جديدة : التعاون الثقافى والاقتصادى والعسكرى - المعونات الاقتصادية - التنوير والتحديث - التعاون فى مواجهة الحركات الثورية - النقابات ومنظمات الشباب و . . .

حتى تاريخك لم يسلم من العبث والتحريف ، ومحاولة طمس الحقائق ، التى تبعث على الأمل والتفاؤل ، وتدفع إلى التقدم الحقيقى ، القائم على الاعتزاز بالعقيدة والتاريخ الإسلامى المشرف .

وهذا كله يستلزم من أبنائك : اليقظة للدفاع عن حماك ، والحفاظ على عقيدتك ، وكتابة تاريخك بأيد أمينة ، وعقول واعية ، وقلوب مؤمنة بأن الدين الإسلامى هو دين قيم بحق يستحق بعثه فى قلوب القارة بأسرها ، لتخرج من الظلمات إلى النور ، والله الموفق إلى سواء السبيل .

الفصل الثانى
ملامح عن قارة إفريقيا وتوزيع المسلمين فيها

● إفريقيا جنة الله فى أرضه :

قبل الحديث عن تاريخ المسلمين فى إفريقيا ومشكلاتهم ، لا بد أن نتعرف على ملامح القارة الأساسية ، لأن تلك الملامح نفسها ، هى جزء من تاريخ القارة ومشكلاتها ، فقارة إفريقيا حباها الله بكنوز عظيمة ، فصارت فاتنة فى جمال طبيعتها وروعة ثرواتها ، تسلب أنظار الطامعين ، وتحفز همم المكتشفين ، غير مبالين بما يلاقونه من صعاب أو تحديات ، فالأرض تنطوى على ثروات يهون معها كل التضحيات .

وهكذا أصبحت إفريقيا بخيراتها الوفيرة ، مثل القصعة تتداعى عليها الأمم ، ينهشون من كنوزها ، ما يتلاءم مع نهمهم وجشعهم ، مستغلين جهل أهلها بما حباه الله بهم من نعم وتقاعسهم عن تنفيذ أمر ربهم ، بالسعى فى الأرض والتنقيب عن خيراتها ، حتى تبوح لهم بكل أسرارها ، بما يزيدهم عزة ورفعة وتقدماً .

فجاء من أقصى الشمال ، أناس استغلوا كل ما فى أرضهم ، ثم نظروا إلى سمائهم يستطلعون أخبارها ، فاستحقوا التقدم والحضارة ، لأن سُنَّة الله فى الكون لا تتبدل ولا تتغير: ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون** ﴾ [(١)] .

وإذا كان من المسلم به أن حضارتهم تلك ناقصة لا تستطيع أن تحلق إلى آفاق عالية لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، فسعوا فى الأرض فساداً ، حيث المادة هى هدفهم الأعلى ، فحملوا معهم عوامل هدم حضارتهم إلا إننا - نحن المسلمين - فى إفريقيا وغيرها - لم نرد الحياة الدنيا ولا الآخرة ، فلم نعمر أياً منهما ، أو نسعى لهما سعيهما الجاد .

فهدمنا حضارتنا ، وهدمنا أنفسنا أيضاً ، وصرنا فى عداد الدول المتخلفة ، نحتاج إلى الدول المتقدمة فى كل أمور حياتنا ، ونحن الذين وضع الله فى أرضنا ، أعظم أسراره وأجل خيراته ، فماذا يفعل لنا بعد ذلك ، إلا أن يجرعنا من كئوس الذل والهوان ، عدلاً وحكمة منه ، حتى نفيق من سكرتنا ، ونحمل على عاتقنا أمانة الرسالة التى حبانا بها ، وفضلنا بمنهاجها على كثير من العالمين .

---

(١) هود : ١٥ .

جدول رقم (١) : موارد الثروة الاقتصادية فى إفريقيا

اسم المنتج	الإنتاج العالمى	الإنتاج الإفريقى	نسبة الإنتاج الإفريقي إلى العالمى
الكوبالت	٤٠١١٠	٣١١٠٢	٥٤ر٧٧٪
الكاكاو	٢٥٠٤	١٤١٩	٧ر٥٦٪
الماس (مليون قيراط)	٩٩	١ر٤٨	٦ر٤٨٪
النشا	١٥٧٦٥٦	٧٣٣٠٣	٥ر٤٦٪
الكروميوم	١٢٨٤٦	٥١٧٥	٣ر٤٠٪
المنجنيز	٨٦٠٠	٢٨٧٠	٤ر٣٣٪
يورانيوم	٢٨٣٤١	٩٢٣٢	٥٧ر٣٢٪
الذهب	٢١٥٦٦	٦٨٥	٨ر٣١٪
الفوسفات	١٦٣٤٠٥	٤٢٥٢٤	٢٦٪
البندق	٤٧٨٨	١٠٦٩	٣ر٢٢٪
البن الأخضر	٦٠٩٩	١٢٦٧	٧٧ر٢٠٪
الفول السودانى	٢٣٢٣٢	٤٨١٠	٧ر٢٠٪
بذور السمسم	٢٠١٤	٣٩٦	٧ر١٩٪
البوكسيت	٩٧٦٦٠	١٨٥٠٥	٩٥ر١٨٪
النحاس	٨٥٦٧٨	١٢٤٦٤	٥٥ر١٤٪
الشاى	٢٥١٢٧	٩ر٣٣١	٢ر١٣٪
زيت النخيل	١١٥١٤	١١٩٦	٤ر١٠٪
البترول	٣١٦٦٥٧٣	٣١٣٠٦٤	٩ر٩٪
البطاطا	٢٩٤٤٧	٢٨٢٤٩	٦ر٩٪
قصب السكر	١٠٣٨٣٧٣	٧٢٨٧٧	٧٪
الكتان	١٨٨٥٩	١٢٦٤	٧ر٦٪
بذر القطن	٣٤٦٣٩	٢٠٦٧	٩٧ر٥٪

خام الحديد	٥٦٥٣٥٩	٣٣٧٢٧	٥ر٩٦٪
المطاط الطبيعى	٥٣٨٠	٣١٨	٥ر٩٪
الفحم الحجرى	٣٤٥٠٦٩٤	١٨٤٩٠٣	٥ر٣٦٪
التبغ	٧١٤٠	٣٧٩	٥ر٣٪
الذرة	٤٧٣٠٠٠	٢٣٧٠٠	٥٪
البطاطس	١٣١٧٠٧	٦٢٠٤	٤ر٧٪
جوز الهند	٤٢١١٩	١٩٤٦	٤ر٦٪
القمح	٥٤٦٤٠٠	١٧٣٠٠	٣ر٢٪
القصدير	١٩٢٩٦٩	٥١١٩	٢ر٦٥٪
الأرز	٥٢٥٧٤٦	١٢٣٨٧	٢ر٣٦٪
بنجر السكر	٣٠٧٠٥٦	٣٧٦٧	١ر٢٪

محلوظة : جميع الأرقام المذكورة سالفة الذكر هى بالطن المترى .

المصدر (بتصرف من) :

Regional Surveys of the World .

AFRICA SOUTH OF THE SAHARA 1993 .

TWENTY SECOND EDITION .

EUROPA PUBLIATIONS LIMITED .

من صفحة ٢٢ إلى ٥٣ .

فعلينا أن نتعرف على أوطاننا ، ونعرف ما فيها من كنوز وهبنا إياها ربنا ، كى لا يكون لنا على الله حجة ، نتعلل بها بضعفنا ، وتخلفنا عن ركاب الحضارة العالمى ، بل لله الحجة البالغة : دين قيم ، أرشدنا إليه رسول أمين ، خاتم الرسل والأنبياء أجمعين ، ومسك الختام بشهادة رب الأنام ، وثروات اقتصادية هائلة ، من بحار وأنهار ومعادن وزروع وثمرات مختلفا ألوانها ، وذهب وماس ومصادر متنوعة للطاقة ، وجميع أنواع القوة ، التى ترهب عدو الله وعدونا . ومع ذلك فنحن نيام نيام ، نترك زمامنا لغيرنا يقودنا ، نستعذب ألوان الهوان ، على التطلع إلى الرخاء ، ومكابدة العناء وخوض الجهاد، لنحلق فى عنان السماء ، ونكون قادة الشعوب والأمم ، نملى إرادتنا ونحدد وقع خطواتنا ، وتكون كلمتنا مسموعة ، ولها وزنها فى المحافل الدولية .

هنا بحق نستحق العيش ، ونكون قد أدينا أمانة الرسالة المحمدية ، وحققنا الهدف النبيل من وجودنا على الأرض ، تلك الأرض الطيبة التى تفيض خيراً وبركة وتنادى : يا باغى الخير ، أقبل ، ويا داعى الشر ، أبعد ، لأن خطواتك الشرهة الطامعة ، تثقل كاهلى وتقض مضجعى ، فأرض إفريقيا ، أحق بها أهلها ، يستثمرونها وينعمون بخيراتها ، فمن الظلم كل الظلم ، أن تحوى القارة كل تلك الخيرات ، وأهلها يتضورون جوعاً ، وإنه لعار علينا عظيم .

● الأرقام تتحدث عن كنوز إفريقيا :

تبلغ مساحة إفريقيا حوالى ١١٢٦٢٠٠٠ ميل مربع [١] ، فهى إذن خمس مساحة الكرة الأرضية ، وتمثل ثانى قارات العالم من حيث المساحة ، ويسكنها حوالى ٦٠٠ مليون ، يمثل المسلمون فيها حوالى ٦٠٪ [٢] من مجموع السكان ، وهى بهذا قارة إسلامية .

ولها موقع ممتاز بين قارات العالم ، فحدودها الغربية تقع على المحيط الأطلنطى ، والشمالية على البحر المتوسط ، والشرقية يحدها البحر الأحمر والمحيط الهندى ، والجنوبية تطل على المحيطين الهندى والأطلنطى ، وفيها أهم ممر مائى فى العالم ، وهو قناة السويس ، كما تزخر بالأنهار والغابات والثروات الطبيعية ، نتيجة تنوع البيئات واختلاف الموقع والمناخ .

ويبين الجدل رقم (١) بعض الخيرات التى تفيض بها تلك الأرض الطيبة ، والتى كانت أهم أسباب مشاكلها فيما بعد ، حيث صارت مطمعاً للمستعمرين ، فاستفادوا بخيراتها واستغلوا كنوزها ، ورسموا سياساتهم ، بحيث يعرقلون أهل القارة إلى أبعد مدى ، فى

---

(١) « الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا » : د . حسن أحمد محمود (ص ٧)، دار الفكر العربى.

(٢) Regional Surveys of the World Africa South of the Sahara 1993. 22nd edition Europa publiation limited .

القيام بدورهم حيال أوطانهم ، من تحقيق التقدم والعزة والكرامة ، بما يليق مع ما تزخر به من ثروة اقتصادية هائلة ، ووفاء لحق المنعم الذى أنعم بكل هذه الموارد ، لا ليستعبدوا بها ، ولكن للاستفادة بها فى عمران الأرض ، وتحقيق التنمية ، بما يعيد للإنسان كرامته ليرفع راية الحق عالية خفاقة ، وينتشر فى أرجاء العالم يخفف أنات المكروبين والمظلومين ، ويكون للحق كلمته التى تحقق موازين العدل - القائم على القوة - فى الحياة الإنسانية .

● ملامح إفريقيا السياسية :

يبلغ عدد الدول الإفريقية اثنين وخمسين دولة ، كانت ترزح كلها تحت نير الاستعمار بمختلف أنواعه ، والمؤسف أن الدول الاستعمارية قد خططت لاستعمار القارة الإفريقية ، بعد مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤ - ١٨٨٥م [١] . وذلك بعد أن احتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١م، واحتلت إنجلترا مصر عام ١٨٨٢م ، ثم بدأ التطلع إلى بقية القارة .

وظلت إفريقيا ترزح تحت نير الاستعمار مدة طويلة ، ولم تنل بعض دولها الاستقلال إلا حديثاً جداً ، وصل فى بعض الدول إلى عام ١٩٩٠م ، وحتى هذا الاستقلال لا يعتبر تحرراً تاماً ، بل تبعه تبعية فكرية وسياسية واقتصادية للدولة المستعمرة .

وهذا بيان بأسماء الدول الإفريقية وتاريخ تحررها [٢] :

ليبيا	١٩٥١	ملاجاش	١٩٦٠	الجابون	١٩٦٠
السودان	١٩٥٦	زائير	١٩٦٠	نيجيريا	١٩٦٠
المغرب	١٩٥٦	الصومال	١٩٦٠	موريتانيا	١٩٦٠
تونس	١٩٥٦	بنين	١٩٦٠	السيراليون	١٩٦٠
غانا	١٩٥٧	النيجر	١٩٦٠	تنزانيا	١٩٦١
غينيا	١٩٥٨	بوركينا فاسو	١٩٦٠	رواندا	١٩٦٢
الكاميرون	١٩٦٠	ساحل العاج	١٩٦٠	بوروندى	١٩٦٢
توجو	١٩٦٠	تشاد	١٩٦٠	الجزائر	١٩٦٢
مالى	١٩٦٠	إفريقيا الوسطى	١٩٦٠	أوغندا	١٩٦٢
السنغال	١٩٦٠	الكونغو	١٩٦٠	كينيا	١٩٦٢
مالاوى	١٩٦٤	سوازيلاند	١٩٦٨	أنجولا	١٩٧٥
زامبيا	١٩٦٤	غينيا الاستوائية	١٩٦٨	موزمبيق	١٩٧٥
جامبيا	١٩٦٥	غينيا بيساو	١٩٧٤	جيبوتى	١٩٧٧
بتسوانا	١٩٦٦	سيشل	١٩٧٦	زيمبابوى	١٩٨٠
ليسوتو	١٩٦٦	الرأس الأخضر	١٩٧٥	ناميبيا	١٩٩٠
موريشيوس	١٩٦٨	جزر القمر	١٩٧٥		

(١) Regional Suveys of the World . The middle East and North Africa 1993 39th edition . Europa publiations limited .

(٢) « المسلمون والاستعمار الاوروبى لإفريقيا » : د . عبد الله عبد الرازق إبراهيم (ص ١٧) عن سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - الكويت (عالم المعرفة) .

وهكذا فإن طول مدة الاستعمار ، وتأخر زمن التحرر ، يفرض على الدول الإفريقية تحركاً واسع النطاق ، من خلال المنظمات الدولية ، فإفريقيا تملك ثلث مقاعد الأمم المتحدة ، وتملك بالتالى تأثيراً فعلياً فى صنع قرار المجتمع الدولى ، وهذا ما جعل إسرائيل تنشط جهودها فى التغلغل إلى إفريقيا ، منذ ظهور حركة التضامن الآسيوى الإفريقى ، فى مؤتمر باندونج (١٩٥٥م) ، والتى كانت تهدد بعزل إسرائيل ، ومن هنا كانت مساعى إسرائيل فى إفريقيا ، محاولة منها لتحسين وضعها الدولى ، والبحث عن حلفاء ، تخترق عن طريق علاقتها بهم ، التحالف بين القوميات الإفريقية الآسيوية .

واستطاعت إسرائيل خلال سنوات طويلة ، أن تحقق فى إفريقيا إنجازات سياسية واقتصادية واجتماعية ، لا يمكن تجاهلها ، مما يشكل خطراً يجب أن يتنبه المسلمون له بكل وعى .

تلك الإنجازات تتمثل فى [1] :

● استطاعت إسرائيل أن تحقق نجاحاً دبلوماسياً كبيراً ، إذ وصل عدد بعثاتها الدبلوماسية إلى ٣٢ بعثة ، وذلك حتى عام ١٩٧٣م ، بالإضافة إلى إقامتها علاقات وثيقة بالمسئولين فى هذه الدول ، وتوقيع معاهدات صداقة وتعاون معها .

● حققت إسرائيل تقدماً فى المجال الاقتصادى (التجارى والاستثمارى) ، ويكفى الإشارة إلى أن عدد الخبراء الذين أوفدتهم إسرائيل إلى إفريقيا ، قد وصل إلى ٣٩٤٨ خبيراً فى الفترة ما بين ١٩٥٨ - ١٩٧٠ وهو يمثل ٦٠٪ أو أكثر من جملة الخبراء الذين أرسلتهم إسرائيل إلى دول العالم الثالث ، كما تلقى ٨١٤٢ إفريقيا تدريباتهم فى إسرائيل .

● أرادت إسرائيل أن تكون إفريقيا ساحة ممتدة تحاصر بها الدول العربية ، وتنمى داخلها نقاط ارتكاز لنشاطها ، وصورت نفسها للدول الإفريقية - غير العربية حديثة الاستقلال - بأنها دولة تنتمى إلى العالم الثالث ، وإلى قارتى آسيا وإفريقيا ، وإلى تطلعاتها إلى التقدم والتحديث والتحرر بعد الاستقلال ، وأنها بين هذه الدول تعد نموذجاً فريداً فى قدراتها على الإنجاز التكنولوجى ، وعلى تطوير الزراعة واستزراع الصحراء ، وتنشيط بيع منتجات القارة من المواد الخام والمحصولات الزراعية ، وأنها فوق ذلك قادرة على الإقراض وعلى تنمية مشروعات تتولاها دولة صغيرة ، لا تنتمى إلى الغرب الاستعمارى ، الذى تحملت إفريقيا أبشع صور استغلاله وقمعه واضطهاده .

● استطاعت إسرائيل أن تقنع القادة الإفريقيين ، بأنها قادرة على أن توفر لمجتمعاتهم

---

(١) نحو إجتهاد إسلامى معاصر . د . يوسف القرضاوى، مجلة الدوحة العدد (١٠٩) ربيع الثانى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، (ص ٨) .

الاستقرار ، وأن مخابراتها كفيلة بتقديم مشورات مفيدة وخدمات جدية ، فى كبت كل حركة تمرد ، وملاحقة كل محاولة انقلاب

● إن التحرر الذى حصلت عليه إفريقيا هو تحرر وهمى ، حيث تغيرت احتياجات ومصالح الاستعمار الجديد بزعامة الولايات المتحدة ، وكانت أداتها فى ذلك إسرائيل ، حيث قامت إسرائيل بتنفيذ عدد من البرامج ، تساندها وتمولها أمريكا ، بزعم أنه يتفق تماماً مع التطلعات الإفريقية ، ويختفى وراء أقنعة مثالية ، وكانت إسرائيل بذلك تحقق أهدافها ومصالحها من ناحية ، وتدعم من ناحية أخرى علاقاتها الحيوية بأمريكا ، بأن تكون الجسر بين المستعمرات السابقة والاستعمار الجديد .

● تركزت برامج المساعدات الإسرائيلية على الجوانب الاستراتيجية كالتدريب العسكرى، وطرق مقاومة الحركات الثورية ، وإقامة المشروعات المشتركة ، وتوسيع علاقاتها التجارية . وعلى الرغم من أن هذه المساعدات لم تكن كبيرة من الناحية الإحصائية ، إلا أن العمل من خلال تخطيط شامل وبكوادر مدربة ، عوض الحجم المحدود للمساعدات ، بل وحقق نتائج لا تنكر .

● وفى المجال السياسى والإيديولوجى : من خلال النقابات ومنظمات الشباب ، عملت إسرائيل على الترويج للأفكار المناهضة للاشتراكية ، وسعت إلى تصدير ما يسمى بالتجربة الإسرائيلية التى قال عنها أرنولد ريفكين [١] :

« إن التجربة الإسرائيلية تختلف عن النموذج الغربى ، ولكنها بكل تأكيد أكثر تلاؤماً مع مصالح العالم الحر من أية تجربة شيوعية ، وبالتالى فإن تطبيقها فى إفريقيا يرضى الإفريقيين الناقمين على الغرب ، وفى نفس الوقت فإن ذلك لا يضر بالغرب » .

إن ما قاله أرنولد ريفكين هو الفخ الذى وقعت فيه إفريقيا ووقع فيه العرب ، ويقع فيه المسلمون فى كل زمان ومكان : « إنه فخ النوايا الطيبة التى تقود إلى الجحيم » تماماً مثلما حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات [٢] .

فالشعوب الإفريقية عندما خرجت من نير الاستعمار ، لم تعرف كيف تخط مصيرها بوعى نابع من عقيدتها - وخاصة الإسلامية منها - بل استسلمت من جديد لأول طارق ظناً منها أن فى هذا نجاتها وتقدمها ، ولم تعرف أن هذا الطارق ، يحمل فى طياته السم الزعاف ، وأنه لا يقل خطراً وضراوة عن سابقه من مستعمرين ، فالنبع واحد والأهداف مشتركة ، وإن تعددت الصور والمظاهر والأسماء .

---

(١) « إسرائيل وإفريقيا » د عواطف عبد الرحمن - حلمى شعراوى - دار الفكر العربى

(٢) حديث شريف عن النبى ﷺ « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » ، رواه أبو هريرة فى « صحيح الجامع » رقم (٣١٤٧)

• التجارة والمواصلات فى إفريقيا

إن معرفة حجم التبادل التجارى بين دول إفريقيا من الأهمية بمكان ، لأنه يمثل مدى التبعية الاقتصادية أو الحرية الاقتصادية ، كما أن المواصلات عامل أساسى فى ربط الشعوب ببعضها ، وتحقيق مزيد من التنمية والقوة لها .

وللأسف نجد أن التجارة بين الدول الإفريقية وبعضها قليلة جداً ، إذا قيست بالتجارة بين الدول الإفريقية والعالم الخارجى [1] ، ذلك أن الدول الإفريقية فى أغلبها تنتج غلات متشابهة من المواد الخام الأولية سواء نباتية أو معدنية ، وهى تلك التى يحتاجها العالم الصناعى بكثرة ، ويشتريها بأرخص الأسعار ، ثم يصنعها ويبيعها لدول القارة بأسعار مرتفعة ، مما يسبب خللاً فى موازينها التجارية ، ولن تقوم لتلك الدول قائمة ، إلا إذا سعت الدول الإفريقية سعياً حثيثاً ، لإنشاء صناعات تستهلك المواد الخام التى تنتجها بوفرة ، وهنا يمكن لها أن تزيد من تبادلها التجارى مع بعضها ، بما يحقق لها التنمية التى تبعدها عن التبعية المهينة ، وتجعلها حرة فى اتخاذ قرارها ، حرة فى سيادتها .

وترتبط التجارة سواء أكانت داخلية أم خارجية بطرق المواصلات ، وتلك الطرق قليلة جداً ، لا تساعد على أى اتصال بين الدول الإفريقية ، لا فى ناحية تبادل السلع ولا فى نقل الركاب ، فالخطوط الحديدية ضئيلة الانتشار ، ولو حسبنا كثافة هذه الخطوط بالنسبة للسكان ، أو بالنسبة لمساحة الأرض ، لوجدناها قليلة جداً ، وإذا أخذنا كمثال : المواصلات الحديدية بين مصر العربية والسودان ، وجدنا أنها مقطوعة فيما بين أسوان ووادى حلفا ، فضلاً عن اختلاف سعة القضبان فيما بينهما .

كذلك لم تصل السكك الحديدية بين ليبيا ومصر ، ولا توجد شبكة ذات كثافة متوسطة إلا فى جنوب إفريقيا ، حيث يعتبرها المستوطن الأوروبى وطناً له ، وحيث يمارس استغلال الثروة المعدنية الهائلة ، إلى جانب ممارسته التفرقة العنصرية ، والتمييز بينه وبين الإفريقى تمييزاً فى أبشع صوره .

ويلاحظ فى الخطوط الإفريقية : أنها تصل ما بين مناطق الاستغلال والموانئ الساحلية ، حيث التصدير كخطوط كاتنجا واتصالها بساحل الأطلنطى عند لوبيتو فى أنجولا ، وخطوط غرب إفريقيا التى تصل مناطق الإنتاج بموانئ التصدير ، والخطوط الحديدية فى السودان ، ربطت منطقة القطن فى أرض الجزيرة بميناء بورسودان على البحر الأحمر ، فى الوقت الذى لم يهتم فيه بوصل مصر بالسودان ، والخط الحديدى من شواطئ بحيرة فكتوريا إلى ساحل المحيط الهندى مخترقاً كينيا .

---

(١) « الجغرافية السياسية لإفريقيا مع دراسة شاملة للدول الأفريقية » تأليف : د. فيليب رفلة ، إشراف د عز الدين فريد (ص ٢٤٢) مكتبة النهضة المصرية

أما ربط الدول الإفريقية بعضها ببعض ، فقد حرصت الدول الاستعمارية على إهماله، ويظهر ذلك بصورة أكثر فى مجال الطيران ، حيث ترتبط العواصم الإفريقية بالمدن الأوروبية ، ولم ترتبط المدن الإفريقية بعضها مع بعض إلا قليلاً ، وعندما تنعقد المؤتمرات الإفريقية ، فإن الرؤساء الإفريقيين يصلون من عواصمهم الإفريقية إلى باريس ، ومنها إلى مقر المؤتمر .

كل هذا يمثل وصمة عار فى جبين الدول الإفريقية ، فكيف لا تملك حتى مجرد الاتصال ببعضها ، فى لقاء يخدم مصالحها ويحدد مصائرها ، وتحتاج إلى الوسيط الأوروبى الذى طالما عانت منه الأمرين ، إن هذا يترك علامة استفهام كبيرة تحتاج إجابة عملية ، كما يترك تعجباً يثير حسرة وأسى ، فلا بد أن يتنبه أولى العزم من القادة المخلصين ، إلى سرعة إنشاء خطوط جوية وحديدية وبرية ، تربط دول القارة الإفريقية ، فتلك مرافق أساسية ، لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعقائدية لدول إفريقيا ، التى هضمت حقوقها كثيراً .

● **اللغة** :

من ملامح القارة البارزة ، والتى تعوق حركة المد الإسلامى ، هى مسألة اللغة ، فالدول التى تتكلم العربية هى الدول العربية فقط ، وبقية الدول تتكلم لغة الدولة المستعمرة ، فرغم التحرر السياسى - الظاهرى - فما زالت التبعية الثقافية ، وليس هناك أخطر على كيان المسلمين من الغزو الثقافى .

وهذا تحدى يفرض نفسه على أبناء المسلمين فى إفريقيا ، فاللغة العربية هى لغة القرآن والحديث وعلوم الفقه ، ولن يستطيعوا أن ينهلوا من منابع المعرفة الحقة ، بدون تعلم اللغة العربية ، لأن الإنجليزية والفرنسية والبرتغالية والإيطالية ، لن تفى بتحقيق رقيهم العقائدى والعقلى والنفسى ، لأن هذا ازدواج فى الشخصية : يدينون بدين الإسلام ويهملون لغتهم الوطنية ، ثم يتكلمون بلغة المستعمر ، إنه بلا شك ضياع الهوية وتشتت الشخصية . وسنرى فى جداول توزيع الإسلام فى إفريقيا ، لغة كل دولة ، حتى نتعرف وقع أقدامنا والمسئولية الملقاة على أعناقنا ، نحو إخوة لنا فى العقيدة والجوار والإنسانية ، يتعطشون إلى معرفة أساسيات الإسلام وأول تلك المعرفة هو تعلم اللغة .

● **توزيع الإسلام فى إفريقيا** [١] :

إن معرفة التوزيع الإسلامى الإفريقى بأهمية بمكان ، لذوى العزم المخلصين من الرجال

---

(١) تم هذا التوزيع بالاستعانة بتقسيم د حامد ربيع فى كتابه : نحو ثورة القرن الواحد والعشرين: « الإسلام والقوى الدولية » دار الموقف العربى .

المصلحين ، سواء فى مناصب الحكم أو المؤسسات ، أو حتى للمسلم الفرد كنوع من تحقيق الترابط الوجدانى ، وتحقيقاً لأمر الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ (١) .

ولا شك أن هذا التعارف ، هو بداية الترابط والتضامن لتحقيق التكامل العقائدى ، والتكامل الاقتصادى ، والتعاون فى مجالات الحياة المختلفة ، بما يتبعها من إثراء الفكر ، وإثراء المشاعر ، وتحقيق الرفاهية القائمة على المثل الرفيعة بشتى معانيها .

ويمكن القول بصفة عامة : إن الإسلام الإفريقى ينقسم إلى خمسة دوائر :

١ - إفريقيا العربية . ٢ - إفريقيا الصحراوية . ٣ - إفريقيا السواحلية .

٤ - إفريقيا الاستوائية . ٥ - إفريقيا الشرقية .

وسنحاول بعون الله ومشيئته تناول تلك الدوائر بشىء من الإيضاح :

أولاً - إفريقيا العربية :

تعتبر تلك المنطقة هى أهم الدوائر وزناً وعدداً ، نظراً لأنها أول المناطق التى انتشر فيها الإسلام نتيجة الفتوحات العربية ، كما أنها مفتاح القارة الإفريقية ، وتضم أكبر عدد من السكان حيث تضم حوالى ١٤٦ مليوناً من البشر ، معظمهم مسلمون ، كما أنهم يتكلمون العربية ، وهذا يتيح لهم فهم أعمق للإسلام ، وفيها أعرق الجامعات الإسلامية مثل الأزهر فى مصر ، والزيتونة فى تونس ، وقسنطينة فى الجزائر ، والقرويين فى المغرب ، و. . . ، وفى تلك المؤسسات تعلم كثير من أبناء إفريقيا ، وصاروا دعاة هداة فى بلادهم يحملون على عاتقهم أمانة الدعوة إلى دين الله ، كما انتقل دعاة وهداة من المنطقة العربية إلى بقية دول إفريقيا ، سواء كانوا علماء أو تجار أو مجاهدين فى سبيل الله .

ولذلك فيمكن القول بكل تأكيد : إن إفريقيا العربية هى النبع الذى ارتوت منه بقية القارة ، دعوة التوحيد وأصول العقيدة ، ولذلك يقع على عاتقها مسئولية معنوية والتزام أدبى ودينى ، فى سبيل مواصلة جهد العلماء السابقين ، لتحرير العقول من ظلمات الجهل ووثنية العصور الحديثة ، وخاصة أن الأمر ليس منها ببعيد ، فجنوب السودان ضعفت فيه اللغة العربية إلى حد أنها قاربت على التلاشى ، وذلك لأن حملات التبشير استطاعت أن تفرض اللغة الإنجليزية - والتى لا تزال سائدة - فى الدراسة بمعاهد تلك المنطقة .

ولذلك فالتحدى الذى يفرض نفسه على علماء المسلمين فى العصر الحديث : هو الجهاد العلمى ، وهذا النوع من الجهاد أصبح فرض عين على كل مسلم ومسلمة ، أداء لزكاة العلم التى لا تقل أهمية عن زكاة المال ، فأحياناً كثيرة يكون احتياج الناس للعلم ،

---

(١) الحجرات : ١٣ .

أشد من احتياجهم للمال : لأن العلم هو غذاء العقل والروح والوجدان وتدعيم للعقيدة ، وتلك أساسيات الشخصية الإسلامية ، وبدونها يضيع الإنسان فى دوامات العصر الحديث وتياراته المتعددة ، وتضيع معها هويته ، ويصبح لقمة سائغة ، لكل أنواع الدعاية المغرضة ووسائل التبشير المبهرة .

إن الأمانة التى تقع على عنق كل مسلم متعلم فى إفريقيا العربية ، تجاه إخوته المسلمين فى باقى أنحاء القارة الإفريقية ، لهى جد عظيمة ، وتعدل جهاد المسلمين الأوائل فى نشر الدعوة فى ربوع الأرض ، مستعذبين أشد الآلام فى سبيل بلوغ البشرية إلى أعظم الآمال، واليوم يدور التاريخ دورته ، ليفرض جهاداً من نوع آخر ، يقاس فيه مداد العلماء بدماء الشهداء.

وإذا تعذر على بعض العلماء الانتقال من بلادهم ، فعليهم بذل الهمة واستفراغ الجهد فى تعليم أبناء وطنهم العلم النافع ، وفى البحث العلمى القائم على منهج الحق ، ومع تقدم وسائل الاتصال ، سينتشر نور الله معلناً بداية فجر جديد ، فما علينا إلا الأذان ، وعلى الله البلاغ ، فالإخلاص هو روح الحياة ، وهو أساس التقدم العلمى ، وهو الدعامة المتينة لرقى الأمم وحضارتها وأصالتها ، التى تقف كالطود الشامخ ، فى مواجهة دواعى الإلحاد والكفر ، تحت شعارات ومسميات براقة .

ثانياً - إفريقيا الصحراوية :

إنها تلك البحر الصحراوى الممتد أسفل الشريط العربى ، مما يسميها البعض بالجمهورية الصحراوية ، وهى جدار أمن حقيقى للعالم العربى ، تعداد هذه المنطقة يصل إلى حوالى ١٣٤ مليون نسمة ، أكثر من نصفهم بقليل مسلمون ، لو ضمت إليها موريتانيا والسنغال لكونت غالبية مسلمة . والإسلام فى هذه المنطقة بالذات يستشرى بسرعة عجيبة ، وعلى المهتمين بالدعوة الإسلامية أن يعطوا تلك المنطقة اهتماماً خاصاً ، لأنها المسرح الحقيقى للمعركة المقبلة ، حول النفوذ السائد فى القارة الإفريقية .

ولقد كانت مفاجأة الربع الأخير من القرن العشرين ، هى ما يسميه الفقه الأوروبى «الإسلام الأسود» ، حيث استيقظت القيادات الغربية فجأة ، لتكتشف أن سياستها فى تلك المنطقة ، والتى استغرقت أكثر من قرن ، انتهت بالفشل ، ويعترف أحد أشهر المتخصصين فى هذا الموضوع ، العالم الفرنسى « نيكولاس » [1] أستاذ الحضارة الإفريقية فى جامعة باريس ، بأن تلك السياسة كانت تقوم على مبادئ أربعة :

١ - مقاومة انتشار الإسلام ، من خلال الدعوة المسيحية ، وحركات التبشير الكاثوليكى .

---

(١) المرجع السابق « الإسلام والقوى الدولية » د . حامد ربيع .

٢ - منع القيادات المسلمة والمثقفين المسلمين ، من الوصول إلى مراكز المسئولية ، بأى معنى من المعانى .

٣ - تقديم الإسلام فى الرأى العام والوعى الجماعى ، على أنه علامة من علامات التخلف ، وتعبير عن عدم التحديث والتقدم .

٤ - خلق هوة حقيقية ، بل وقطيعة كاملة بين العالم الإسلامى العربى ، الذى يمتد شمال الصحراء والعالم الإسلامى الأسود ، الذى يتسع فى منطقة جنوب الصحراء .

هذه السياسة فشلت ، حتى أن أحد عناصر القلق الذى سيطر على ديستان فى أواخر حكمه ، كان هو : كيف يواجه هذا الفشل ؟

ولا نجد رداً على سؤال ديستان غير قول الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً** ﴾ (١) ، أى : خذوا حذركم من مكر عدوكم ، بالاستعداد له ، واخرجوا للجهاد متفرقين أو مجتمعين .

والجهاد فى عصرنا هذا ، يجب أن يأخذ صوراً شتى : علاقات دبلوماسية - معونات مالية - إنشاء المساجد ودور العلم - اختيار الدعاة المخلصين المثقفين - التبادل الثقافى - التكتلات والمنظمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية - إنشاء مراكز إسلامية تكون منارات هدى .

إن هذا الجهاد ضرورى ، لأن هناك أخوة لنا مستضعفون فى أوطانهم يجأرون إلى الله أن يجعل لهم من لدنه عباداً أولى قوة ، مخلصين وجوههم لله ، يخرجونهم من ظلمات الجهل والتخلف ، إلى نور الإيمان ، وهذا ما جعل المولى عَزَّ وجَلَّ يستنكر أشد الاستنكار من يتخاذل عن نصرة هؤلاء المستضعفين ، ومد يد العون لهم ، مهما كلفنا ذلك من تضحيات :

﴿ **وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً** ﴾ (٢) .

ويبين لنا المولى جَلَّ شأنه أننا أولى ببذل الجهد والمال ، فى سبيل الدعوة إلى دين الحق من هؤلاء المبشرين الذين يجوبون الأرض لنشر دينهم ، مع أن هدفهم ليس الترقى بالبشرية ولكنها أطماع دنيوية ، فيجب أن نشمر عن ساعد الجد ، لأن مكرهم وكيدهم ضعيف ، مهما بلغت ذروته ، لأنه يستند على دعائم واهية هشة ، تتداعى أركانها أمام وقع خطوات المجاهدين فى سبيل الله ، التى تملأ الدنيا نوراً وعدلاً وسلاماً وحباً ورخاء

---

(١) النساء : ٧١ . (٢) النساء : ٧٥ .

وعلماً : ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ [1] .

ثالثاً - إفريقيا السواحلية :

يكمل المنطقة السابقة (الصحراوية) ويصير امتداداً طبيعياً لها ، ما يسمى بمنطقة إفريقيا السواحلية ، هذه المنطقة حديثة عهد بالإسلام ، فيما عدا بعض أجزاء محدودة ، وهى لا تزال فى غالبيتها تعيش استعماراً فكرياً وثقافياً ، والسبب فى ذلك يعود أساساً إلى الموقع الاستراتيجى الذى تمثله هذه المنطقة ، حيث هى أقرب أجزاء العالم إلى أمريكا الوسطى والجنوبية ، مما يجعلها سلة وسوق فى نفس الوقت : سلة يأخذون منها المواد الخام بأرخص الأسعار ، وسوق يصرفون فيه منتجاتهم بأقل تكلفة نقل ممكنة .

المسلمون يمثلون فى مجموع هذه المنطقة أقلية ، فإذا استثنينا السنغال ، فإن عدد السكان يصبح حوالى ٤٣ مليون نسمة ، من بينهم حوالى ١٢ مليون مسلم ، أى بأقل من ٣٠٪ من العدد الكلى لأهالى المنطقة . أما إضافة السنغال فله مزاياه ، إذ يخلق توازناً فيرفع النسبة إلى حوالى ٤٤ ٪ من المجموع الكلى . وهؤلاء المسلمون ينطبق عليهم ما قيل عن المسلمين فى المنطقة السابقة ، فهم فى أشد الاحتياج إلى تضافر جهود العلماء ، والقادرين من المسلمين ، والدول الإسلامية الغنية ، لانتشالهم من ضغوط التبشير التى تمارسها الدول الغربية وأمريكا ، متمثلة فى وسائل الاستعمار الجديد .

والمسارعة إلى معاونة تلك الدول ، ليس تفضلاً أو شهامة من المسلمين ، بل هو فرض عين على كل مسلم ومسلمة ، تنفيذاً لأمر المولى سبحانه وتعالى : ﴿ **وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر** ﴾ [2] .

رابعاً - إفريقيا الاستوائية :

إفريقيا الاستوائية تمثل منطقة الانحسار السكانى ، مجموع سكانها الذى يبلغ ٦١ مليوناً لا يعرف سوى أقليات مسلمة تبلغ حوالى ٣ مليون ، أى بنسبة ٥٪ من مجموع السكان ، والسبب فى ذلك يرجع إلى غناها بالثروات المعدنية ، بل هى مصدر الثروات المعدنية لدول العالم المتقدم ، مما يجعل القوى الغربية تستميت فى إبعاد هذه المنطقة عن التعامل الإسلامى .

ويمكن النظر إلى جدول رقم (٢) لمعرفة حجم الإنتاج الإفريقى من المعادن وحجم إنتاج إفريقيا الاستوائية بمفردها من هذا الإنتاج ، للتعرف على النوايا الحقيقية للاستعمار بالحقائق والأرقام .

---

(١) النساء : ٧٦ .   (٢) الأنفال : ٧٢ .

جدول رقم (٢) : مؤشر إنتاج إفريقيا الاستوائية من بعض المعادن الهامة

الخام	إنتاج القارة الإفريقية	إنتاج إفريقيا الاستوائية	النسبة المئوية لإنتاج إفريقيا الاستوائية بالنسبة للقارة
البترول	٣١٣٠٦٤ ألف طن مترى	٥٨٣٦٩	٦٥ر١٨٪
النحاس	٤ر١٢٤٦ ألف طن مترى	٦ر٤٤١	٤ر٣٥٪
القصدير	٥١١٩ طن مترى	٣٠٤٨	٦ر٥٩٪
الكوبالت	٤٠١١٠ ألف طن مترى	٢٥٠٠٠	٣٣ر٦٢٪
اليورانيوم	٩٢٣٢ طن مترى	٨٧٠	٤ر٩٪
المنجنيز	٢٨٧٠ ألف طن مترى	٢٥٥٠	٩ر٨٨٪
الفحم	١٨٤٩٠٣ طن مترى	١٢٥٠٠٠	٦ر٦٧٪

وهذا يجعلنا ندق ناقوس الخطر ، لنهيب بالمسلمين فى كل مكان ، أن يتنبهوا لواقعهم المؤلم ، ولخيراتهم التى تنهب ، ولإخوانهم الذين يعيشون أقلية ، يتعرضون لخطر التبشير ومغرياته ، ولما كان أول الغيث قطرة ، وطريق الألف ميل يبدأ بخطوة ، فإن خطوات أولى الأمر من المسلمين المخلصين ، الراغبين فى نهضة الأمة الإسلامية ، يجب أن تبدأ بدراسة النقاط التالية [١] :

– تحديد البلاد التى يوجد بها أقليات مسلمة ، وعدد المسلمين فيها ، ونسبتهم إلى المجموع الكلى للسكان .

---

(١) د . حامد ربيع ، المرجع السابق « الإسلام والقوى الدولية » .

- تحديد اللغة التى تتكلم بها كل بلد ، لتوفير الدعاة الذين يستطيعون التفاهم مع الناس بسهولة ويسر ، لتحقيق أكبر نجاح ممكن فى تبليغ الدعوة .

- تحديد عدد الجامعات والمدارس فى كل منها ، للتعرف على المستوى العلمى لها .

- معرفة وسائل الإعلام الأكثر تأثيراً على كل شعب على حدة ، ونوعية ما تقدمه هذه الوسائل الإعلامية .

- تحديد الظروف المناخية والاجتماعية والسياسية التى يعيشون فيها ، ومعرفة درجة التقدم أو التخلف فى كل بلد .

- تحديد أنواع الضغوط التى يتعرض لها المسلمون ، وأنواع المساعدات التى يمكن أن تقدم لهم .

- تحديد مناطق الجذب للدعوة الإسلامية ، وعدد سكان تلك المناطق ، والقوى المضادة التى يمكن أن تواجه تلك الدعوة .

خامساً - إفريقيا الشرقية :

منطقة إفريقيا الشرقية تكاد تمثل نفس الأوضاع فى إفريقيا الغربية ، ولكن بنسبة أقل ، وهى تخضع لنفس الاتجاهات الاستعمارية ، التى خضعت لها المنطقة المقابلة فى إفريقيا السوداء ، ولكن بفاعلية أكبر . ويقول علماء السياسة [(١)] : إن المعركة الحقيقية بين الإسلام السياسى والكاثولكية التقليدية ، لن تحدث إلا فى هذه المنطقة .

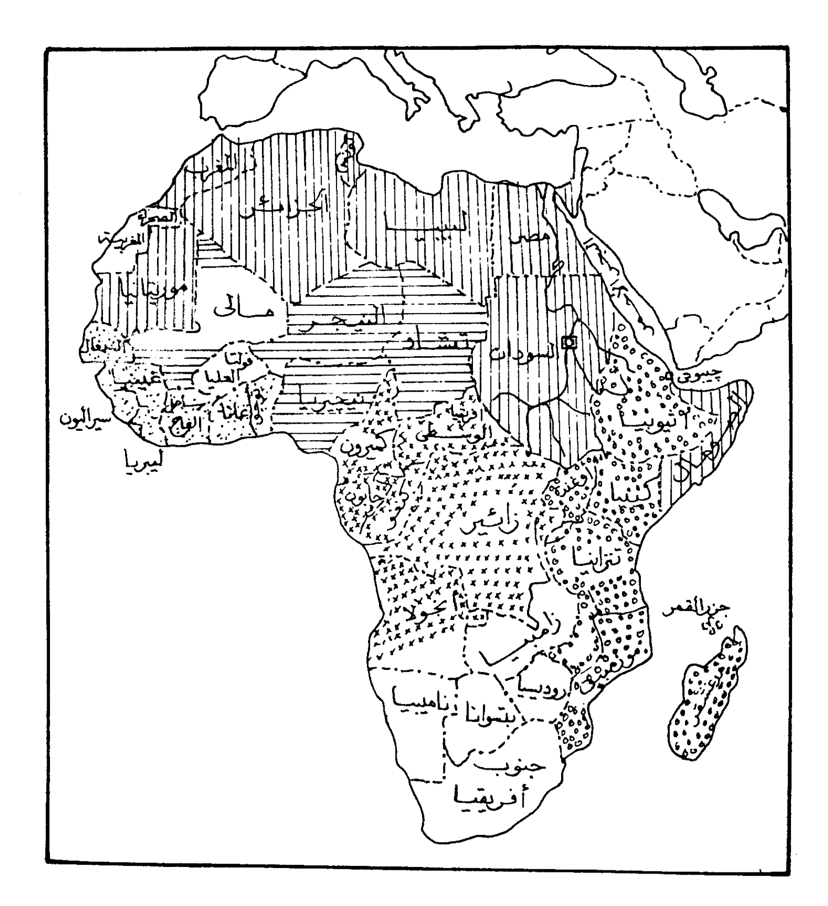
عدد سكانها يبلغ حوالى ١٦٢ مليون نسمة ، ولكن عدد المسلمين فيها لا يتجاوز ٤٠ مليون ، أى بنسبة ٢٥٪ ، ورغم ذلك فإن هذه المنطقة بحكم كونها تتاخم إفريقيا المسلمة العربية ، وبصفة خاصة منطقة الصومال وجيبوتى والسودان ، وبحكم كونها تتحكم فى المحيط الهندى ، يجب أن توليها الجهات الإسلامية عناية خاصة .

وإذا صحت التقارير الصحفية المتسربة ، والتى تتحدث عن انتشار عجيب للإسلام فى كل من أثيوبيا وأوغندا ، فإن المستقبل القريب قد يعاصر تغيراً خطيراً فى الموازين ، إذ تصير هذه المنطقة ، وقد ارتفعت فيها نسبة المسلمين إلى أكثر من ٥٠٪ .

ونلحق بهذا الفصل جداول تفصيلية ، توضح توزيع المسلمين فى إفريقيا من حيث : الدوائر التى تضمهم - نسبتهم المئوية إلى عدد السكان فى كل دولة - اللغة التى يتكلمون بها - الديانات الأخرى التى يعايشونها فى دولتهم . وهذه الجداول ملحقة بآخر الفصل .

---

(١) من بحث « دور الأزهر فى الدعوة الإسلامية فى الداخل والخارج » للأستاذة خديجة النبراوى ، فاز بالمركز الثانى فى المسابقة الكبرى التى نظمها مجمع البحوث الإسلامية بمناسبة العيد الألفى للأزهر .



توزيع الإسلام الأفريقى

- أفريقيا العربية
- أفريقيا الصحراوية
- أفريقيا الاستوائية
- أفريقيا الساحلية
- أفريقيا الشرقية

أولاً : إفريقيا العربية

الخصائص الدولة	عدد السكان	نسبة المسلمين	اللغة	الديانات الأخرى
مصر	٥٣١٥٣٠٠٠ حسب تعداد (٩٠)	٩٠٪	العربية إلى جانب الإنجليزية والفرنسية	ستة ملايين مسيحى وتوجد أقلية يهودية
ليبيا	٣٧٧٧٣٠٠٠ (٨٨)	أغلبية مسلمة	العربية	أقليات مسيحية
تونس	٨٠٧٠٠٠٠ (٩٠)	٩٩٪	العربية إلى جانب الفرنسية	أقليات مسيحية يهودى ٢٠٠
الجزائر	٢٥٠١٢٠٠٠	أغلبية مسلمة	العربية إلى جانب الفرنسية	أقليات مسيحية
المغرب	٢٥٢٠٨٠٠٠	٩٩٪	العربية	كاثوليك ٦٩٠٠٠ بروتستانت ١٠٠٠ يهودى ٣٠٠٠٠
موريتانيا	١٩١٩٨٥٨ (٨٩)	دولة إسلامية	العربية إلى جانب الفرنسية	
السودان	٢٠٥٦٤٣٦٤ (٨٣)	أكثر من ٧٥٪	العربية إلى جانب الإنجليزية	مسيحين ومعتقدات إفريقية فى الجنوب
الصومال	٧٦٩١٠٠٠ (٩١)	أغلبية مسلمة	الصومالية إلى جانب العربية الإنجليزية الإيطالية	كاثوليكى ٢٠٠٠
جيبوتى	٤٨٣٠٠٠ (٨٧)	أغلبية مسلمة	العربية إلى جانب الفرنسية	كاثوليكى ٨٠٠

ثانياً : إفريقيا الصحراوية

الخصائص / الدولة	عدد السكان	نسبة المسلمين	اللغة	الديانات الأخرى
تشاد	٥٤٢٨٠٠٠ (٨٨)	٥٠٪	الفرنسية إلى جانب العربية	مسيحيين ٧٪ الباقى معتقدات إفريقية متوارثة
النيجر	٧٧٣١٠٠٠ (٩٠)	٨٥٪	الفرنسية إلى جانب الهاوسا والفولانى	مسيحيين ٥ر٠٪ الباقى معتقدات إفريقية متوارثة
مالى	٨١٥٦٠٠٠ (٩٠)	٨٠٪	الفرنسية إلى جانب البمبرا والحسانية كما توجد العربية فى الشمال	مسيحيين ٢ر١٪ الباقى معتقدات إفريقية متوارثة
فولتا العليا (بوركينا فاسو)	٩٠٠١٠٠٠ (٩٠)	٣٢٪	الفرنسية	١٠٦٤٦٧ بروتستانت كاثوليك ٨٢٦٤٠٠ معتقدات إفريقية ٥٠٪
نيجيريا	٨٨٥١٤٥٠١ (٩١)	٢ر٤٧٪	الإنجليزية بالإضافة إلى الهاوسا واليوربا والأيبو	مسيحيين ٥ر٣٤٪ معتقدات إفريقية ١٨٪
توجو	٢٧٤٧٠٠٠ (٨٢)	١٥٪	الفرنسية	مسيحيين ٣٥٪ معتقدات إفريقية ٥٠٪
غانا	١٢٢٩٦٠٨١ (٨٤)	١٢٪	الإنجليزية إلى جانب الجاوالايوى والفانتى	مسيحيين ٨ر٤٢٪ معتقدات إفريقية ٢ر٣٨٪ غير مصنفين ٧٪

ثالثاً : إفريقيا السواحلية

الخصائص / الدولة	عدد السكان	نسبة المسلمين	اللغة	الديانات الأخرى
السنغال	٦٨٨١٩١٩ (٨٨)	٩٠٪	الفرنسية	مسيحيين ٥٪ معتقدات ٥٪ إفريقية متوارثة
جامبيا	٦٩٨٨١٧ (٨٣)	٨٥٪	الإنجليزية بجانب الماندنيجو الأولوف	بقية النسبة تقريباً مسيحيين وقلة معتقدات إفريقية
غينيا بساو	٩٤٣٠٠٠ (٨٩)	٣٨٪	البرتغالية	مسيحيين ٨٪ معتقدات إفريقية ٥٤٪
غينيا	٥٠٧١٠٠٠ (٨٨)	٩٥٪	الفرنسية	مسحيين ٥ر١٪ الباقى معتقدات إفريقية
سيراليون	٤١٥١٠٠٠ (٩٠)	٣٠٪	الإنجليزية	كاثوليك ٢٪ الغالبية العظمى معتقدات إفريقية
ليبيريا	٢٦٠٧٠٠٠ (٩٠)	٢٥٪	الإنجليزية	الغالبية مسيحيين
ساحل العاج (كوت ديفوار)	٩٧٤٢٩٠٠ (٨٤)	٢٠٪	الفرنسية	مسيحيين ٢٠٪ معتقدات إفريقية ٦٠٪
غانا	١٢٢٩٦٠٨١ (٨٤)	١٢٪	الإنجليزية إلى جانب ألجا والأيوى والفانتى	مسيحيين ٨ر٤٢٪ معتقدات إفريقية ٢ر٣٨٪ غير مصنفين ٧٪
توجو	٢٧٤٧٠٠٠ (٨٢)	١٥٪	الفرنسية	مسيحيين ٣٥٪ معتقدات إفريقية ٥٠٪
بنين	٤٧٣٦٠٠٠ (٩٠)	١٣٪	الفرنسية إلى جانب الفولانى والفون واليوربا	مسيحيين ٥٪ معتقدات إفريقية ٦٥٪

رابعاً : إفريقيا الاستوائية

الخصائص / الدولة	عدد السكان	نسبة المسلمين	اللغة	الديانات الأخرى
إفريقيا الوسطى	٢٦٨٨٤٢٦ (٨٨)	٥٪	الفرنسية	مسيحيين ٣٥٪ معتقدات إفريقية ٦٠٪
الكاميرون	١١٥٤٠٠٠٠ (٨٩)	٢٢٪	الفرنسية إلى جانب الإنجليزية	مسيحيين ٥٣٪ معتقدات إفريقية ٢٥٪
غينيا الاستوائية	٣٤٨٠٠٠ (٩٠)	٣٪	الأسبانية	مسيحيين ٩٤٪ الباقى معتقدات إفريقية
الجابون	١٢٠٦٠٠٠ (٨٥)	١٪	الفرنسية	مسيحيين ٦٠٪ الباقى معتقدات إفريقية
الكونغو	١٨٤٣٤٢١ (٨٤)	٢٪	الفرنسية	مسيحيين ٤٨٪ معتقدات إفريقية ٥٠٪
زائير	٣٣٤٥٨٠٠٠ (٨٨)	١٪	الفرنسية	نسبة كبيرة مسيحية الباقى معتقدات إفريقية
أنجولا	١٠٠٢٠٠٠٠ (٩٠)	١٪	البرتغالية	نسبة كبيرة مسيحية الباقى معتقدات إفريقية

خامساً : إفريقيا الشرقية

الخصائص / الدولة	عدد السكان	نسبة المسلمين	اللغة	الديانات الأخرى
الحبشة (أثيوبيا)	٤٩٥١٣٠٠٠ (٨٩)	٤٥٪	الأمهرية إلى جانب الإنجليزية	مسيحيين ٤٠٪ الباقى معتقدات هندوسية وسيخية
كينيا	٢١٤٠٠٠٠٠ (٨٩)	٨٪	الإنجليزية والسواحلية	مسيحيين ٢٥٪ توجد طوائف بهائية الباقى معتقدات إفريقية
أوغندا	١٦٥٨٢٦٧٤ (٩١)	٥٪	الإنجليزية	مسيحيين ٦٠٪ الباقى معتقدات إفريقية
رواندا	٧١٨١٠٠٠ (٩٠)	٢٪	الكينيا رواند إلى جانب الفرنسية	مسيحيين ٤٠٪ توجد أقلية بهائية معتقدات إفريقية ٥٠٪
بوروندى	٥٤٥٨٠٠٠ (٩٠)	٢٪	الفرنسية إلى جانب الكيروندى البانتو	مسيحيين ٦٠٪ الباقى معتقدات إفريقية
تنزانيا	٢٥٦٣٥٠٠٠ (٩٠)	٣٣٪	السواحلية إلى جانب الإنجليزية	مسيحيين ٣٣٪ جزء كبير من الطائفة الآسيوية إسماعيلى
جزر القمر	٤٨٤٠٠٠ (٨٦)	أغلبية مسلمة	العربية إلى جانب الفرنسية	أقلية تبع الكنيسة الكاثوليكية (٢٨٠٠)

مالاوى	٨٥٥٦٠٠٠ (٩١)	١٠٪	الإنجليزية	مسيحين ٥٠٪ الباقى معتقدات إفريقية
موزمبيق	١٥٦٥٦٠٠٠ (٩٠)	٢٥٪	البرتغالية	مسيحين ٦٥٪ الباقى معتقدات إفريقية
مدغشقر (مالاجاش)	١١١٩٧٠٠٠ (٩٠)	٧٪	الفرنسية إلى جانب الملاجاشية	مسيحين ٤٣٪ معتقدات إفريقية ٥٠٪

ملحوظة : بالنسبة لهذا الجدول وجداول هذا الفصل ، فإن مراجعها واحدة ، كما نحب أن نلفت النظر إلى أن معظم الدول الإفريقية تم الإحصاء لها فى الثمانينات .

وهذه الأرقام هى التقديرات الرسمية للسنوات التى بين القوسين ، تحت تعداد كل دولة . . المصدر لتعداد السكان من المرجع :

(1) Regional Surveys of the World .

Africa south of the Sahara .

Europa Publications limited 22 nd edition 1993 .

(2) Regional Surveys of the World .

The middle East and North Africa .

Europa publications limited 39 th edition - 1993 .

❋ ❋ ❋

الفصل الثالث
تاريخ الإسلام فى إفريقيا

● أول الغيث قطرة :

يمكن القول : إن تاريخ الإسلام فى إفريقيا هو تاريخ الدعوة الإسلامية نفسها ، حيث تحدثنا كتب السيرة : أن الإسلام عرف طريقه إلى الصومال ، قبل أن يصل إلى المدينة المنورة نفسها [1] ، وذلك حينما خرج سيدنا جعفر بن أبى طالب ابن عم رسول الله ﷺ مهاجراً من مكة إلى الحبشة ، فراراً من أذى المشركين ، ونشراً لدعوة الإسلام ، لقد عبر المهاجرون معه البحر الأحمر ، عن طريق باب المندب متجهين إلى الحبشة ، والصومال هى المنطقة التى تقابل شبه الجزيرة العربية ، على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر ، فلا بد أن ينزل فيها الذاهب إلى الحبشة أو العائد منها ، ورأى أهل البلاد منهم القدوة الطيبة والسلوك الجميل ، وعرفوا منهم نبأ هذا الدين الجديد فسارعوا إلى اعتناقه ، وكان هذا فاتحة خير على القارة الإفريقية ، حيث أول الغيث قطرة وطريق الألف ميل يبدأ بخطوة .

● أدوار تطور الإسلام فى إفريقيا :

مر الإسلام فى جميع الأقطار الإفريقية بالأدوار الآتية [2] :

أولاً - دور التهيؤ (التكوين) :

شهد دخول المؤثرات الإسلامية عن طريق الفتح ، أو التسرب السلمى ، فانتشرت اللغة العربية ، وشاعت المؤثرات الإسلامية .

فى مصر والمغرب : يبدأ هذا الدور منذ تمام الفتح العربى الإسلامى ، وينتهى ببداية ظهور الإمارات الإسلامية المستقلة .

وفى غرب إفريقيا : يمثله ظهور المرابطين ونشرهم الإسلام ، فى دولة غانا وحوض السنغال .

وفى سودان وادى النيل : تمثله الفترة التى تنتهى بسقوط ممالك النوبة المسيحية ، ثم بداية تدفق القبائل العربية ، وتسربها إلى بلاد السودان .

---

(١) « إفريقيا فى ظل الإسلام » : د . عبد الرحمن النجار (ص ١٩) ، مجلة الوعى الإسلامى - الكويت - السنة الرابعة عشرة - العدد (١٦٤) ، شعبان ١٣٩٨ هـ/ يوليو ١٩٧٨م .

(٢) « الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا » : د . حسن أحمد محمود ، أستاذ التاريخ الإسلامى - جامعة القاهرة ، (ص ٧٧) ، دار الفكر العربى .

وفى شرق إفريقيا : يمثله استقرار المهاجرين العرب ، وعملهم على نشر الإسلام بين أهل البلاد الأصليين .

ثانياً – دوز الازدهار :

يمثل اكتمال التطور الإسلامى ، إذ يتم فيه الاندماج الكامل بين الإسلام وبين المؤثرات المحلية الموجودة ، ويظهر الطابع المحلى للثقافة الإسلامية ، وتبدأ شعوب المنطقة التى أسلمت ، وتشربت الثقافة الإسلامية تؤسس دولاً إسلامية ، يؤسسها أبناء البلاد الأصليون ، هذه الدول تعمل على نشر الإسلام ، وإشاعة المؤثرات الإسلامية ، ويظهر فى حضارتها وتقاليدها المزيج الجديد ، المؤلف من الثقافة الإسلامية الوافدة والثقافات المحلية .

فى مصر والمغرب : يشمل تاريخ الدول الإسلامية المستقلة ، حتى بداية القرن التاسع عشر .

وفى غرب إفريقيا : يشهد ظهور الدول الإسلامية المستقلة : مالى وسنغى وسلطانات كانم وبرنو .

وفى سودان وادى النيل : ظهور سلطانات الفنج ودرافور وتقلى .

وفى شرق إفريقيا : ظهور الإمارات المستقلة ، وصراعها مع القوى المسيحية فى البلاد .

شهد هذا الدور ظهور الأتراك العثمانيين على مسرح الحوادث ، وقيادتهم معركة الجهاد الإسلامى ، فى البحر الأبيض والأحمر وأوروبا .

ثالثاً – عصر الإصلاح – القرن التاسع عشر :

فى هذا العصر يأخذ الإسلام فى مجابهة المؤثرات الغربية الوافدة ، وفى التلاؤم معها فى البلاد التى وفدت عليها هذه المؤثرات .

وفى بعض البلاد الأخرى ، تظهر الانتفاضات المهدوية أو الوهابية أو الحركات الإسلامية الأخرى ، هادفة إلى إصلاح الأحوال ، والنهوض بالإسلام والعودة به إلى قوته الأولى ، أو بمعنى آخر : ظهور عصر التجديد فى بعض الأقطار ، ثم ظهور الحركات السلفية فى بعض الأقطار الأخرى ، ثم تظهر القوى الأوروبية ، وتخضع العالم الإسلامى لنفوذها وسيطرتها بما فى ذلك الدول الإفريقية .

فى مصر وشمال إفريقيا : يمثل هذا العصر ظهور حركات التجديد .

فى غرب إفريقيا : ظهور حركات الجهاد : حركات ابن فودى والحاج عمر وأحمد لوبو وشيخو أحمدو .

فى سودان وادى النيل : يتمثل فى الفترة الممتدة من الفتح المصرى حتى نهاية المهدية .

وفى شرق إفريقيا : يتمثل فى الصراع الأخير بين القوى الإسلامية فى البلاد ، وتدخل المصريين والمهدويين فى السودان .

● وسائل انتشار الإسلام فى إفريقيا :

إن حركات الفتح والتوسع والجهاد ، التى حفل بها تاريخ الإسلام فى القارة خلال فترة طويلة ، كانت ذات أثر ضئيل فى نشر الإسلام ، فحركات الفتح العربى الأول لمصر والمغرب ، لم ينتشر الإسلام إلا بعد تمامها بعدة قرون ، مما يؤكد على أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف كما يزعم الحاقدون ، بل انتشر بمبادئه السمحة ويسره وسهولته ، وأخلاق رجاله الذين يبددون ظلمات الجهل بسلوكياتهم القويمة ، كذلك فإن حركات الجهاد التى حفل بها تاريخ الإسلام فى غرب إفريقيا ، مثل حركات عبد الله بن ياسين فى حوض السنغال، ثم فى صحراء المغرب ، وحركات سلاطين مالى وسنغى والحركات التى أعقبتها، وكذلك الحركات التى امتلأ بها تاريخ الإسلام فى شرق إفريقيا ، كلها لم تتمخض عن انتشار الإسلام على نطاق واسع [1] .

بل من الغريب أن الإسلام بدأ ينتشر فى إفريقيا على نطاق واسع ، بعد انتهاء هذه الحركات فى القرن العشرين ، وذلك فى ظل الاستعمار الذى بسط نفوذه على إفريقيا ، فى ظل هذا الاستعمار قطع الإسلام أشواطاً نحو الذيوع والانتشار بالطرق السلمية ، هذه الطرق السلمية وحدها هى التى تعنينا هنا فى هذا البحث ، لأنها منارات هدى وإجابات شافية لكل من يقف فى خضم الحياة ويسائل نفسه : ماذا أنا فاعل أمام تيارات الفساد والكفر اللدود ؟ وكيف أملك بإمكانيات محدودة نشر الدعوة الإسلامية ؟ وكيف أعبر الحواجز المعنوية والحدود السياسية التى أقامها المستعمر بين دول إفريقيا ؟

وللرد على تلك الأسئلة : نعرض دور المسلمين فى نشر دعوة الحق ، متخذين من أحداث التاريخ عظة وعبرة ، ونبراساً يهدى تفكيرنا ومنهاجاً يدفع خطواتنا ، على أن يكون معلوماً لدينا أن هذا الدور لم يتم اعتباطاً ، وإنما كان دافعه اليقين بعظمة الإسلام ، وحمل لواءه مسلمون يعمر قلوبهم الإيمان ، ويدفعهم الإخلاص ، غير مبالين ببذل الجهد والوقت والمال ، فى سبيل تحرير الشعوب من غفلتها ، ورفع حجب الجهالة والشهوات عنها، والأخذ بيدها إلى طريق الهدى والنور .

فإذا أخلص كل منا النية لله ، وخرج عن دائرة نفسه إلى الإحساس بعالمية التواصل الإنسانى ، فإنه يستطيع أن يقوم بما قام به من سبقنا بوسائل العصر الحديثة ، من البحوث العلمية والتبادلات الثقافية والتجارية ، والمراكز الإسلامية والمؤتمرات الدولية .

(١) المرجع السابق : « الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا » (ص ٥٣) .

فمهما اختلفت الصور ، وتعددت الوسائل ، فسيظل جوهر العمل ودوافعه ، هو المحك الأساسى فى كل تصرف إنسانى ، مهما اختلفت العصور والأزمان .

ونوجز وسائل انتشار الإسلام فى إفريقيا فى عدة نقاط :

١ - دور العلم والعلماء :

لقد لعب الأفراد المسلمون دوراً عظيماً فى تاريخ انتشار الإسلام فى إفريقيا ، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أساسيات العقيدة الإسلامية ، وهو ما يضاعف مسئولية الفرد المسلم ، ويجعله يسعى إلى طلب العلم وتعليمه للناس سعياً حثيثاً ، لأن ذلك فرض عين على كل مسلم ومسلمة ، ولذلك فأعظم نشاط قام به الأفراد فى ميدان الدعوة، هو تعلم العلم الدينى ، سواء عن طريق فقهاء فى بلدهم ، أو فى الشمال الإفريقى ، أو عندما حجوا إلى مكة ، وهم تختلف ألقابهم باختلاف المجتمعات التى يعيشون فيها ، فبعضهم يسمى المرابط أو « ألفاً » ، أو المعلم ، أو الفقيه [١] .

هؤلاء الناس يظفرون بنصيب كبير من الاحترام فى المجتمعات التى يعيشون فيها ، وهم أينما ذهبوا يعاملون بأعظم مظاهر الاحترام ، وفى استطاعتهم التنقل فى حرية مطلقة من قرية لأخرى أو من إمارة لأخرى ، ويصادفون الرعاية والتشجيع أينما حلوا ، وهم ينشئون المدارس ويحفظون القرآن ، ويعلمون الأطفال المسلمين والوثنيين على حد سواء ، وقد تعلم أكثرهم فى مدارس المغرب أو فى مصر، وقاموا بنشاط ملحوظ فى نشر الإسلام.

ولم ينفرد الرجال بهذا الأمر ، إنما شاركهم فيه النساء ، فكثيرات منهن قمن بنصيب موفور فى نشر الإسلام ، والسير توماس أرنولد [٢] يذكر أنه يرجع الفضل فى إسلام كثير من أمراء المغول إلى تأثير زوجة مسلمة ، ولا يبعد أن يكون مثل هذا التأثير سبباً فى إسلام كثير من الأتراك الوثنيين ، عندما كانوا يغيرون على البلاد الإسلامية ، وقد أحس السنوسيون بأهمية المرأة فى هذا الشأن : فأنشأوا المدارس لتعليم البنات ، واستغلوا ما كانت تتركه النساء من نفوذ قوى بين القبائل .

وقد لعبت النساء دوراً كبيراً فى شرق إفريقيا ، فكثير من الوثنيين الذين رحلوا إلى هذه البلاد للعمل فى الزراعة ، اضطروا إلى الإقامة الدائمة ، وأسلموا بعد أن تزوجوا من نساء مسلمات .

وقد قيل : إن انتشار الإسلام فى الحبشة ، خلال النصف الأول من القرن الماضى ، كان

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، (ص ٣٩١ ، ٣٩٢) - الطبعة الثانية - القاهرة .
(٢) « الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا » (ص ٤٥٠ ، ٤٥١) مرجع سابق .

راجعاً إلى حد كبير إلى ما بذلته النساء المسلمات من جهود ، وخاصة نساء الأمراء المسيحيين ، وكن مسلمات يتظاهرن باعتناق المسيحية ، وينشئن أبناءهن نشأة إسلامية [١] .

٢ - دور التجارة والمراكز التجارية :

فى ميدان الجهود الفردية فى نشر الإسلام ، قام التجار بالدور الأول فى نشر الدعوة ، فقد كانت الطرق التجارية الموصلة بين المراكز الإسلامية ، فى شمال القارة والبلاد الواقعة فيما وراء الصحراء ، هى المسالك الحقيقية التى تسرب الإسلام عبرها إلى قلب إفريقيا ، وقد انتشر الإسلام دائماً على طول هذه الطرق التجارية .

ويعتقد ترمنجهام أن الإسلام والتجارة ، يرتبطان إلى حد كبير بطرق التجارة الموصلة بين بلاد المغرب وبلاد السودان ، عبر الصحراء الكبرى ، أو على طول ساحل المحيط الأطلسى، حيث قامت هذه الطرق بدور جليل الشأن فى نشر الإسلام ، فى بلاد السنغال وأعالى النيجر ومنطقة بحيرة تشاد .

هذا التأثير المغربى لم ينقطع أبداً طوال العهد بالإسلام ، وكانت المجتمعات الإسلامية الجديدة ، التى تنشأ فى شمال السودان ، تقوم بدورها فى نشر الإسلام ، فى المناطق الواقعة إلى الجنوب ، عن طريق التجارة والطرق التجارية .

وفى غرب إفريقيا على وجه الخصوص كان لتجار الفولانى والحوصة والتكرور الدور الأكبر فى انتشار الإسلام : كان هؤلاء التجار ينزلون فى الأسواق الكبرى أو المراكز التجارية ، ثم يحتكون بالزنوج عن طريق التجارة ، ويؤثرون فيهم بنظافتهم وأمانتهم وسلوكهم الشخصى ، وغالباً ما ينتهى هذا الاحتكاك ، بدخول كثير من هؤلاء الزنوج فى الإسلام ، ولذلك كاد الإسلام أن يتركز فى المراكز التجارية الهامة وفى المدن الكبرى .

وبعض هؤلاء التجار كان يجمع بين التجارة والتعليم ، فإذا ما استقر بهم المقام أنشأوا مدارس لتعليم القرآن ، أو أنشأوا مسجداً ، وقاموا فى نفس الوقت بمزاولة النشاط التعليمى والاقتصادى [٢] .

وكما لعبت طرق التجارة دوراً كبيراً فى نشر الإسلام ، من مراكزه فى شمال إفريقيا وإشاعة المؤثرات الإسلامية فى غرب القارة ، كذلك كان شأن الطرق التجارية التى تصل وادى النيل بشرق إفريقيا ، حيث كان لها مثل هذا الأثر فى نشر الإسلام ، من مصر إلى بلاد السودان وشرق إفريقيا : فمعاهدة البقط مثلاً التى عقدت بين بلاد النوبة ومصر الإسلامية ، كان يقصد بها قبل كل شيء ، تنظيم العلاقات الاقتصادية والتجارية بين القطرين

(١) المرجع السابق « الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا » (ص ٤٥٠ ، ٤٥١) .
(٢) نفس المرجع السابق ، (ص٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢) .

وعلى أثر عقد هذا الاتفاق ، أخذ التجار المسلمون يتجولون فى بلاد النوبة ، وإليهم يرجع الفضل الأول فى نشر الإسلام فى هذه البلاد (١) .

وقد نشأت بوادى النيل مراكز للتجارة ، كان لها شأن عظيم فى نشر الإسلام فى شرق إفريقيا على الخصوص من أهمها :

- مركز **مدينة عيذاب** (٢) : التى نشأت نتيجة لاستقرار بعض الجماعات العربية فى إقليم العتباى ، واستغلال مناجم العلاقى ، والنشاط الاقتصادى فى هذه المنطقة ، أدى إلى ظهور مدينة عيذاب ، وذاعت شهرتها على الخصوص ، ابتداء من القرن الثانى عشر بعد تحول قوافل الحج من مصر وبلاد المغرب ، من سيناء إلى الصعيد ، بسبب الحركات الصليبية على سواحل الشام وفلسطين ، وغدت عيذاب ميناء مصر الرئيسى على البحر الأحمر ، منذ أواخر العصر الفاطمى ، وظلت كذلك حتى أوائل دولة المماليك الثانية ، وبلغ من أهميتها أن أشرفت عليها إدارة مصرية ، وكانت الدولة المملوكية تعين إلى جانب واليها الحدربى والياً مصرياً (٣) .

- ومن هذه المراكز الهامة **مدينة قوص** : التى أضحت سوقاً تجارياً هاماً ، ترد إليه منتجات إفريقيا الوسطى والمغرب واليمن والهند والحبشة ، حيث نشأت طائفة من التجار المسلمين تسمى بالكانمية ، اتخذت هذا الاسم على الخصوص اعتباراً من العصر الأيوبى ، وقد اتسعت هذه التسمية ، فأطلقت على عامة التجار ، الذين اشتغلوا بتجارة التوابل ، وأصبح لهم نفوذ كبير وشهرة عظيمة ، وقد وصل هؤلاء التجار إلى الحبشة ، ووجدوا ترحيباً عظيماً من زعمائها ، نظراً لما قاموا به من تصريف منتجاتهم وتسويقها بأسعار مجزية .

وكان هؤلاء التجار يقيمون فى بلاد الحبشة فى مواسم التجارة ، ويوطدون صلتهم بالزعماء ، ويعملون فى نفس الوقت على نشر الإسلام ، وكان هؤلاء الناس يحتكرون تجارة الحبشة ، خصوصاً والأحباش قوم محاربون أو زراعيون يحتقرون التجارة أو يأنفون منها ، فتركوا هذا الميدان لتجار المسلمين ، فبرعوا فيه إلى أبعد الحدود ، واحتكروا هذه التجارة ، وركزوا الشئون الاقتصادية فى أيديهم (٤) .

وخير ما يدل على أثر المراكز التجارية فى نشر الإسلام ، ما كان من استقرار بعض

---

(١) Trimingham : Islam in Ethiopia - p 20.

(٢) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، (ص١٥١) - القاهرة ١٩٦٠م .

(٣) كانت فى المكان المعروف الآن برأس وودية - انظر : تاريخ السودان القديم والحديث ، القاهرة ١٩٥٦م - نعوم شقير (جـ٢ ، ص ٦٨ - ٧٠) .

(٤) تاريخ الثقافة العربية فى السودان بين الحبشة والعرب (ص ١٩٩ - ٢٠١) - القاهرة ١٩٥٢م .

المهاجرين ، من غرب جنوب الجزيرة ، على شاطئ شرق إفريقيا ، وإنشائهم مدناً ساحلية ، مثل سواكن وباضع وزيلع وبربرة ومقدشو وكلوا

وأصبحت هذه المدن مراكز تجارية هامة ، تقوم بحمل متاجر إفريقيا ، إلى أسواق آسيا وحمل متاجر آسيا إلى إفريقيا ، وتشتغل على الخصوص ، بتجارة التوابل أو الذهب والمنسوجات .

هذه المدن الساحلية ، أصبحت مراكز هامة لنشر الإسلام ، إذ قام أثرياء التجار بفتح المدارس ، وإرسال الطلاب المتفوقين إلى البحرين أو القاهرة أو دمشق ، لإتمام تعليمهم ، ومن هذه المدن الساحلية ، كان التجار يندفعون إلى داخل الإقليم ، لشراء المنتجات أو تصريف البضاعة ، ولما كانت الإبل لا تستطيع أن تصل إلى المناطق الداخلية فى موسم الأمطار ، فقد اعتاد هؤلاء أن يتخذوا لهم مأوى فى المناطق الداخلية ، فيقيمون الشهر أو الشهور يتاجرون ، ثم يعودون من حيث أتوا ، وعلى هذه الطرق نشأت بعض المستعمرات الداخلية، هؤلاء التجار المنحدرون من المدن الساحلية ، كان لهم شأن فى نشر الإسلام ، بين الصوماليين والجلا وغيرهم من الشعوب النازلة فى هذا الإقليم [١] .

ويرى ترمنجهام أن تجارة الرقيق كان لها شأن عظيم فى نشر الإسلام بين القبائل الوثنية ، ولا يقصد بالطبع اعتناق هؤلاء الرقيق للإسلام ، إذا ما ابتاعهم سادة مسلمون ، إنما يهدف إلى القول بأن هذه التجارة ، عملت فى سودان وادى النيل - على الخصوص - على تدمير مراكز الحياة الوثنية ، بالقضاء على كثير من القبائل الوثنية ، الأمر الذى يسر على الإسلام أن يجتاح هذه القبائل المتفرقة فى الجنوب الغربى من بحر الغزال ، وقد أدت تجارة الرقيق إلى القضاء على قبائل بأسرها فضعفت مقاومة المجتمعات الوثنية .

وهذا الرأى هو من قبيل تفسير التاريخ من واقع وجدان من كتبوه ، فهو يفسر انتشار الإسلام نتيجة تجارة الرقيق ، بما يتفق مع مشاعره - ولا نقول أحقاده - تجاه الإسلام ، فنحن نفسر ذلك بأن تجارة الرقيق تجارة بشعه تتنافى مع كل معانى الرحمة والإنسانية ، ولا بد أن هذا ما دفع الإفريقيين إلى الاحتماء بالإسلام ، دين الرحمة والعدل والمساواة ، حتى يجدون تحت مظلته أسمى المبادئ وأنبل القيم .

وهذا ما دفعنا إلى أن نفتتح هذا البحث بفصل عنوانه : « إعادة كتابة التاريخ الإسلامى ضرورة عقائدية » ، فكيف نقبل أن يدس لنا السم ، لنشربه فى كأس تسمى علمية أو تاريخية ، ثم تتداعى عقيدتنا وتتداعى معها شعوبنا الإسلامية ، لأن العقيدة هى الركن الركين ، وحبل الله المتين ، الذى يعصمنا من التردى فى متاهات المادية وادعاءات الملحدين

(١) Coupland : East Africa and its invaders - p 31

٣ – الاستعمار ونشاط التجار فى نشر الإسلام :

أدى وقوع إفريقيا فى قبضة الاستعمار ، فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين إلى زيادة نشاط هؤلاء التجار ، وبالتالى إلى ازدياد الإسلام سعة فى الانتشار [١] ، فقد فتحت أمام هؤلاء المغامرين ميادين جديدة للعمل ، إذ استطاعوا فى ظل الاستعمار اختراق مناطق الغابات ، واستطاعوا التوغل مسافات بعيدة ، بعد إنشاء الطرق والسكك الحديدية .

بل سلكوا سبلاً أخرى لم تظهر إلا بظهور الاستعمار ، وتوغلوا نحو المناطق الساحلية ليس عن طريق البر فحسب ، بل عبر الطريق البحرى الذى يدور حول إفريقيا ، لذلك ظهرت جماعات إسلامية على طول الساحل الغربى ، وأصبحت المدن الممتازة من مصب السنغال حتى مدينة لاجوس بنيچيريا ، تضم جاليات إسلامية وفيرة العدد ، إما من المهاجرين أو ممن أسلموا على يد التجار الوافدين .

وفى الحقيقة أننى أقف مبهورة أمام ذلك الخبر : أن انتشار الإسلام الانتشار الحقيقى الواسع ، جاء بعد الاستعمار الأوروبى لإفريقيا ، ذلك الاستعمار الذى تدفعه أحقاده لمحاولة القضاء على الإسلام ، والنيل منه بأى صورة من الصور ، ولكن الله جعلهم أداة لتمهيد الطرق وتسهيل الانتقال ، فكانوا سبباً لنصرة دين الله من حيث لا يحتسبون .

ولا يسعنى إلا أن أسجد أمام عظمة الله مرددة قول المولى عَزَّ وجَلَّ : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ [٢] .

ولعل هذا يكون درساً لنا ألا نيأس من رحمة الله ، مهما ادلهمت الخطوب أو تجمعت أحزاب البغى والعدوان على محاربة عقيدتنا ، فالمهم أن نسلم الوجه لله ، وأن نخلص النية ونتقن العمل ، وبعد ذلك علينا الأذان وعلى الله البلاغ .

فالعقيدة بناء راسخ الأركان ، وعلى كل جيل أن يضيف إليه لبنات جديدة ، حتى يعلو البنيان ، ويبلغ عنان السماء ، مع مر العصور والأجيال .

٤ – دور الهجرات العربية وغير العربية :

لقد لعبت تحركات القبائل وهجراتها ، دوراً عظيماً فى نشر الإسلام فى إفريقيا ، ومن الغريب أن أغلب القبائل والشعوب التى اعتنقت الإسلام ، ثم عملت على نشره ، كانت شعوباً غير مستقرة ، تنتقل من أوطانها انتقالاً فصلياً ، أو تهجر هذه الأوطان لأسباب اقتصادية ، بل كانت هذه التحركات القبلية ، تكمن وراء الحركات التوسعية ، التى تمت فى

---

(١) André : L'islam noir - p25 .

(٢) الأنفال : ٣٠ .

غرب إفريقيا وفى شرقها : تحركات الفولانى أو الصومالى أو الدناقل والجلا ، وتحركات القبائل العربية فى السودان .

وأهم الهجرات التى كان لها شأنها فى نشر الإسلام فى إفريقيا : هجرات القبائل العربية التى دخلت مصر ، فى أعقاب الفتح العربى لهذه البلاد ، واستقرت فى وادى النيل ، ثم دخلت المغرب فى أعقاب الفتح العربى ، وبلغت فى تحركها غرباً ساحل البحر ، هذه القبائل منذ القرن الثالث الهجرى ، ومنذ اختلاطها بالشعوب ، أضحت عاملاً هاماً فى نشر اللغة العربية والدم العربى والدين الإسلامى ، وقد لعبت القبائل العربية المهاجرة من مصر ، دوراً عظيماً جداً فى نشر الإسلام فى بلاد النوبة والسودان ، وأصبحت بلاد النوبة منذ القرن الرابع عشر ، ليست وطن النوبيين فحسب ، وإنما شاركتهم فيه قبائل عربية كثيرة من غير بنى كنز ، ولم يعد الشلال الثانى حاجزاً ، يمنع تدفق القبائل العربية نحو الجنوب (١) .

وكان انهيار مملكة مقرة المسيحية ، مما فتح الباب أمام هذه القبائل العربية ، لتمضى فى توغلها نحو الجنوب ، مضت جنوباً حتى منطقة النيل الأزرق ، بل مضى عرب جذام غرباً ، واجتاحوا مملكة الزغاوة وسيطروا على دارفور ، واتخذوا من هذه المنطقة قاعدة ، لشن غراتهم على ما جاورها من أقاليم ، ووصل بهم تجوالهم حتى مملكة برنو ، بدليل ما جاء من شكوى سلطان برنو إلى المماليك سنة ٧٩٤ هـ من هؤلاء الأعراب (٢) .

لكن الهجرات العربية التى تركت أثراً واضحاً فى حياة المغرب ، هى هجرات الهلاليين وأحلافهم ، منذ القرن الحادى عشر فصاعداً ، هذه الهجرات كان لها الفضل فى نشر الدم العربى واللسان العربى فى المغرب ، ونشر الإسلام كذلك (٣) ، واستطاعت هذه القبائل العربية أن تعبر جنوب مراكش ، وأن تفتح منطقة أدرار ، وتصل إلى السنغال الأدنى ، فى نهاية القرن السادس عشر الميلادى مثل بنى حسن ، ثم استداروا نحو الشرق (٤) .

ومن أدلة انتشار النفوذ العربى ، أنه قل أن تجد بيتاً حاكماً فى غرب إفريقيا إلا ، وينتسب بعض حكامه إلى أصل عربى ، بعضهم يدعى نسباً علوياً أو أموياً أو عباسياً أو فاطمياً ، وبعضهم يدعى نسباً نبوياً (٥) .

---

(١) مصطفى مسعد : الممالك المسيحية فى النوبة (ص ١٨٣) .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى (جـ ٨ ، ص ١١٦) .

(٣) Meak : Noithem Nigerls . 1 , p 61 .

(٤) Eage : West Africa - p15 .

(٥) Meak : Op. Cit - p 16 .

ولم يتسرب الدم العربى ، أو الهجرات العربية إلى إفريقيا ، عبر مصر أو المغرب فحسب، بل عبر بعضها البحر الأحمر إلى شرق إفريقيا مباشرة .

ففى نهاية القرن السابع الميلادى ، عبرت جماعات من عرب هوازن البحر الأحمر ، واستقرت فى أرض البجة ، حيث عرفوا باسم الحلانقة ، ثم انتقلوا إلى مركز تاكة ، ويبدو أن هؤلاء الحلانقة كانوا أول من استقر من العرب فى أرض البجة (١) .

ويقال : إن جماعات من الأمويين لجأت إلى بلاد البجة ، فى منتصف القرن الثامن الميلادى ، والأبحاث الأثرية أثبتت وجود جاليات إسلامية فى منطقة خورنبت ، على مسافة ٧٠ ميلاً غربى سواكن ، إذ عثر على شواهد قبور عربية ترجع إلى سنة ٧٦٠ ميلادية .

وقد ظل العرب من اليمن والحجاز وحضرموت ، يتسربون إلى سهول السودان الفسيحة، وبعضهم اختلط بقبائل النوبة والبجة بين النيل والبحر الأحمر ، ونتجت من هذا الاختلاط أرستقراطية حامية تتكلم اللغة العربية (٢) .

كما خرجت هجرات عربية ، من منطقة عمان إلى شرق إفريقيا عام ٦٩٥م .

وهاجرت طائفة من الزيدية عام ٧٤٠م ، وانتشرت حتى خط الاستواء .

وبعد ذلك بأجيال ، خرجت هجرات من إقليم الإحساء عام ٩٢٥م ، وانتشرت المستعمرات العربية على طول الساحل الإفريقى ، وعملت هذه الهجرات على نشر الإسلام فى منطقة إفريقيا (٣) ، وكان لهجرات البربر أثر عظيم جداً فى نشر الإسلام فى إفريقيا خصوصاً فى غربها . هذه الهجرات إلى غرب إفريقيا هجرات قديمة ، ولكنها بدأت تلعب دوراً هاماً ابتداء من القرن العاشر الميلادى بعد أن أسلم البربر .

وكانت غارات العرب الهلاليين ، سبباً فى هجرات قبائل كثيرة من البربر ، إلى منطقة الصحراء ، ثم توغلها نحو الجنوب إلى منطقة السنغال والنيجر .

ويرى بالمر أن هوارة ولواتة ونفراوة ، هاجرت نحو الجنوب بعد غارات عرب الهلاليين مباشرة (٤) .

وكان للطوارق شأن عظيم جداً فى نشر الإسلام فى منطقة السنغال والنيجر ، وظلت هجراتهم تؤثر فى هذه الجهات حتى القرن الثامن عشر (٥) .

وامتدت هجرات البربر إلى بلاد برنو، ويرى بالمر (٦) أن شعب البرنو بربرى الأصل،

---

(١) Paul : History of Beja tribes ; p 73 .
(٢) Trimingham : Islam in the Sudan p 10 to 16 .
(٣) Ani : Seafaning 2 .
(٤) Palmer : Op . Cit - p 9 .
(٥) Dubois : Tombouctou - p 152 .
(٦) Palmer : Op . Cit VII .

بل وصلت هجرات البربر شرقاً حتى دارفور ، إذ أن شعب الطنجور الذى كان له شأن فى نشر الإسلام فى دارفور ، يمثل هجرات من هجرات البربر ، وصلت هذه البلاد بعد غارات بنى هلال [١] .

ومن الهجرات الهامة التى كان لها شأن فى غرب إفريقيا ، هجرات الفولانى ، ويظن أنها هجرات بربرية ، وفدت على الحياة فى منطقة غرب إفريقيا ، وأنهم انحدروا من منطقة أدوار شمال السنغال ، واندفعوا إلى السودان الغربى ، بعد طرد المسلمين من الأندلس ، ثم تسربوا إلى الحياة هناك ، يشتغلون بالرعى أو الزراعة أو التجارة ، حتى لم شملهم ووحدهم المجاهد عثمان بن فودى ، فى القرن التاسع عشر ، وكانوا عدته فى جهاده ، واستطاع بفضلهم أن يؤسس سلطنة سكت [٢] .

وكان لهجرات أخرى غير هجرات العرب والبربر ، شأن فى نشر الإسلام فى إفريقيا، فقد كان لهجرات المحس النوبيين ، واستقرارهم فى منطقة النيل الأزرق ، أثر واضح فى انتشار الإسلام بين الفنج [٣] .

وكان للقبائل الرعوية فى شرق إفريقيا ، أثر عظيم فى انتشار الإسلام ، فالنضال بين الحبشة والمسلمين ، فى القرن السادس عشر ، كان يخفى من ورائه حركات توسعية ، قام بها الأعفار والصوماليون . ويبدو أن هذه الحركات قد بدأها الأعفار ، الذين كانوا ينزلون فى واحات أوسا ، والوديان الممتدة من المناطق إلى الشرق من شوا .

كانت هذه القبائل كلها من وراء حركة الجهاد الكبرى ، التى قام بها أحمد بن إبراهيم الغازى (١٥٠٦ - ١٥٤٣) [٤] .

ومن الهجرات التى أثرت فى انتشار الإسلام فى شرق إفريقيا ، هجرات الجلا ، بدأت هذه الهجرات بعد انتهاء الموجة الأولى ، واستطاعت فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ، أن تحتل مناطق كبيرة فى هضبة الحبشة ، وفى القرن الثامن عشر اعتنق الجلا الإسلام ، وعملوا على نشره فى البلاد [٥] .

ولقد لعب التكرور دوراً مماثلاً فى انتشار الإسلام فى غرب إفريقيا ، فقد استطاعوا سنة ١٧٧٦م أن ينشروا الإسلام فى منطقة فوتاتور ، وأن يؤسسوا دولة استمرت حتى سنة ١٨٨٤م [٦] .

---

(١) Trimingham : Sudan - p 89 .

(٢) Dubois : op . Cit - p 152 - 153 .

(٣) Trimingham : Sudan p 182 .

(٤) Trimingham : Ethiopia p 79 .

(٥) Trimingham : Ethiopia p 79 .

(٦) Islam noir p 31 .

وأحدثت هذه الهجرات هجرة المسلمين من الهنود ، واستقرارهم فى شرق إفريقيا وفى جنوبها [1] .

٥ - دور الطرق الصوفية :

إن الجهود الصادقة التى بذلت لنشر تعاليم الإسلام بالطرق السلمية ، بالتعليم والدعوة الخالصة ، قد تمت على يد الطرق الصوفية ، هذه الطرق التى كانت منذ القرن الرابع عشر قد تغلبت على خلافها مع الفقه ، بل رجحت كفتها على كفة الفقهاء ، ووجد هؤلاء أنفسهم أمام قوة لا قبل لهم بها ، فقبلوا ما كانوا بالأمس يرفضون ، وأصبحت التقاليد الإسلامية منذ ذلك الوقت ، مصبوغة بالصبغة الصوفية فى كل شيء : فى العبادات والمعاملات . وساعدها على هذا الانتصار ، انتشار العنصر التركى فى البلاد الإسلامية ، وتقبله الإسلام ، وقبضه على زمام السيادة بين المسلمين .

هذا الوفاق بين الفقه والصوفية ، وصل إلى أقصاه فى القرنين السابع عشر والثامن عشر[2] .

ثم أظل العالم الإسلامى القرن التاسع عشر ، فأسدت الطرق الصوفية للإسلام خدمات عظيمة ، فقد دب إليها دبيب النهضة ، الذى دب فى الثقافة الإسلامية عامة ، فى وقت ضعفت فيه السلطة المركزية فى الإسلام بضعف الخلافة العثمانية ، وفى وقت تفتت فيه وحدة المسلمين ، وبدأت أوطانهم تخضع للاستعمار .

واستطاع الصوفية هؤلاء ، أن يحفظوا فى الميدان الدينى هذه الوحدة ، التى عزت فى الميدان السياسى ، استطاعوا فى الميدان الدينى أن يقوموا بجهود ، لم تكن الحكومات الإسلامية قادرة على القيام بها ، بعد أن أفلت منها الزمام .

ومن الطرق التى ظهرت فى هذا العصر :

- **الميرغنية :** مؤسسها محمد عثمان الميرغنى ، الذى أرسل إلى السودان داعية ، لأحمد ابن إدريس سنة ١٨٣٥م ، فقام برحلة إلى إفريقيا لنشر تعاليم الإسلام ، عبر البحر الأحمر إلى القصير ، ونجحت جهوده فى بلاد النوبة ، ثم انتقل إلى كاردفان ، ومنها إلى سنار فنجحت رسالته نجاحاً عظيماً .

- وبعد موته سنة ١٨٥٠م نشأت طريقة جديدة تنسب إليه ، وقد لقيت من الحكم المصرى فى السودان تشجيعاً عظيماً ، وانتشرت دعوتها فى المناطق الجديدة التى ضمت إلى بلاد السودان [1] .

- **ثم السنوسية :** التى أسسها محمد بن على السنوسى ، الفقيه الجزائرى فى سنة

---

(١) خلف الله : مستقبل إفريقيا السياسى ، (ص ٥ ، ٦) .

(٢) Gihb : Op . Cit - p 24 .

(٣) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، (ص ٣٦٤ ، ٣٦٥) .

١٨٣٧م، وهى تهدف إلى إصلاح الإسلام ، ونشر العقيدة الإسلامية ، ولم يكد السنوسى ينتقل إلى جوار ربه سنة ١٨٥٩م ، حتى كان قد نجح فى تأسيس دولة دون أن يريق الدماء .

وانتشرت طريقته فى شمال إفريقيا كلها ، وامتدت زواياها من مصر إلى مراكش ، بل أوغلت فى واحات الصحراء ، وفى السودان ، وكان مركزها فى واحة جغبوب ، وفيها كان يتعلم مئات الدعاة ، الذين يرسلون إلى كافة بلاد إفريقيا ، وقد امتد أثرهم إلى أرجاء السودان وسنغامبيا وبلاد الصومال ، واستطاعت هذه الطريقة أن تدخل فى الإسلام، الكثير من الدول الوثنية (١) .

- ومن الطرق التى تم إحياؤها **القادرية** التى أسست فى القرن الثانى عشر ، على يد عبد القادر الجيلانى ، وكان من أشد أولياء المسلمين وأعظمهم هيبة .

ودخلت القادرية إفريقيا الغربية فى القرن الخامس عشر على يد مهاجرين من توات ، واتخذوا من ولاته أول مركز لطريقتهم .

وفى مستهل القرن التاسع عشر ، اندفعت القادرية فى طريق النهضة الكبرى ، وانتشر الفقهاء والمريدون من السنغال إلى النيجر ، وأنشئت المراكز لبث الدعوة فى مختلف الجهات ، ونظمت البعوث إلى الأزهر وتونس وطرابلس والقيروان .

- **والتيجانية** : التى كانت قد أثارت فى غرب إفريقيا ، فورات الجهاد والتوسع العسكرى استردت طبيعتها المسالمة فى ظل الاحتلال الفرنسى ، وعملت على نشر الإسلام بالطرق السلمية الخالصة (٢) .

قيل على لسان المستشرقين :

- وقد لقيت هذه الطرق نجاحاً عظيماً فى إفريقيا الزنجية ، فكبار المرابطين المثقفين من مشايخ الطرق ، وحولهم طبقة من متصوفى الدرجة الثانية ، فرضوا أنفسهم على الناس باسم الدين ، أو زاولوا السحر ونافسوا الكهنة المتطببين من الوثنيين فى صناعتهم ، فحل المرابط محل الكاهن والساحر ، وجمع فى يده سلطات روحية مختلفة ، فحلت الطرق الصوفية محل الجمعيات السرية الوثنية .

وهذه أيضاً مغالطة من مغالطات التاريخ ، ناتجة عن أحقاد دفينة تجاه الإسلام والمسلمين، فيشبهون الطرق الصوفية بالجمعيات السرية الوثنية ، سبحانك هذا بهتان عظيم، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا مقتاً : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار** ﴾ (٣) .

---

(١) أرنولد (ص ٣٧٠ - ٣٨٢) ، ونعوم شقير : تاريخ السودان (جـ١ ، ص ١٢٦ - ١٢٨) .
(٢) ديشان : « الديانات فى إفريقيا السوداء » (ص ١٤٥ - ١٥٠) ، القاهرة ١٩٥٦م .
(٣) سورة ص : ٢٨ .

ومما يؤسف له : أن كثيراً من المسلمين ينقلون مقولاتهم هذه بدون أى تعليق عليها ، وكأنها أمر مسلم به ، أو عقيدة راسخة لا تقبل الشك أو التأويل ، مما تتزلزل معه الشخصية الإسلامية ، وتتوه معالمها وهويتها ، فيجب أن يكون المسلم قوياً فى تشبثه بالحق ، قوياً فى الدفاع عنه ، حذراً فى تقبل أى معلومات عن تاريخنا الإسلامى ، تشوه صورته ، أو توهن من جهاد أولى العزم ، الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، ونصرهم الله فى أداء رسالتهم ، لأنه عرف صدق نياتهم ومبلغ إخلاصهم .

وإن تاريخ الإسلام فى إفريقيا هو صورة من صور تاريخنا ووجودنا ، رغم كل قوى البغى التى تعاونت على استئصالنا ومحو هويتنا ، فلنعلم جميعاً - نحن المسلمين - أن هذا التاريخ هو أغلى ما نملكه ، لأنه سطر بدماء وعرق وجهد ومال ، كل مسلم غيور على دينه، باع نفسه لله فى سبيل جنة عرضها السموات والأرض ، يهون بجانبها كل غال ونفيس ، وكل جهد يبذل ودماء تنزف فى سبيل رفع راية الحق عالية ، تنشر الخير والسلام والحب والوئام وترتفع معها هامات البشرية جمعاء ، وتحررها من ذل الأهواء والشهوات .

● أسباب انتشار الإسلام فى إفريقيا :

يثير انتشار الإسلام فى إفريقيا دهشة المحللين على اختلاف عقائدهم ، حيث أن ذلك الانتشار يتم على أيد رجال عاديين بسطاء ، لا يقف وراءهم دول قوية ، لها نفوذها السياسى ومكانتها المادية ، ومما يزيد من تلك الدهشة ، أن المسيحية تنتشر ببطء ، رغم ما يلقاه دعاتها من دعم مادى وتأييد سياسى ، ودراسات مستمرة على السكان ، وتحليل اتجاهاتهم لاختيار أنسب السبل لنجاح الدعوة المسيحية ، ودفع هذا الباحثين الغربيين إلى تناول تلك الظاهرة بالدراسة الجادة [(١)] ، لتعرف مواطن الخلل التى تعوق نشر عقيدتهم لتلافيها ، ولعل هذا يدق للمسلمين ناقوس الانتباه واليقظة ، حتى لا يكونوا أقل غيرة على عقيدتهم من المسيحيين ونسارع إلى دراسة كل ظواهر حياتنا المتأخرة ، حتى نحقق التقدم الذى يليق بعقيدتنا ، ونكون قد أدينا الأمانة التى كلفنا الله بها فى أعناقنا .

لقد اهتم الباحثون الغربيون بالإجابة على عدة أسئلة ، فى إطار بحثهم عن أسباب انتشار الإسلام فى إفريقيا منها :

- أيهما أكثر قبولاً وملاءمة لأحوال الناس وحياتهم : الإسلام أم المسيحية ؟
- لماذا يقبل الإفريقيون على الإسلام أكثر من المسيحية ؟
- ما هى عوامل الجذب فى الدين الإسلامى ؟

---

(١) « دور الإسلام والنصرانية فى إفريقيا فى نظر الكتاب الغربيين » : د . محمود سلام زناتى ، (ص ٢٢) من مجلة الأمة ، العدد (٥١) - السنة الخامسة - ربيع الأول ١٤٠٥ هـ/ ديسمبر ١٩٨٤م .

- أيهما له المستقبل فى القارة الإفريقية : الإسلام أم المسيحية ؟

وتنوعت إجابات الكتاب ، حسب درجة تعصبهم لديانتهم ، وتحيزهم لثقافتهم الغربية وتحاملهم على الإسلام : فمنهم من اتسمت كتاباته بالتعصب الشديد والكراهية للمسلمين، ومنهم من اتسمت كتاباته بشىء من الحيدة وقدر من الإنصاف ، لا حباً فى الإسلام والمسلمين ، ولكن محاولة منهم للوصول إلى الحقيقة المجردة عن الأهواء ، عملاً بأن العلاج لن يثمر نتائجه الطيبة إلا عن طريق التشخيص السليم للداء .

وإنصافاً منا للحقيقة : سننقل رأى بعض الباحثين الغربيين المنصفين ، وبعض المتعصبين حتى تكون خطواتنا فى البحث العلمى ، تسير بأقدام ثابتة على الصراط المستقيم ، لا تزيغ بها الأمانى الخادعة أو الحقائق المحبطة ، فنحن أمة وسط ، يجب أن نتعامل مع موازين الحياة كلها بروية وتمحص ، ونعالجها بالحكمة والجدال بالتى هى أحسن .

أولاً - آراء بعض الباحثين الغربيين المنصفين :

يقول « سميث » (Smith) فى كتابه « المقعد الذهبى » (1) :

ينبغى الاعتراف بأن الإسلام ينطوى على قوة جذب ، وكون أن نسبة بهذا الحجم من الإفريقيين ، قد اعتنقت هذه الديانة ، لدليل على ذلك ، فليس من المقنع تفسير اعتناقه ، على أساس أن الإفريقيين قد أرغموا على اعتناق الإسلام ، لأن ذلك ليس صحيحاً بالنسبة للغالبية ، وليس من المقنع القول ، بأن الإسلام يكتسب أنصاراً بتملق شهواتهم الحسية ، كما ليس من الممكن القول بأن الإفريقيين قد اختاروا الإسلام ، لأنه لم يكن لديهم بديل آخر عن ديانتهم الوثنية ، التى لم تعد ترضيهم ، ففى زنزيبار أتيحت للأهلين فرصة المقارنة بين النصرانية والإسلام ، على مدى ستين عاماً ، ومع ذلك ظلوا فى معظمهم مسلمين .

وتكمن قوة الإسلام فى قوة العقيدة التى يمنحها ، فالمسلم يعتقد فى إله واحد ، ويوماً بعد يوم يتردد صدى الإعلان المؤثر عن الإيمان ، فى الدعوة إلى الصلاة : « الله أكبر ، أشهد أنْ لا إله إلا الله » . . قد يشير رجال الدين النصرانى إلى بعض جوانب سلبية ، فى العقيدة الإسلامية ، لكن الإفريقيين ليسوا رجال لاهوت ، فتفكيرهم يتجه إلى التوحيد، وتأكيد المسلمين الواثق بأنهم يعبدون إلهاً واحداً ، يجد قبولاً كبيراً لديهم ، وفضلاً عن ذلك فإن الدعوة إلى الإسلام فى إفريقيا ، لا يتولى أمرها رجال بيض غرباً ، يمارسون تقاليد اجتماعية مغايرة ، وإنما رجال من اللون الإفريقى نفسه (أو من لون قريب منه) كما أن الداعية المسلم ، وإن كان ذا مستوى حضارى أسمى بشكل ظاهر ، فهو ليس على مسافة بعيدة إلى درجة مستحيلة ، كما هو الحال بالنسبة للأوروبى ، فليس ثمة

(1) Smith (Edwin W) . The golden stool - London - 1922 - p 226 - 230 .

هوة بين الداعية المسلم ، سواء كان تاجراً أو واعظاً ، وبين الإفريقى ، كتلك الهوة التى بين الداعية النصرانى والإفريقى .

وكثير من الرجال الذين يعدون أنفسهم نصارى طيبين ، لن يخطر ببالهم الإقرار بالزمالة مع النصارى من سود البشرة ، أما المسلمون فلا يفرقون ، فالعرب والزنوج والبربر والهنود أخوة فى الدين ، ولا يختلط بعضهم ببعضهم الآخر فى العبادة فحسب ، وإنما يعاون بعضهم بعضاً عن طيب خاطر فى شئون الحياة اليومية .

والحياة القبلية تتفسخ تحت تأثير الحضارة الأوروبية ، لكن عندما يعتنق القبليون الإسلام ، يجدون طريقهم إلى نظام عظيم للدين والأخلاق ، ويجدون جزاءات خلقية عوضاً عن تلك التى عفى عليها الزمن ، وفى غرب إفريقيا وحد المسلمون القبائل المتناثرة فى ممالك قوية ، شغل فيها الزنوج مناصب رفيعة .

ويقول « ميك » (Meek) فى كتابه « القبائل الشمالية فى نيجيريا) :

وهكذا ففيما يتصل بالجانب الروحى ، ليس الإسلام فى نيجيريا سوى محاكاة متواضعة للديانة السامية التى جاء بها النبى ﷺ ، وإذا نظرنا إلى الإسلام كعامل سياسى واجتماعى واقتصادى ، فإن الأمر يختلف كثيراً ، فقد أتى الإسلام بالمدنية إلى قبائل بربرية ، وأحال جماعات وثنية منعزلة إلى أمم ، وجعل التجارة مع العالم الخارجى أمراً ممكناً ، وكان من ثم أداة رئيسية فى تنمية الغريزة التجارية ، التى جعلت من الهوسا والنومى واليوربا والبرى برى تجاراً مشهورين ، ووسع من الأفق ، وأضفى على أتباعه الكرامة واحترام النفس واحترام الآخرين .

وسمو الجماعات الإسلامية ثقافياً وسياسياً ، يرجع أساساً إلى الدين ، فقد أدخل الإسلام إليها القراءة والكتابة ، وبتحريمه الخمر وأكل لحوم البشر والثأر ، والعادات البربرية الأخرى ، مكن الزنجى من أن يصبح مواطناً عالمياً .

ويشرح « ميك » وسائل انتشار الإسلام فى نيجيريا فيقول :

وترتب على وجود وسائل المواصلات ، أن شرع الوثنيون والمسلمون يتصلون ببعضهم بعضاً اتصالاً مستمراً . فالوثنى الذى يترك موطنه ، يجد أن من المناسب اعتناق مفهوم المسلمين وأسلوبهم فى الحياة ، ويتبين سريعاً ضيق ديانته بالمقارنة بعالمية الإسلام ، فضلاً عن أن الانتقال من الوثنية إلى الإسلام لا ينطوى على صعوبة ، فباتساع أفقه يدرك الإفريقى وجود إله أعظم واحد ، واعتقاده فى الأرواح الشريرة ، لا يتأثر بما يحدث من تغيير خارجى فى العقيدة ، كما يتبين أن المسلمين متسامحون ، وأن مساكنهم أفضل من مسكنه ، وثيابهم أفضل من ثيابه ، وأن نظرتهم إلى العالم أفضل من نظرته . وكثيراً ما

يقيم المسلمون مع الوثنيين ، وهؤلاء المستوطنون ليسوا شذاذ آفاق بصفه خاصة ، يستهدفون الحياة السهلة ، عن طريق استغلال الوثنيين الجهلة السدج ، وإنما أهدافهم فى الغالب شريفة ، وهم يصبحون أصدقاء للوثنيين ، وسرعان ما يكتسبون نفوذاً عليهم . لا يسيئون استغلاله ، وأكبر عقبة فى سبيل انتشار الإسلام هو تحريم الخمر ، فالخمر بالنسبة للوثنى ، ليست مجرد كأس يبهج (ويسكر) ، وإنما هى أيضاً طعام يغذى

ويعرض « **مورل** » وجهة نظره ، بالنسبة لأثر اعتناق الإسلام للإفريقى فيقول .

يأخذ الإسلام بيد الإفريقى ، ويمنحه المساواة مع كل الرجال الآخرين ، فمنذ اليوم الذى يعتنق فيه الوثنى الإسلام ، لا يستطيع مسلم من الساميين ، أن يزعم لنفسه سمواً اجتماعياً عليه . فالإسلام بالنسبة للزنجى هو الاتجاه نحو مفهوم أسمى للوجود ، حيث يوحى له بالثقة فى مصيره ، ويشرب روحه بإيمان قوى فى نفسه وجنسه

ويقول « **بلادين** » فى كتابه « الإسلام فى السودان الغربى »

ويتحتم علىّ الاعتراف بأننى حيثما شاهدت هؤلاء الرجال (الدعاة المسلمين) وهم يعملون ، وكثيراً ما شاهدتهم ، وقارنت بين جهودهم الحماسية ، وإنكارهم للذات ، وعدم مبالاتهم باعتراف الناس بجهودهم أو بالثناء عليهم ، وبين الدعاة المسيحيين وما كانوا عليه من تهيب وتردد ، واعتماد كلى على العون والتأييد الخارجى ، كان يعترينى شعور مماثل لذلك الشعور الذى قال « رينان » عنه (Renan) : إنه كان يعتلج فى صدره ، فى كل مرة يشاهد فيها الصلاة اليومية للمسلمين « لم أدخل مرة مسجداً دون أن يعترينى شعور دافق ، بل لعلى أقول ، دون أن يعترينى شعور ما بالأسف لأننى لست مسلماً » .

ويقول « **وسترمان** » فى كتابه « الإفريقى اليوم وغداً » :

وحقيقة أن الإسلام يمثل فى إفريقيا أنموذجاً للحضارة ، يجعل من السهل أن نفهم لماذا يتمتع بالاحترام والتعاطف ، من جانب كثير من الأوروبيين ، وفى بعض الأحيان يوصى به بوصفه الدين الأكثر ملاءمة للإفريقى ، ومع ذلك فإن أولئك الذين يعتنقون هذا الرأى ينبغى لهم ألا يتجاهلوا حقيقة أن الإسلام له بعض الجوانب السلبية ، ومن المشكوك فيه أنه بحضارته الأسمى ، قد أدخل أخلاقاً أسمى .

ثانياً – آراء بعض المتعصبين للنصرانية

ويعرض « كاربنتر » تقييمه ، لما ينطوى عليه دور الإسلام فى إفريقيا ، من إيجابيات وسلبيات ، فى بحث له بعنوان « دور المسيحية والإسلام فى إفريقيا المعاصرة » . والمنشور فى كتاب « إفريقيا اليوم »

ويقول « **كاربنتر** » فى بحثه المشار إليه :

ماذا يعنى اعتناق شعب إفريقيا الإسلام ، بالنسبة لقدرته على الإفادة من إمكانيات الحضارة الغربية ، والاستمرار فى طريق التطور ، الذى يفتح أمامه باب للاتصال بالعالم الخارجى ؟ يبدو أن أثر الإسلام فى هذا الخصوص سلبى تماماً . فالإسلام يضع فى طريق التقدم عقبة كؤودا . ولعل هذه هى أخطر نتيجة ، ترتبت على انتشار الإسلام فى القرن الماضى ، ولذلك أسباب متعددة :

١ - فالإسلام يتسم بجمود بالغ : ذلك أن العبقرية الخلاقة التى كانت له فى القرون الأولى ، تركت مكانها منذ أمد طويل ، لقدرية تسلم بأن كل شىء ، إنما هو جزء من إرادة الله ، وهو يجعل من هذا التسليم فضيلة ، كما ينظر إلى الرغبة فى التغيير ، بمثابة عصيان لله ، وهو بتمثله ما تنطوى عليه الحضارة الإفريقية ، من شعائر ومعتقدات وتقاليد، يسبغ عليه طابعه الرسمى ، ومن ثم يكفل لها الدوام ، ولهذا فإن الجماعة التى اعتنقت الإسلام تكون أكثر تعصباً على التغيير من الجماعة التى لم تعتنقه .

٢ - التعليم الإسلامى محدود فى غايته ومحتواه : فالمدارس المزعومة فى الجهات الإسلامية من إفريقيا ، من النادر أن تفعل شيئاً أكثر من تعليم التلاميذ تلاوة القرآن عن ظهر قلب باللغة العربية ، وفى الغالب لا قيمة لها إطلاقاً ، بوصفها أداة لتأهيلهم لمواجهة الحياة الحديثة ، بصورة أكثر فاعلية .

٣ - الإسلام علم رجال ، مكانة المرأة فيه شديدة الانحطاط : ويعنى ذلك أن البيت والحياة الأسرية مجردة من كل تأثير تحررى ، وتتجه فحسب نحو استمرار ركود الماضى وأوضاعه الخرافية .

٤ - يتجه العالم الإسلامى إلى النظر للغرب بعين الكراهية والارتياب ، دون أن يخلو ذلك من الحسد، ولهذا فإن الإسلام فى إفريقيا ، يقدم نقطة التقاء لأُولئك الذين يعارضون، أياً كانت الأسباب ، نفوذ الغرب أو نشاطه أو سلطته .

٥ - الإسلام يقوى خطوط التفرقة ويديمها ، لا سيما بين الجماعات الدينية ، بدلاً من أن يعمل على تحقيق اندماج أعم وأشمل ، فهو يسلم بوجود الأقليات ، بوصفها جماعات لها أحكامها الدينية وقوانينها الجنائية ، وخاضعة من الناحية السياسية للدولة الإسلامية . ولا يعترف بأى حرية للفرد فى الاختيار بين هذه الجماعات ، أو الانفصال عن الجماعة التى ولد بها ، فيما عدا الحق فى أن يعتنق الإسلام ، فالحرية الشخصية الدينية أو السياسية ، لا وجود لها فى النظام الإسلامى

واعتناق شعب إفريقيا للإسلام ، يشكل فى الوقت الحاضر على الأقل ، اختياراً لا رجعة فيه لصالح الأساليب القديمة وضد الأساليب الحديثة .

غير أن الوضع هنا ليس قاتماً تماماً ، فالإسلام ككل ، مواجه بالتقدم التكنولوچى والاجتماعى الغربى ، وهو مضطر إلى أن يحقق استجابة ديناميكية إذا أراد البقاء ، ولا يمكن القول بأن عملية البعث هذه ، واضحة فى الوقت الحاضر فى الإسلام الإفريقى ، إذا استثنينا ربما بضعة مفكرين تقدميين فى بعض الجهات ، غير أن وجودها ذاته أمر مشجع، لأن الضرورات التى تعكسها ، لن تغيب طويلاً عن إدراك أولئك الإفريقيين ، الذين يزداد اتصالهم يوماً بعد يوم بالثقافة الغربية والتقنية الغربية ، والذين سوف يتساءلون بالضرورة عما إذا كانت العقيدة الإسلامية سوف تحول دونهم والمزايا التى يتمتع بها جيرانهم .

وثمة مجال آخر يشكل تجديد الإسلام فيه من الداخل أمراً أساسياً ، وهو قدرته على تنمية شعور الانتماء إلى وطن بالمعنى الحديث ، وقدرته على تنشئة رجال دولة قادرين على قيادة مثل هذه الأوطان ، فالطابع المميز للدولة الإسلامية كان الاستبداد الفردى الذى يستند إلى ولاء يعتمد على الدين أو الرهبة أو القوة العسكرية ، ومثل هذه الدول قلما تبلغ حجماً كبيراً ، أو تعمر طويلاً ، أو تحقق استقراراً داخلياً دائماً ، كما أنها ليست فعالة فى تحقيق رفاهية الشعب ، وهذا الطابع لا يتناسب على الإطلاق مع البنية الإدارية المعقدة والتخصص التقنى المتنوع ، الذى تقتضيه الوظائف المتعددة للدول الحديثة ، ولا يستطيع خلق ولاء وطنى ، يرتفع فوق الاختلافات الدينية والثقافية ، ولا يستطيع أن يوفر مجالاً لقادة ، إنه يكفل الأمان للعاملين الأكفاء بالدولة ، وإلى أن تتحقق للإسلام القدرة على تنمية فلسفة سياسية أكثر ملائمة ، فإن الدول الإسلامية سوف تظل عاجزة ، عن بلوغ النضج والاستقرار .

● **رد على بحث « كاربنتر » :**

* رغم ما يثيره بحث « كاربنتر » من أسى فى النفس ، نتيجة تحامله على الإسلام ، الناتج من جهله لأصول العقيدة نفسها ، ويحكم على ذلك الدين القيم نتيجة سلوك أهله، إلا أننا نشكره من باب قول سيدنا عيسى صلوات ربى وسلامه عليه : « طوبى لمن أهدى إلى عيوبى » .

ونرى من واجبنا الشرعى أن نجيب على هذا البحث ، لأن تلك قضيتنا فى المقام الأول فلا نترك غيرنا يجيب ونكتفى بالفرجة ، بل لا بد من المساهمة لإثراء الفكر ، وإزالة غبار الجهل عن وجه عقيدتنا السمحة ، فتبهر بنورها البشرية بأسرها .

* بالنسبة لما يدعيه « كاربنتر » من أن الإسلام يضع فى طريق التقدم عقبة كئودا :

نقول له : إن الإسلام هو دين التقدم والحضارة نفسها [1] ، وليس أدل على ذلك من أنه جاء لبدو الجاهلية ، فجعلهم سادة الشعوب والأمم ، ولو رجعت إلى المنصفين من علماء الغرب لعرفت ، أن جامعات الإسلام فى كريت وصقلية وقرطبة ، هى التى أخرجت الغرب من عصور الظلمات التى كان يئن تحت وطأتها ، والإسلام هو الذى علم الغرب أصول الفروسية والاستراتيجية العسكرية المتقدمة ، من خلال الحروب الصليبية وعلمه أرقى المعاملات المالية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، من خلال البلاد التى فتحها ، وصارت شعوبه تخضع لأصول المعاملات الإسلامية ، حتى صارت منهجاً راسخاً فيها ، ومنهلاً لحضارة الغرب فيما بعد .

* إن الإسلام لا يتسم بالجمود ، بل إن تعاليمه هى المرونة نفسها حتى فى أصول العبادات : الصلاة تصح بالوضوء أو التيمم إن تعذر الماء ، وتصح بالوقوف والجلوس ، وحتى الرقود إن كان المسلم مريضاً - والصيام يمكن تركه لذوى الأعذار - والزكاة لمن يتوفر لديه المال ، والحج لمن استطاع إليه سبيلاً .

وفى المعاملات المالية : يضيق المجال عن ضرب الأمثلة ، ويكفى فى مجال الاقتراض مثلاً أن نقول : واجب الكتابة بشهادة اثنين ، فإن لم يتوفر أدوات الكتابة أو الشهود يكفى عن ذلك رهان كضمان للحقوق ، وإلا فدعامة الثقة بين المسلمين وأمانة الكلمة ، ويجب تسجيل كل المعاملات المالية صغيرها وكبيرها ، إلا أن تكون تجارة عن تراض بين الطرفين ، يصعب فيها التسجيل الدقيق - ويجب المهر للمرأة ، إلا أن تطيب به نفسها ، مراعاة لظروف زوجها .

وفى الحكم : الشورى قاعدة أساسية لتمحيص الآراء ، والخروج بأحسن النتائج الممكنة مما يوفر الوقت والجهد والمال ، ويستغل موارد الثروة الاقتصادية أحسن استغلال ممكن .

أبعد هذا كله مرونة ؟ وهذا قطرة من بحار الشريعة الإسلامية ، التى تتسع فى مرونتها إلى أبعد مدى ، بحيث تفيض على العالم أجمع سماحة ويسر وسهولة ، ومبادئ متجددة تلائم كل العصور والأجيال : المهم الاجتهاد الفكرى الواجب شرعاً على أبناء المسلمين ، فإن كان هناك جمود فهو فيهم وليس فى أصول الشريعة .

* إن التعليم الإسلامى ليس محدوداً كما يدعى ، بل الإسلام يدعو إلى النظر فى ملكوت السماوات والأرض ، لاستنباط الأسرار والمعلومات ، التى تجعل الأمة الإسلامية خير أُمة أخرجت للناس ، فالقرآن الذى تسميه محدوداً ، هو نفسه يزخر بعلوم الدنيا والآخرة ، ولو فقهه المسلمون حقاً ، لصاروا قادة للشعوب والأمم .

---

(١) من بحث غير منشور للأستاذة خديجة النبراوى عن عالمية الدعوة الإسلامية مقدم للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

* أما مكانة المرأة فى الإسلام فهى فى أعلى عليين [1] ، ويكفى أن نقول : إن الإسلام هو أول من أعطاها حق الميراث ، وجعل لها المساواة المدنية مع الرجل ، والمساواة الدينية فى أداء العبادات والجزاء الأخروى ، وجعل لها حق الموافقة على زوجها ، وحق المهر ، وحق الرضاعة والفطام ، وحق المشورة فى تربية الأبناء ، وحق الخلع إن تعذرت الحياة الزوجية ، وجعل آلاف الرجال ينسكون نسك امرأة فى الحج ، وهى السيدة هاجر التى حملت على عاتقها تنمية مكة المكرمة من الصفر ، وهى بمفردها ومعها طفل رضيع. واصطفى الله المرأة بتربية رسله ، مثل السيدة مريم التى انفردت بحمل المسيح وتربيته ، وأُم موسى التى تولت رعايته وحمايته من فرعون ، والسيدة خديجة التى ساندت الرسول، وكان لها فضل حماية الدعوة فى مهدها وهى برعم غض ، و . . .

أبعد هذا كله هناك مكانة أسمى للمرأة ، من مكانتها فى شريعة الإسلام ؟ وإذا كان الوضع غير ذلك ، فهذا لقصور فهمنا لشريعتنا ، فلا نعيب بعد ذلك على غيرنا أنه لم يفهمها .

* بالنسبة لنظر العالم الإسلامى إلى الغرب بعين الكراهية والارتياب : وأن مبعث ذلك هو الحسد ، فهذا أبعد شىء عن المنطق ، لأنه إذا كان هناك حقاً بعض الكراهية والارتياب ، فذلك مبعثه ما قاساه العالم الإسلامى من الغرب : من استعمار أراضيه واستنزاف خيراته ، مستغلاً كل الطرق لذلك ، حتى لو كانت الحروب ، مع ما يستتبعها من استنزاف دماء المسلمين ، لا لغرض ، إلا لإرضاء شهوات الأطماع والبغى والعدوان ، وحتى بعد التحرر ، لم يسلم العالم الإسلامى من صور الاستعمار الجديد ، من غزو ثقافى ومؤامرات ودسائس ومعاهدات اقتصادية لصالح الغرب ، مما يزيد من تدهور العالم الإسلامى وتخلفه، ثم يلصقون تلك التهمة بديننا والدين منها براء .

* أما بالنسبة لدعوى أن الإسلام يقوى خطوط التفرقة ويديمها : فذلك بهتان مضلل لأن الإسلام دين الوحدة والجماعة ، وكل شريعته تؤدى فى مجملها إلى تحقيق هذا الغرض، واعترافه بوجود الأقليات ، فهذا معناه أنه دين واقعى سبق التحضر بآلاف السنين، وهو فى حد ذاته يفند دعواه ، بأن الحرية الشخصية الدينية أو السياسية ، لا وجود لها فى النظام الإسلامى ، فالاعتراف بالأقليات وحقوقهم معناه قمة الحرية ، هذا علاوة على أن الحرية هى من دعائم العقيدة الإسلامية ، لأن الله يريد عباداً أقوياء ، متحررين من كل قيود الدنيا وأغلالها ، حتى يستطيعوا أن ينطلقوا فى رحاب الأرض ، يعمروها ويرفعوا الظلم عن كاهل الشعوب المستعبدة ، والتى تئن تحت وطأة قوى البغى والطغيان .

---

(١) من بحث للكاتبة عن دور الإسلام فى تحرير المرأة مقدم إلى هيئة الإغاثة العالمية بجدة .

* أما ادعاؤه بأن الإسلام لا يستطيع خلق ولاء وطنى ، يرتفع فوق الاختلافات الدينية والثقافية ، وبالتالى لا يستطيع أن يوفر مجالاً لقادة ، فهذا ما سنرد عليه بتفصيل أكبر ، فى نقطة خاصة ، تحت عنوان : « مسلمون وقادة إفريقيون » .

● مسلمون وقادة إفريقيون :

إن التكلم عن قادة الإسلام فى تاريخ إفريقيا ، يتطلب مجلدات ضخمة ، فتلك القارة الغنية بثرواتها ، غنية أيضاً برجالها المجاهدين الأبرار ، الذين جاهدوا فى الله حق جهاده لنشر الدعوة الإسلامية ، وسنكتفى بإيراد ثلاثة نماذج من العصر الحديث ، تكون رداً على « كاربنتر » الذى حاول إشاعة روح الإحباط بين المسلمين ، وعلى كل من ينظر إلى الإسلام ، نظرة تتنافى مع روح الإسلام الحقة ، وفى تلك النماذج يتجلى ما يلى :

- أن كل عصر له مجاهدون ، وليس فى العصور الأولى فقط كما يقولون .

- أن العلم هو أساس الإسلام ، الذى يبدد ظلمات الحياة الدنيا .

- أن القرآن هو أعظم العلوم وأشرفها ، وأن كل القادة والمصلحين ، بدأوا بدراسة القرآن وحفظه .

- أن الإسلام يعطى قوة دافعة للإنسان ، لينتصر بها على كل المعوقات ، التى تعترض حياة المؤمن .

- أن هؤلاء القادة المسلمين ، وقفوا كالقلعة الصامدة ، فى وجه كل من تسول له نفسه المساس بالعقيدة الإسلامية .

- أنهم دافعوا عن كرامة المسلمين ، لأن إسلامنا لا يقبل لنا أن نرضى بالدنية ، فى أمور حياتنا .

- تاريخ جهاد القادة يبين بوضوح عداء الغرب لنا ولعقيدتنا ، وأهدافه فى محو هويتنا حتى يسهل عليه استغلال خيراتنا .

أولاً - الداعية المجاهد عثمان بن فودى [1] :

فى غرب إفريقيا شعوب كثيرة تدين بالإسلام ، وتتخذ من اللغة العربية لغة للعلم والثقافة ، وتسعى جاهدة من أجل نشر الإسلام بين القبائل المجاورة ، من هذه الشعوب: قبائل الغولانى (أو الغلبة) التى تنتشر فى شمال نيجيريا ، وجنوبى النيجر ومالى ، والتى ينتمى إليها المجاهد (عثمان بن فودى) .

---

(١) « الإسلام فى غرب إفريقيا » : للأستاذ محمد عباس محمد (ص ٥٣) ، مجلة الوعى الإسلامى العدد (٢٤٣) ، ربيع الأول ١٤٠٥ هـ/ ديسمبر ١٩٨٤م .

والغولانى قوم سمر البشرة ، يشبهون العرب شبهاً شديداً ، يعيش معظمهم على الرعى ويمارس بعض منهم التجارة ، ويمتاز الغولانى بالأنفة واحترام الذات وإباء الضيم ، شأنهم فى ذلك شأن العرب .

ورغم أن للغولانى لغة خاصة بهم ، تسمى لغة « الغولى » إلا أن معظمهم يجيدون اللغة العربية ، التى يتخذونها لغة للدراسة فى مدارسهم ، والقرآن الكريم هو مصدر التشريع لديهم بلا منازع .

ويمتاز الحكام من الغولانى بحب العدل ، والميل إلى الأخذ بالشورى عند البت فى الأمور الهامة ، والشعب من جهة أخرى على قدر عظيم من الثقافة الإسلامية ، تمكنه من التمييز بين الحق والباطل ، والعدل والظلم ، والحلال والحرام .

ومن بين تلك القبائل ، ظهر فى أواخر القرن الثانى عشر للهجرة ، رجل فذ هو عثمان بن محمد فودى ، ولد عثمان فى قرية « طفل » بإمارة جوبير سنة ١١٦٩ هـ ، وكان بيته بيت علم وتقوى ، أسلم أجداده منذ عدة قرون ، وتوارثوا الاشتغال بالعلم وأمور الدين ، فقد تفقه أبوه فى الدين واشتغل بالعلم ، كما اشتغل به بيته كله: زوجته وأولاده وبناته.

نشأ عثمان فى هذه البيئة المتدينة ، فأولع بالعبادة والثقافة الإسلامية ، وأقبل منذ حداثته على علوم العربية يستزيد منها ، ولازم فى صباه عدداً من العلماء ، يدرس عليهم الفقه والحديث ، وكل ما يستطيع من علوم الدين الأخرى ، ولما بلغ مبلغ الرجال ، واتسعت مداركه ، هاله حال المسلمين فى بلاده : فكبارهم يخالطون الوثنيين دون تحرج ، ويقلدهم العامة ، ويتشبهون بهم فى عاداتهم الوثنية ، وقد أفزع عثمان انتشار البدع بين المسلمين وتكالب الخرافة والشعوذة على الدين ، بما يطغى على جوهره ، ويخفى سماحته وروعته .

ولذلك فعندما ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج ، والتقى بتلاميذ الشيخ محمد عبد الوهاب ، تحمس للطريقة الوهابية ، وأيقظت فى نفسه الرغبة الملحة ، فى أن يحارب البدع فى بلاده ، وأن يعلنها ثورة على الفساد مثلهم ، لانتشال مسلمى غرب إفريقيا ، من براثن البدع والخرافات ورذيلتى الخمر والزنا .

وقد بدأ عثمان دعوته ، كما بدأها محمد بن عبد الوهاب ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، هادفاً العودة بالدين الإسلامى إلى أصوله ، ووجدت دعوته استجابة من الناس ، وبدأت حلقات الطلاب الملتفين حوله تتسع بالتدريج ، فأخذ يحث طلابه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذاع صيته ، وتاب على يديه خلق كثير .

ولما تزايد عدد أنصاره ومريديه ، انتقل إلى المرحلة التالية من دعوته ، فبدأ بالاتصال بالأمراء والحكام ، يدعوهم إلى إصلاح أحوال الرعية ، ويحثهم على محاربة البدع فى

بلادهم والاتحاد فيما بينهم لنشر الإسلام ، بين غير المسلمين من القبائل الأخرى ، ولعله كان يريد أن يحقق ما حققه ابن عبد الوهاب من قبل ، بأن يقيم تحالفاً بينه وبين أحد أمراء الحوصة.

من أجل هذا الهدف ، اتجه عثمان إلى أمير « جوبير » فشرح له أصول العقيدة ، واستخلص له الإسلام مما اكتنفه من البدع والخزعبلات ، وطلب منه أن يكون عوناً له على إحياء الدين وإقامة العدل ، فاستجاب الأمير له أول الأمر ، وعهد إليه بالفتوى والإرشاد ، ولكن عندما التف حوله قوم كثيرون ، أوغر ذلك صدر أمير جوبير ، وساورته المخاوف على ملكه لتزايد نفوذه ، فطلب منه الرحيل عن البلاد ، فامتثل لأمره، وانتقل إلى إمارتى « زنفر وكب » ، ولكن تكررت المأساة ، لأن شهوة الحكم تجعل الأمراء يحاربونه ، ويأمرونه بالرحيل عن البلاد ، فلما وجد عثمان أنه قد فشل فى الفوز بمساندة أى أمير من أمراء الحوصة لدعوته ، خرج مهاجراً فى فبراير سنة ١٨٠٦م ، وهاجر معه حشد من أنصاره المخلصين ، واستقروا جميعاً فى أطراف الصحراء ، يعيشون على حياة التقوى والعبادة ، على أن ذلك لم يرض أمراء الحوصة ، وقرروا تضييق الخناق عليه تمهيداً للقضاء عليه وعلى دعوته ، فأخذوا فى ملاحقته أينما حل ، يقطعون الطريق الموصل إلى حلقه ، وينهبون أمواله وأموال أتباعه .

إزاء هذا الخطر الداهم ، لم يجد أتباع عثمان بداً من مبايعته على الجهاد والموت ، فى طاعة الله ورسوله ، ونادوا به أميراً للمؤمنين وتهيأوا للحرب ، واستنفروا أنصار الدعوة فى أنحاء البلاد ، فوجدوا استجابة سريعة ، من عشائر الغولانى المنتشرين فى طول البلاد وعرضها ، وهرع إليه آلاف من أفراد تلك القبائل ، تؤيده وتشد من أزره ، وهكذا اتحدت قبائل الغولانى خلف زعيمها ، وقويت شوكتها بعد أن كانت متفرقة لا وزن لها .

فلما بلغ ذلك أمراء الحوصل ، كونوا حلفاً فيما بينهم ، بزعامة أمير « جوبير » الذى سار على رأس جيش كبير لمحاربة عثمان وأتباعه ، فما كان من عثمان إلا أن أعلن الجهاد رسمياً سنة ١٨٠٦م بادئاً بذلك دوراً جديداً فى حركته الإصلاحية الفتية ، وهو دور الفتح والجهاد .

ونصره الله نصراً عزيزاً مؤزراً ، ولم يكد يحل عام ١٨١٠م إلا وكان قد أخضع إمارات الحوصل كلها لنفوذه ، رافعاً لواء الدين فى المنطقة الشاسعة من غرب إفريقيا ، وقد حرص عثمان على أن يولى على كل إقليم من الأقاليم المفتوحة ، عالماً جليلاً مشهوداً له بالتقوى والورع ، وألزمه بالحكم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ .

وكان الإيمان الشديد يوحد بين صفوف أنصاره ، وتدفعهم الرغبة الملحة فى رفع راية الإسلام إلى طلب الشهادة ، وكانت جيوش الفتح والجهاد ، تقرأ قبل الزحف والجهاد سورة براءة لتقوى من عزائمها ، وقد ظهر طابعهم فى التقشف والزهد منذ اللحظة الأولى.

وكان عثمان على كثرة فتوحاته زاهداً فى السلطة ، لا يطمع فى ملك أو سلطان ، فبعد أن استتب الأمر لدعوته ، قسم الدولة بين ابنه « محمد » وأخيه « عبد الله » ، ولى ابنه على المنطقة الشرقية ، وأخيه على القسم الغربى . أما عثمان نفسه ، فقد قنع بالزعامة الروحية للأمة ، متخذاً من مدينة « سكت » مركزه الروحى .

كان عثمان فى كل أفعاله يصدرها عن غيرة شديدة فى الدين ، تدفعه رغبة ملحة فى إعادة المجتمع الإسلامى إلى أصوله البسيطة ، ويسعى لإصلاح حال المسلمين ، وإعادة حكم الأمة والجماعة ، فكان يشاور أصحابه فى أعماله كلها ، كما التزم خلفاؤه من بعده بنظام البيعة الإسلامية ، وقد دأب عثمان وأتباعه على تبصير الناس بأمور دينهم ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، يحطمون دنان الخمر ، ويكسرون آلات الطرب .

ولم تعتمد حركة عثمان بن محمد فودى فى نشر الإسلام ، على الجهاد وحده ، إنما قاموا بجهود مشكورة لنشر الإسلام بالطرق السلمية ، فكانوا يرسلون المعلمين إلى أقاصى البلاد ، لتعليم الوثنيين مبادئ الإسلام ، كما عمل أتباعه على دفع الحركة الإسلامية إلى الأمام ، فانتشر الإسلام بفضلهم فى جنوب نيجيريا ، وبهذه البلاد اليوم ملايين من المسلمين ، دخلوا فى الدين على نطاق واسع ، بفضل هذه الحركة الإصلاحية العظمى .

ولعل من أبرز منجزات هذه الحركة الدينية الكبرى : إعلاء شأن الثقافة العربية فى غرب إفريقيا ، فقد كانت دعوة تصحبها حركة علمية واسعة ، مبنية على دراسة أصيلة لعلوم القرآن الكريم والسُّنَّة . وقد ألف عثمان بن فودى نفسه نحو عشرين كتاباً منها :

أصول الولاية - إحياء السُّنَّة - بيان البدع - التصوف - علوم المعاملة . . . إلخ .

ثانياً - القائد المجاهد : الأمير عبد القادر الجزائرى [1] :

عندما كانت قوات الاحتلال الفرنسى تهم فى سنة ١٨٣٠م باحتلال الجزائر ، كانت الصور الذهنية التى تتحكم فى هذا الاحتلال ، أن الجزائر أرض فرنسية ، وجزء من العالم الغربى ، اقتطعه العرب عنوة فى فترة الفتوحات الإسلامية ، وأنها الركيزة التى يمكن أن تعتمد عليها الإمبراطورية الفرنسية ، فى هيمنتها على شعوب المنطقة .

ولم تكن قوات الاحتلال ، التى كانت تعمل منذ يومها الأول ، على الاستيطان والإقامة الدائمة بأرض الجزائر ، تضع فى حسبانها بأنها ستواجه بمقاومة عنيفة ، ورفض مطلق وشعب يمتاز عن غيره من شعوب البلاد المستعمرة ، بشخصية قوية صلدة ، تستمد مقوماتها من العقيدة الإسلامية والحضارة العربية ، ومن عادات وتقاليد نابعة من روح هذه العقيدة وتلك الحضارة .

---

(١) من كتاتيب « ابن باديس » إلى جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية ، من العلوم الإسلامية فى مجلة الأمة (ص ٦٨ - ٧٥) ، العدد (٤٩) - السنة الخامسة - محرم ١٤٠٥ هـ/ أكتوبر ١٩٨٤م .

لقد كان الاحتلال الفرنسى ، بالنسبة للشعب الجزائرى ، يمثل حلقة جديدة من حلقات الحروب الصليبية ، ولم تكن المواجهة بالنسبة إليه مواجهة بين عربى وفرنسى ، وإنما هى مواجهة بين المعتقدات الإسلامية من جهة ، والمعتقدات الصليبية من جهة أخرى ، ولذلك فإن الأمير عبد القادر (رحمه الله) لم يكن يريد أن يترك الضمائر والمعتقدات الإسلامية تحت تصرف سلطة صليبية ، وخاصة أن تصريحات كثير من القادة العسكريين ، قد أكدت النوايا الصليبية للاحتلال ، فقد كتب المارشال المعروف (بيجو) سكرتير القائد العسكرى لجيش الاحتلال يقول : « إن أيام الإسلام فى الجزائر أصبحت معدودة ، إن مدينة الجزائر لن يكون لها بعد عشرين سنة من إله إلا المسيح ، وإذا كان هناك من يشك بعد ، فى بقاء هذه الأرض ضمن الملكية الفرنسية ، فمن البديهى أن الإسلام قد خسرها ، إن العرب لن يكونوا لفرنسا ، إلا عندما يصبحون نصرانيين » .

ولذلك لم يكن أمراً مثيراً للدهشة ، أن يضع الكونت « دوبورمون » القائد العام لجيش الاحتلال ، الصليب فى سنة ١٨٣٠م على جامع كتشاوة - إيذاناً بتحويله إلى كاتدرائية - فى الوقت نفسه الذى رفع فيه العلم الفرنسى ، على دار الحكومة فى الجزائر العاصمة .

لقد أدرك المستعمر منذ اللحظات الأولى خطورة الدور الذى تؤديه المساجد والزوايا وما فى حكمها ، فى تغذية الشخصية العربية الإسلامية ، وتوجيه حركة المقاومة ، فلم تكن المساجد والزوايا دوراً لأداء الشعائر فحسب ، وإنما كانت كذلك دوراً للتعليم والتربية وإعداد الرجال المصلحين المجاهدين ، ولذلك كانت غضبته عليها شديدة ، فهدم منها الكثير ، وحول معظم ما تبقى إلى كنائس وكاتدرائيات .

وكان من الطبيعى أن يمتد السعار الاستعمارى ، والحقد الصليبى إلى كتاتيب القرآن ومعاهد التعليم الإسلامية ، تلك المحاضن التى ربت القادة والعلماء والمجاهدين ، وساهمت بصورة أساسية ، فى تكوين وبناء الشخصية العربية والإسلامية للجزائرى ، فحوصرت وضيق عليها ، وأخضع تعليم القرآن منذ سنة ١٨٥٢م إلى رقابة شديدة من قبل السلطات الاستعمارية ، فلم يعد مسموحاً بتعليم القرآن ، إلا بعد الحصول على ترخيص بذلك من السلطات ، وهى نادراً ما كانت توافق على منح الإذن .

كما تم الاستيلاء على الأوقاف ، التى كان يخصص ريعها للكتاتيب وطلبة العلم ، فنضب بذلك أهم مورد مادى للمؤسسات التعليمية ، وبالرغم من ذلك ، لم تتوقف كتاتيب القرآن عن أداء رسالتها ، فقط غيرت مواقعها ، وهاجرت إلى شعب الجبال والمرتفعات ، حيث يصعب على المستعمر الوصول إليها ، والحيلولة دون عملية التواصل الحضارى والإعداد السوى لرجال الجهاد .

وكان عبد القادر بن محيى الدين الملقب (بناصر الدين) فى طليعة هؤلاء الرجال المجاهدين ، حيث بويع فى رمضان سنة ١٢٤٨ هـ الموافق ١٨٣٣م فى مدينة « معسكر » أميراً للبلاد ، وقائداً لحركة الجهاد ، فانطلق من ثم يرسى دعائم دولة إسلامية قوية ، يمكنها الثبات أمام الاحتلال ، فشكل مجلساً وزارياً وآخر شورياً ، وقسم دولته إلى ولايات ، وجعل لها هيكلاً إدارياً تصاعدياً ، فى قاعدته « الشيخ » ، وفى قمته «الخليفة» وهو المسئول مباشرة لدى الأمير .

كان اهتمامه بالجيش والتسليح والتدريب كبيراً ، فأسس المعامل لصنع السيوف والبنادق والمدافع والقذائف ، واستجلب من الخارج مدربين أكفاء لتدريب جنده ، وقد استطاع بجيشه ذلك ، والذي لم يكن يتجاوز فى - عز قوته - خمسة عشر ألفاً ، أن يخوض على مدى ستة عشر عاماً ، حرباً ضروساً وغير متكافئة من حيث العدد والعدة ، مع محتل يزيد عدد جنوده عن تسعين ألفاً ، مزودين بأحدث الأسلحة ، ومدعومين بكل إمكانات وخيرات قوات أوروبا يوم ذلك .

كان « الأمير عبد القادر » عبقرية عسكرية فذة ، اعترف له بذلك أعداؤه المحتلون ، إلا أن تكوينه السليم المتزن ، لم يكن ليقف برجل دولة مثله ، عند حدود الاهتمامات العسكرية، لقد أدرك منذ وقت مبكر ، ضرورة التقاء « **العلم والجهاد** » ، وأن الأمة المجاهدة ، ينبغى أن تكون على قدر من العلم والمعرفة ، وهذا ما يدفعه لأن يفرض على كل « دوار » وحى ، أن يكون به معلم .

وبعد سنوات عامرة بالجهاد ، تمكنت قوات الاحتلال سنة ١٢٦٤ هـ من إلقاء القبض عليه، وإرساله من ثم إلى فرنسا ، حيث بقى أسيراً فى سجونها لخمس سنين ، أطلق سراحه سنة ١٢٦٩ هـ (١٨٥٣م) ، فاتجه إلى « اسطانبول » عاصمة الدولة العثمانية ، واختار مدينة دمشق داراً لإقامته ، إلى أن توفاه الله تعالى يوم الجمعة ١٩ رجب سنة ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م) عن عمر يناهز الستة والسبعين عاماً ، أفناها فى نيل رضى ربه ، فرحمة الله عليه ، وعلى كل المجاهدين أمثاله الذين صاروا على درب الإيمان ، ورفضوا الضيم والهوان فكانوا علامات بارزة لكل من أراد الدين والحياة .

ثالثاً - سيكوتورى الزعيم المسلم [1] :

كان - رحمه الله - نموذجاً رائعاً للمسلم الحق ، عرف معنى الجهاد بالمفهوم العصرى: جهاد العلم ، والثبات على المبدأ ، والتصدى لتيارات الاستعمار الجديد .

---

(١) « سيكوتورى الرجل والمبادى » : د . عبد الودود شلبى ، مجلة الأزهر - الجزء الثامن - السنة السادسة والخمسون ، شعبان ١٤٠٤ هـ/مايو ١٩٨٤م ، توفى الزعيم أحمد سيكوتورى فى يوم ٢٣ من جمادى الآخرة ١٤٠٤ هـ/ ٢٦ مارس ١٩٨٤م .

إنه الرئيس الغينى أحمد سيكوتورى ، ولد فى ٩ يناير ١٩٢٢م فى قرية تسمى «فاراناه» وهى واحدة من بقاع غينيا ، التى يصل عدد سكانها إلى حوالى خمسة مليون نسمة ، منهم خمسة وتسعون فى المائة من المسلمين ، حرص والداه على تعليمه القرآن الكريم واللغة العربية مما كان له أكبر الأثر فى صقل شخصيته الإيمانية .

تدرج فى عدة مناصب ، حتى هيأ له الله السبيل لرئاسة جمهورية غينيا ، بعد إصراره على استقلال بلاده فى عام ١٩٥٨م ، والجهاد لتحقيق ذلك خير جهاد ، وقد ذاع صيت هذا الزعيم المسلم ، بعد رفضه شروط الجنرال ديجول ، الذى حاول احتواء المستعمرات الفرنسية بعد الاستقلال ، فى إطار ما يسمى بالمجموعة الفرنسية ، أو رابطة المتكلمين بهذه اللغة ، نظير مساعدات مالية وثقافية وعلمية ، تقدمها فرنسا لهذه المستعمرات بعد استقلالها .

لقد رأى الزعيم سيكوتورى ، أن هذه محاولة لدخول فرنسا إلى المستعمرات من النافذة، بعد أن طردت من الباب ، بعد فترة جهاد طويلة ، فرفض كل هذه الإغراءات بقوة ، وآثر لنفسه وشعبه الحرمان والجوع ، على التساهل قيد أنملة فى الكرامة الوطنية . وقال كلمته المشهورة : « إننا نفضل الفقر مع الحرية على الغنى مع الذل والعبودية » ، وكان هذا الموقف الأبى من الزعيم المسلم ، صفعة لفرنسا ، فبدأت تشن حملاتها الدعائية ضده ، وتلصق بحركته ودعوته أشنع تهمة ، فكان اتهامه بالشيوعية ، جزءاً لا يتجزأ من حملة العداء والكراهية .

وفى مجال الفكر السياسى ، كان للزعيم الراحل أحمد سيكوتورى ، اجتهادات عديدة تعبر عن نظريته فى الثورة والعمل السياسى والأحزاب ، والسياسات الاقتصادية والعلاقات الدولية ومن أقواله فى هذا الشأن :

- متى توقف المرء عن إقامة العدل لم يعد مسلماً .

- الحكومة المسلمة تنادى بالاستقلال وترفض الاستعمار ، وتعمل من أجل الحرية وتطبيق العدالة ومكافحة الفساد .

كانت أفكار سيكوتورى تدور حول نقطة واحدة ، أو محور واحد هو : « جماعية الإسلام » ، فليس المسلم فرداً ، بل عضواً فى جماعة ، وألّف كتاباً عن ذلك أسماه : «الإسلام دين الجماعة» .

وهو يرى فكرة الجماعة هذه فى شعائر الإسلام كلها : فهو يراها فى فاتحة الكتاب الكريم ، حين يتلو قوله تعالى : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ ، فذلك إعلان جماعى ، يلغى كل إحساس بالذات فى إطار المجموع ، كما يجدها فى كل عبادات الإسلام ، من

صلاة وصيام وزكاة وحج ، ففيها يقترب المسلم من أخيه المسلم ، بجسده وفكره وعواطفه وحسه عملاً بقول الرسول ﷺ : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً » رواه البخارى .

ذلك هو تاريخ الإسلام فى إفريقيا ، إنه نبض الشعوب ووقع خطواتها فى الحياة وجهادها من أجل عقيدة غالية آمنت بها ، فدافعت عنها بصدق وإخلاص ، وحمل المسلمون لواء الدعوة الإسلامية ، بكل الفخر والاعتزاز ، وجابوا به أقطار القارة ، داعين إلى دين التوحيد ، راغبين فى تحرير أقرانهم ، من ذل الشرك وظلمات الجاهلية .

فليعلم كل مسلم أنه بإخلاصه لله ، وإتقانه للعمل ، وترجمة معانى القرآن إلى أسلوب حياة واقعى ، إنما يخط صفحات التاريخ الإسلامى بحروف من نور ، والعكس صحيح ، فلا يستهين كل منا بعمله ، لأن كل صغيرة وكبيرة ستسجل لا محالة ، مرة فى صحف الدنيا ، ومرة فى صحف الآخرة ، فلنع ذلك جيداً ، لأن الذكر للإنسان عمر ثان، ومجد الأمم وعزها ، فيما يسجله أبناؤها ، من صفحات حرة خالدة .

وإننى أنتهز تلك الفرصة ، لأرسل دعوة مخلصة من الأعماق ، لكل المسلمين فى بقاع الأرض ، أن يعيدوا كتابة تاريخهم بروح عقائدية مثابرة ، وعقول متفتحة واعية ، فإن لم يستطع جميعهم ذلك ، فلتنفر منهم طائفة مخلصة ، تحمل على عاتقها تلك المهمة الإيمانية، وعلى الباقين أن يقرأوا التاريخ بقلوب صافية ، تعرف كيف تميز الخبيث من الطيب ، فترفض ما يتنافى مع مواقف الرجولة الإسلامية الحقة ، وتوقن أن تلك دسائس الحاقدين لزلزلة عظمة العقيدة الشامخة ، فى قلوب ونفوس المسلمين ، الذين لايظنون بأنفسهم خيراً ، ولا بإخوانهم الذين سبقوهم بإيمان ، وهذا يتنافى مع أساسيات الأوامر الإلهية ، فى قوله تعالى: ﴿ **لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين**﴾[1] .

فاللهم ألهمنا الرشد ، فى تمحيص تاريخنا ، وإظهار عظمة رجالنا ، لأن فى ذلك عظمة ديننا وأوطاننا .

* * *

(١) النور : ١٢ .

الفصل الرابع
المسلمون والاستعمار الأوروبى لإفريقيا

● قدرة الإسلام على مواجهة التحديات

إذا كنا تكلمنا فى الفصل السابق ، عن المراحل التى مر بها الإسلام ، فى جميع أقطار إفريقيا ، وهى : دور التهيؤ (التكوين) - دور الازدهار - دور الإصلاح .

فإننا سنتكلم فى هذا الفصل عن دور الانحطاط ، الذى مر به المسلمون بعد الاستعمار الأوروبى لإفريقيا ، ومقاومة الحركات الثورية حتى أخمدت أنفاسها ، ومعاول الهدم التى وجهها الاستعمار إلى العقيدة الإسلامية ، نتيجة توليه السلطة وزمام الأمور فى الدول التى احتلها . . وحتى بعد أن تحررت تلك الدول ، فما زالت تعانى من أنواع التبعية المختلفة، وما زالت العقيدة تئن تحت هجمات حملات التنصير ، والوجود الإسرائيلى الحاقد على الإسلام ، وغياب الترابط الإسلامى ، القائم على الوعى بوحدة المصير ، ووحدة الوجدان ووحدة الهدف .

ولولا ما تحمله العقيدة الإسلامية فى أركانها من عناصر البقاء ، والقدرة على مواجهة تحديات الحياة ، لاندثرت تلك العقيدة من أنحاء إفريقيا ، أمام كل تلك المؤامرات والدسائس التى توجه ضدها ، وتنفق الأموال الطائلة فى سبيل القضاء عليها ، ثم ينتشر نور الإسلام فى ظروف متناهية فى صعوبتها وقسوتها ، ويتعجب الباحثون الغربيون ، ويحاولون دراسة كل الأسباب المؤدية لذلك ، حتى يمكنهم وقف المد الإسلامى ، ونشر المسيحية ، مهما كلفهم ذلك ، من بذل مزيد من الأموال فى عمليات التبشير ، من إنشاء المدارس والمستشفيات .

ومهما درسوا من أسباب ، وأنفقوا من أموال ، فلن يحققوا مرادهم ، من غلبة أهوائهم وأطماعهم ، لأنهم من جهلهم ، لم يوقنوا بقول الحق الذى حكم ، وحكمه العدل الفصل :

﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ [١] .

● لماذا حكم الله عليهم بذلك ؟

لأنهم لا ينفقونها لإرساء دعائم العدل والحق ،وكل المبادئ النبيلة والقيم السامية ، بل

---

(١) الأنفال : ٣٦ .

ينفقونها لأنها ستدر عليهم عائداً أكبر ومنافع أعم ، مهما ارتكبوا من جرائم فى حق البشرية فى سبيل تحقيق تلك الأطماع ، ومهما أدى ذلك إلى انحطاط الشعوب ، وتجريدها من حقها فى استغلال أرضها ، والاعتزاز بعقيدتها وكرامتها ، وكل أنواع الظلم حتى بلغ بهم الأمر أنهم نادوا بتجارة الرقيق ، لمواجهة نفقات التنصير ، وكونوا مجموعات نسائية نصرانية ذات نشاط ملحوظ ، لأن الرجل الإفريقى يميل إلى المرأة الأوروبية ، أكثر من الرجل الأوروبى ، وبالتالى تكون قدرتها على الاستمالة أكبر [١] !! وهذا ما تأباه شريعة الإسلام فالمسلمون يدعون إلى دين الله ، حباً فى البشرية ، وإنكاراً لمصالحهم الذاتية ، لأنهم عشقوا مصلحة أسمى وأنبل من تلك المصلحة ، حيث هفت أرواحهم إلى الملأ الأعلى ، والدار الآخرة ، فتضاءلت أمام أعينهم إغراءات الدنيا ، وأبت نفوسهم كل معانى الضيم واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، وكل معانى الرذيلة والفجور .

وهذا سر بقاء الإسلام وخلوده على مر الزمان ، مهما واجه من تحديات قوى البغى والعدوان ، وإذا أراد مسلمو إفريقيا وغير إفريقيا الرقى الحقيقى ، والتقدم والحضارة لبلادهم ، فعليهم أن يعطوا الإسلام حقه : فيكون هو منهاجهم وشريعتهم وسلوكهم فى حياتهم ، هنا فقط سيبدلهم الله خيراً مما أخذ منهم ، ويعيد لهم مجدهم وحضارتهم ، عندما كانوا مسلمين حقاً .

فلا تصدق الأجيال الحاضرة كذب الغربيين ، أنهم جاءوا لتحقيق التقدم لإفريقيا ، والأخذ بيدها من براثن التخلف ، التى أوقعها فيها الإسلام ، فهذا كذب وافتراء ، فالإفريقيون تذوقوا معنى الحضارة الحقة ، والسيادة على أرضهم ، والرقى فى حياتهم ، عندموا عرفوا الإسلام حق معرفته ، وما أصابهم من انحطاط ، إنما جاء نتيجة تهاونهم فى دينهم ، واستسلامهم لمعاول هدم المستعمرين الغربيين ، الذين وضعوا فى أهدافهم الأساسية ، القضاء على حضارة المسلمين ، بالقضاء على عقيدتهم ، لأن الإسلام سر الحياة وروح التقدم والحضارة .

ولتأكيد كلامنا هذا : سنتكلم عن نماذج لحضارة إفريقيا الإسلامية ، قبل الغزو الأوروبى لنضع الموازين فى نصابها ، حتى تستعيد الشعوب الإسلامية وعيها ، وتعلم علم اليقين ، أن عزها ومجدها فى التمسك بدينها .

● نموذج لحضارة إفريقيا الإسلامية قبل الغزو الأوروبى :

قبل ذكر تلك الحضارة ، التى ازدهرت فى أقطار إفريقيا الإسلامية ، لا بد أن نعرف مفهوم الحضارة الإسلامية وسماتها [٢] .

---

(١) « التبشير النصرانى فى غرب إفريقيا » : بابكر محمد قدرمارى ، مجلة الأمة (ص ٤٤ - ٤٩)، العدد (٤٤) - السنة الرابعة - شعبان ١٤٠٤ هـ/ مايو ١٩٨٤م .

(٢) ندوة عن « الحضارة الإسلامية من مهدها العربى إلى آفاقها العالمية » تمت فى الكويت فى الفترة =

* **مفهوم الحضارة الإسلامية** : الحضارة هى بناء فكرى ومادى وروحى ، وهى نتاج جهد ودأب متواصلين ، وحصيلة كشف وإبداع متلاحقين ، ولكل حضارة شخصية متميزة ذات سمات أساسية ، ترجع إلى الفكرة أو المبدأ الذى تتبناه ، والظروف التى تلابس نشأتها، والحضارة الإسلامية لا تظهر بكامل معناها ، فى الانتشار الأفقى السياسى للفتوحات ، ولا فى ألوان التعبير المادية عنها ، ولكنها تأخذ تجليها الكامل ، فيما أحدثته من تغيير فى الإنسان والمجتمعات ، التى ألقت بظلالها عليها ، إن حضارة الإسلام فى جوهرها هى حضارة « الدعوة إلى الله » ، أى حضارة تغيير الإنسان ، باحتوائه ضمن نظام الإسلام الشامل ، بجوانبه جميعاً : النظام السياسى ، والنظام الاقتصادى ، والنظام التشريعى ، والنظام الاجتماعى .

* **السمات الأساسية للحضارة الإسلامية** :

١ - إنها حضارة ربانية ، فأساس الإسلام الإيمان بالمصدر الإلهى للدين ، وأن القرآن وحى الله إلى رسوله محمد ﷺ .

٢ - وهى حضارة « الانفتاح » على الحضارات الأخرى ، تتقبل التراث الإنسانى وتضيف إليه .

٣ - وهى كذلك حضارة إنسانية لا عنصرية فيها ، بل الناس سواسية ، وهى تهدف إلى رفعة الإنسان .

٤ - كما أن أساس الإقناع فيها هو الدليل العقلى ، والقرآن هو المعجزة الباقية ، بعد أن انتهى عهد المعجزة الكونية .

٥ - وهى حضارة « الامتداد » ، امتداد بشرى : فهى تضم أجناساً بشرية متنوعة ، وامتداد فى المكان ، وامتداد فى العمق ، فقد ظلت ثقافتها وحضارتها ، متمتعة بالحيوية والنشاط .

٦ - والإسلام ينظر إلى الكون على أنه « صديق » وما فيه هو مجال واسع للبحث والتأمل ، مما يبتعث فى الإنسان كوامن الإبداع .

٧ - ولذلك كان للحضارة الإسلامية موقف رائع من العلم والمعرفة : فقد رغبت فيهما وحررت عقل الإنسان ، وحفزته إلى البحث فى آيات الله ، وتنافس فى تشجيع العلم وإكرام العلماء : الخلفاء والأمراء .

= من ٢٤ - ٢٧ ربيع الأول ١٤٠٥ هـ الموافق ١٧ - ٢٠ ديسمبر ١٩٨٤م ، وذكرت فى مجلة الوعى الإسلامى (ص ٩٤ - ١٠٥) العدد (٢٤٥) جمادى الأولى ١٤٠٥ هـ/ يناير ، فبراير ١٩٨٥م .

٨ - والاجتهاد من أبرز هذه السمات أيضاً ، وبذلك كفل لهذه الحضارة حيوية ونماء دائبين .

من هذا المفهوم للحضارة الإسلامية نعرض نموذج لحضارة إفريقيا الإسلامية قبل الغزو الأوروبى :

غرب إفريقيا أو بلاد السودان [١] :

سميت بلاد السودان كما عرفها الكتاب العرب والمؤرخون ، أمثال ابن حوقل والبكرى وابن خردادية والأصطخرى وغيرهم ، وهى مشتقة من لفظ السود ، وتعرف جغرافيا باسم الحزام السودانى الممتد من قلب القارة الإفريقية ، من البحر الأحمر والمحيط الهندى شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً .

وقد اخترنا تلك المنطقة لعدة أسباب :

١ - إن تاريخ شمال القارة وحضارته معروف ومشهور ، نظراً لأنه ينتمى إلى الوطن العربى .

٢ - إن تلك المنطقة هى قلب القارة النابض ، وأى تأثير فيها صدى للشمال وموصلاً إلى الجنوب .

٣ - إن تاريخ تلك المنطقة فى حاجة إلى بلورة وإبراز ، كنموذج راق للحضارة الإسلامية وتأثيرها على بقية أجزاء القارة الإفريقية .

٤ - إنها تشمل مساحة كبيرة من قارة إفريقيا ، وبالتالى تكون رداً واضحاً على مزاعم الغرب الذى يدعى أنه جاء لينقذ إفريقيا من جمود الإسلام إلى تقدم الغرب ، وفى الحقيقة أنه هو الذى أخرجها من نور الإسلام إلى ظلمات الجهل والجوع ، وأودى بها إلى جميع ما تعانيه من مشكلات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية .

٥ - إن بها مدينة تنبكت التى أصبحت طوال القرن ١٥ ، ١٦ من المراكز الثقافية العالمية وعلماؤها يبارون علماء المدارس الإسلامية الأخرى فى القوة والإنتاج ، وامتدت هذه النهضة إلى سنار وإلى هرر ومقدشو وكلوة وزنجبار ، وغيرها من مراكز الإسلام فى إفريقيا [٢] .

وتنقسم بلاد السودان إلى ثلاثة أقسام ، وقد قامت فى هذه الأقسام الثلاثة عدة

---

(١) « حركة المد الإسلامى فى غربى إفريقيا » (ص ٦٢)) ، د . عبد الفتاح مقلد الغنيمى - مكتبة نهضة الشرق - جامعة القاهرة .

(٢) « الإسلام والثقافة العربية » (ص ١٨) : د . حسن أحمد محمود ، دار الفكر العربى .

إمبراطوريات وسلطنات إسلامية لعبت ، دوراً هاماً وبارزاً فى عالم القوة الإفريقية ، وفى عالم الشرق الإسلامى .

(أ) السودان الغربى - غرب القارة [1] :

توصف الإمبراطوريات والسلطنات ، التى قامت فى ذلك الجزء من بلاد السودان بإمبراطوريات السفانا وهى : غانا ، مالى ، سنغاى ، التكرور ، الهوسا ، الفولانى ، برنو ، وهى تصل فى حدودها إلى الشرق قليلاً من بحيرة تشاد ، وقد بلغت هذه الدول والإمبراطوريات درجة عالية من الرقى والتقدم ، وقامت بينها وبين البلاد الإسلامية علاقات وطيدة ، وصلات دائمة ووثيقة ، وهى ما نقصد إليه فى هذا العرض .

(ب) السودان الأوسط :

فى ذلك الجزء من بلاد السودان ، قامت إمبراطوريات وسلطنات إسلامية ، كان لها دور بارز فى نشر الإسلام وحضارته العربية الإسلامية ، وهى إمبراطوريات كانم وسلطنة البولالا ووداى وباجرمى ، وهذه الدول قامت بها حضارة واحدة ومتطورة ، بالقياس إلى الأجزاء الجنوبية من القارة ، وارتبطت بعلاقات من الود والإخاء مع مصر والسودان الشرقى وشمال إفريقيا ، وكذلك مع باقى بلاد الشرق الأوسط الإسلامى ، ومع دول غرب القارة .

(جـ) السودان الشرقى :

وهذا القسم يشمل الجزء الممتد من واداى غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً ، ومن جنوب بلاد النوبة فى منطقة النيل الأبيض ، ويشمل منطقة النيل ، وهو ما يعرف اليوم بسودان وادى النيل ، وقامت به سلطنات إسلامية عربية ، امتدت عبر هذا الإقليم ، وهى سلطنات العبدلاب والفونج والفور كردفان ، سنار دارفور . وقد ساعدت فى ذلك الجزء حضارة الإسلام وعقيدته الخالدة ، وذلك بسبب انتشار القبائل العربية على نطاق واسع ، وهى القبائل الوافدة من الحجاز ومصر وبلاد الشمال الإفريقى ، ومن غرب القارة أيضاً .

● أثر الإسلام :

لقد كان لوصول الإسلام ، على أيدى القبائل العربية المهاجرة والرعاة والتجار ، سبباً فى انتقال هذه البلاد من مرحلة البدائية وعصور الجهل والظلام إلى عصر التقدم والازدهار وانتشاره بين شعوب تلك الأقطار ، وتعمقه فى نفوس تلك الشعوب ، وذلك لأن معظم سكان الحزام السودانى ، قد اعتنق الإسلام بحماس شديد ، وعن طريق الإسلام ، دخل قدر كبير من المدنية والعلوم الإسلامية ، بجانب مظاهر الحياة الشرقية الإسلامية ، والحق يقال : إن العصر الذهبى فى تاريخ إفريقيا الحضارى ، يبدأ بانتشار الإسلام وحضارته الزاهرة .

---

(١) « الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا » . د. حسن أحمد محمود - دار الفكر العربى .

ذلك لأن الإسلام هو الذى أمد هذه البلاد بالمعارف المختلفة ، من آداب وعلوم وفنون مختلفة ، وقامت علاقات قوية ومتنوعة ومتطورة بين هذه الإمبراطوريات ، وبين البلاد الإسلامية ، وخاصة البلاد العربية فى القارة الإفريقية ، وقد ساعد ذلك على سيادة مظاهر الحضارة الإسلامية ، وطبع التقاليد والعادات الشرقية الإسلامية ، كما استقر فى تلك الدول عدد كبير من العرب والبربر المسلمين ، وكل هذه العوامل ساعدت على أن تنتشر فى البلاد ، المدارس والمعاهد والجامعات الإسلامية ، ويزداد قدوم العلماء والفقهاء وأهل الرأي والمشورة ، وحفلت بلاد السودان الغربى ، بالآلاف من العلماء الوطنيين والمتوطنين، ومن الرحالة المسلمين ، من شتى بقاع العالم الإسلامى ، من الشرق من وادى النيل بصفة خاصة ومن بلاد المغرب العربى .

ولقد كان الإسلام وحضارته العربية الإسلامية الراقية ، سبباً فى ظهور القارة السوداء بمظهر القوة والعظمة والرقى ، فى ذلك الجزء الذى لم يسمع العالم الغربى عنه شىء ، إلا بعد ظهور هذه البقاع بمظهر إسلامى ، إذ أن بالإسلام ولغته الخالدة القرآن الكريم وحضارته ، تقدمت غرب إفريقيا فى شتى المجالات ، وفى كثير من مظاهر الحياة المختلفة، وتطورت تطوراً بالغ الشأن فى ميدان الحضارة والمدنية .

● ازدهار الحضارة الإسلامية :

لقد بدأ الإسلام يستقر فى تلك الأنحاء ، وينشر على نطاق واسع ، منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، ولكن ابن عبد الحكم يقول : إن الإسلام بدأ يأخذ طريقه إلى هذه البلاد فى القرن التاسع الميلادى - الثالث الهجرى ، وإن كانت كثيراً من المصادر ترجع انتشار الإسلام ، إلى القرن الأول الهجرى - السابع الميلادى ، وتستدل على ذلك ، بأن عقبة ابن نافع بعد أن تم فتح بلاد المغرب ، فإنه بعث بحملة استكشافية صغيرة ، إلى بلاد غرب إفريقيا ، حيث قدومه لأول مرة إلى القيروان .

ولقد كان الإسلام سبباً فى ازدهار المراكز الإسلامية الحضارية فى هذه الأماكن ، وهى وحدها التى ازدهرت فيها الحياة بشكل بارز ، وأعطت البلاد طابعها الإفريقى الإسلامى ومواصلة رسالتها الثقافية والإسلامية ، وقد ساعدت هذه المراكز على ازدهار العلوم الإسلامية ، بل إن هذه المراكز الهامة ، أصبحت ذات مكانة بارزة ، فى مجالات العلوم والثقافة والدين والتجارة ، وكان يفد إليها العلماء والفقهاء والصالحون من كل صوب ، وأصبحت تلك المدن الإسلامية ، المنتشرة فى تلك المنطقة ، من المحيط الهندى شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، مدناً عظيمة الشأن ما دنستها عبادة الأوثان ، وما سجد على أديمها قط لغير الرحمن ، وأصبحت مدناً إسلامية خالصة ، وصارت مأوى العلماء العابدين ، ومألف الأولياء والزاهدين .

وأصبح أهل غرب القارة أهل علم ومودة وفكر ، بل إنه شهد لهم بالذكاء المتقد ، وظهر عندهم رجال ، حملوا المواهب والتخصصات فى شتى فروع المعرفة الإنسانية ، المعروفة فى ذلك الوقت .

ولقد كانت المعارف فى هذه البلاد ، عبارة عن صورة طبق الأصل ، لما فى بلدان المغرب العربى ومصر ، فالمعلومات التى يتدارسها الفقهاء ويشيعونها بين الملأ ، والمفاهيم التى كانت تملأ عقول المسلمين ، كانت كلها هى نفس المعارف والمعلومات والمفاهيم ،التى عرفها العالم الإسلامى فى الشرق ، سواء فى الفلسفة أو الرياضيات أو المعارف الهامة .

ولقد سافر عدد كبير من الوطنيين الأفارقة ، سكان تلك الأنحاء ، إلى الشرق الإسلامى فى طلب العلم ، وللتزود بالمعارف الإسلامية ، فرحلوا إلى الأزهر الشريف والقيروان وفاس وبغداد ودمشق ، كما رحلوا إلى مكة المكرمة ، وذلك لتأدية فريضة الحج بأعداد كبيرة ، وذلك لأن أهل السودان ، وملوك تلك البلاد وأمرائها ، قد حرصوا على تأدية فريضة الحج ، وكان الملوك يقومون بجمع عدد كبير من العلماء والأعيان فى مواكبهم وأنهم كانوا ينفقون الكثير من الصدقات على فقراء مكة والمدينة ، ويقيمون المساكن التى يأوى إليها سكان بلاد غرب القارة .

كذلك أرسل العرب العلماء والدعاة والفقهاء ، وسافر التجار ورجال القوافل ، للقبائل الزنجية الإفريقية ، لنشر العقيدة الإسلامية الصحيحة ، وبفضل ذلك نشطت الاتصالات الثقافية والاقتصادية والسياسية ، بين بلاد السودان وبلاد العالم الإسلامى ، وبذلك نهضت مراكز العلم والثقافة بتلك البلاد ، وأدى ذلك كله إلى شهرة المدن الإفريقية ، حتى أن تلك الشهرة قد جاوزت حدود العالم الإسلامى والشرقى ، وبدأ العالم الخارجى فى أوروبا يسمع عن هذه المدن الإفريقية ، والحواضر العلمية ، ذات السمعة العلمية الرفيعة ، والمكانة السامية فى قلوب الأفارقة ، مثل تمبكتو وجنى وغاو وأدغست وكانو وكوكو وبرنى ، ونجيمى كومبى صالح وولاته ، والتى قامت بها حضارة إسلامية زاهرة ، فاقت حضارة معظم بلاد أوروبا المعاصرة فى ذلك الوقت ، إذ كانت هذه المدن الإفريقية، على صلة وثيقة بأرقى الحضارات الإنسانية المعاصرة ، إذ دلت المصادر العربية والإسلامية، على أن البلاد الإسلامية ، ولا سيما بلاد الشمال الإفريقى والأندلس ومصر ، كانت السوق الرائجة لسلع غرب إفريقيا ، وهو ما زاد فى ارتباطها بأرقى الحضارات الإسلامية ، إذ كان هذا الارتباط وتلك الصلات سبباً فى تقدم الإسلام والمسلمين فى تلك البلاد .

فلقد أدت الاحتكاكات الحضارية ، والاتصالات العلمية ، والزيارات التى حدثت من هنا ومن هناك ، بين العرب وأهل غرب القارة ، ثم ما حدث من التوافق والتزاوج والانصهار بين العرب النازحين الذين استقروا فى هذه الجهات ، أن أصبحت الآثار العربية والإسلامية فى شتى المناطق ، ولا سيما بعد أن تمسك السكان بالإسلام عقيدة وممارسة ،

وصارت حضارة غرب القارة مزدهرة ، واندماج حضارة المهاجرين الذين وفدوا من الشرق والشمال ، مع الحضارة الإسلامية لأهل البلاد ، وكان السلاطين قد استقدموا من القاهرة عدداً كبيراً من العلماء ، أثناء فترة حجهم ، ذلك بالإضافة إلى أولئك الكثيرى العدد الذين وفدوا مع حجاج التكرور ، حيث بقوا فى تلك البلاد يؤدون أقدس واجب وأعظم عمل من أجل نشر العقيدة الإسلامية ، وقد ساهمت التجارة بجانب كبير من الصلات بين الطرفين ، إذ كان لها الدور الفعال فى انتقال التجار والتجارة ، وشق الطريق للمسافرين الذين يسافرون مع القوافل التجارية ، وكذلك نجد أن كثيراً من العلماء والفقهاء والطلاب وطلاب المعرفة والحج والمجاورة فى بيت الله الحرام ، يسافرون مع القوافل التجارية المستمرة فى التنقل بين تلك البلاد ، وهذا قد ساعد على تدعيم الصلة وتعميق الرابطة الإسلامية .

● اللغة العربية والحركة الفكرية [1] :

لقد صار المسلمون من أهل غرب إفريقيا حفظة للقرآن الكريم يتلونه فى صلواتهم ، ويستمتعون بحلاوة تركيبه ، ووقع كلماته على القلب والعقل ، وأصبح بذلك المسلمون أول من يتعلم اللغة العربية ، وكان ذلك من أقوى أسباب القياس الحضارى ، الذى حدث من جانب بلاد السودان مع العالم الإسلامى فى شتى الوجوه ، إذ أن اللغة العربية بدأت تأخذ مكانها ، حتى أصبحت لغة جديدة ، لمجتمع إسلامى جديد ، وقد زادها الزمن رسوخاً بمروره ، وزاد النشاط العلمى والفكرى ، وشجع الملوك والأمراء ، العلماء والأدباء وقربوهم إليهم ، وصار النشاط العلمى واسعاً وكانت اللغة العربية أداته .

ولقد كانت جميع أنواع المعارف تدرس وتستوعب ، وتناقش بواسطة اللغة العربية ، وكانت هذه اللغة هى لغة الكتابة الرسمية والثقافية على السواء ، غير أن التدريس للعامة في المساجد كانت تستعمل فيه اللغات المحلية ، وهذا يؤكد أن اللغة العربية لم تمح وتحجب نهائياً ، لغة أو لهجات أهل السودان المحلية ، ولكنها عايشتها وعاشت معها ، إذ أن الأهالى كانوا فى معظم وأغلب الأحيان يتكلمون اللغة العربية ، بالإضافة إلى لغتهم الأصلية .

وقد حفظ ديوان الإنشاء المصرى القلقشندى صبح الأعشى ، صوراً من نماذج مكاتبات الملوك والأمراء فى غرب القارة ، ورد هؤلاء الملوك كان دائماً باللغة العربية ، ومن ذلك يتبين لنا مكانة اللغة العربية لدى السكان ، وكذلك مكانة الثقافة العربية الإسلامية فى هذه البلاد ، وبذلك أصبحت اللغة العربية الإسلامية لغة الدين والدواوين ، وامتد أثرها

(١) « الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا » . مرجع سابق .

وفضلها ، إلى مجالات أخرى فى السياسة والتجارة ، وهكذا أخذت حركة التعريب تنتشر فى شتى المناطق والأماكن ، التى يعيش بها المسلمون ، وبدأت تنتشر بين الأهالى، وذلك بعد أن أحاط حكام البلاد أنفسهم ، بعدد كبير من كتاب اللغة العربية ، التى أصبحت لغة الدولة الرسمية ، ولغة المراسلات مع العالم الإسلامى ، أما دروس الوعظ والإرشاد فى المساجد ، فكان القائم بها يتلو آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية باللغة العربية ، ثم يفسرها للناس بلهجاتهم المحلية ليفهموها .

هكذا عاشت منطقة غرب إفريقيا عصر مجال المعرفة والحضارة ، كما فى بلاد الشرق الإسلامى ، وأن هذا لم يتحقق إلا بتأثير الإسلام واللغة العربية ، والذى ساعد على انتشار اللغة العربية ، هو تمسك شعوب غرب إفريقيا بالدين الإسلامى ، وحرص الأهالى على تعلم وتعليم القرآن الكريم وتحفيظه للصبية ، وهم فى سن صغيرة ومبكرة ، وقد شهد بذلك ابن بطوطة ، كذلك انتشرت المساجد والكتاتيب فى طول البلاد وعرضها ، وقام الشعب العربى الإفريقى ببناء المساجد الكبيرة والفسيحة ذات المنارات العالية ، وجاء إلى بلادهم الفقهاء ، الذين كانوا يدرسون على مذاهب الإمام مالك بن أنس ، إمام دار الهجرة .

وتمتع العلماء بمكانة سامية لدى الحكام والأمراء ، وارتفعت مكانتهم وعظمتهم لدى الشعوب الإفريقية ، حيث كان العلماء يتولون أعظم المناصب وأجلها ، وأكثرها حساسية فى الدولة ، ومنها القضاء الذى لم يكن يقبل عليه إلا ذو السمعة الطيبة والنزاهة والعدل وإن كان كثيراً منهم يتولى القضاء ، بجانب أعمال الوعظ والإرشاد والإمامة والتدريس والفتوى ، وكل الأمور الهامة بالبلاد ، بالإضافة إلى القيام بأعمال التدريس فى المعاهد والمدارس والجامعات التى انتشرت فى البلاد .

ولقد تطورت الحركة الفكرية ، فى الأدب والتاريخ والعلوم الشرعية والإسلامية واللغة العربية ، فمن الناحية الأدبية : لم يكن للأفارقة قبل قدوم الإسلام أدب مكتوب ، سوى بعض الروايات المحلية ، التى تروى مشافهة ، وتنتقل من جيل إلى جيل بالمشافهة ، ولكن لما جاء الإسلام واعتنقه الأفارقة وانتشر فى بلادهم على نطاق واسع ، تمكنت الشعوب الإفريقية من استيعاب مفاهيم الإسلام ، وبفعل الاحتكاك بالعرب والمسلمين ، تمكنوا من دراسة اللغة العربية ، ودراسة كل العلوم الإسلامية ، وظهر منهم العلماء والأدباء والفقهاء والشعراء ، وأصبحوا ينتجون إنتاجهم العلمى ، الذى كان سائداً فى الشرق العربى بل والمغرب ، كذلك ظهرت كتابات كثيرة إفريقية باللغة العربية ، وازدهرت حركة العلوم والفنون والعمارة فى بلادهم .

ومن أبناء السودان الغربى والأوسط ، الذين انتشرت مؤلفاتهم على نطاق واسع ، بل طبعت أكثر من طبعة ، وفى أكثر من مكان ، ولا زالت متداولة حتى اليوم بين أيدى

الباحثين ، الذين يعتمدون عليها عند الحديث عن هذه المنطقة ، والذين منهم ، أحمد بابا التمبكى ، وأهم مؤلفاته : « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » وهو فى تراجم المالكية ، و«كفاية المنهاج بتطريز الديباج» و « معراج الصعود فى حكم مجلوب السود » ، كما أن له مؤلفات عديدة فى الفقه والتوحيد والنحو والتاريخ ، وبعضها لا زال مخطوطاً فى كثير من المكتبات العالمية ، وآخر فُقِد عندما نفى هذا الرجل من بلاده سنغاى ، حيث كان يعيش فى تمبكتو ، وقد ذكر عن نفسه : أن الكتب التى ضاعت منه تقدر بحوالى ١٦٠٠ كتاب ومجلد.

ومن علماء غرب إفريقيا كذلك ، عبد الرحمن السعدى ، صاحب كتاب « تاريخ السودان » ومحمود كعت التميكتى ، صاحب كتاب « تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكبر الناس ، وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار » ، كذلك أحمد بابا والد المؤلف السابق ذكره ، ومحمد براهو بورهو ، وأبو حفص عمر ، وأحمد ابن فرطو ، ومحمد بلو ، وعثمان مسابرما ، وغيرهم من أبناء إفريقيا الغربية .

ولقد كان الكثير من أبناء غرب إفريقيا ، لهم باع طويل فى الفقه وعلم الفرائض والمنطق والعروض والفلك ، بل إن كثيراً منهم صاروا كالعرب تماماً ، وأتقنوا النحو والصرف والبلاغة ، كما أتقنوا العديد من أحكام المواريث ، وحفظوا الأحاديث وعلم التجويد ، ذلك لأن الطلاب منهم ، كانوا ذوى إقبال شديد على طلب العلم والمعرفة ، ودفعهم ذلك إلى عدم الاكتفاء بالدراسة فى بلادهم ، على الرغم مما وصلت إليه جامعة تمبكتو من مكانة عالية حيث قصدها الطلاب والعلماء ، فكان الكثير منهم يقومون برحلات طويلة وواسعة ، طلباً للعلم والمعرفة ، وتحمل مشاق الطريق والسفر ، ونقص الزاد والماء والمتاع والمال ، من أجل الوصول إلى جامعات مصر وبلاد المغرب .

ولقد بلغ من كثرتهم فى الأزهر الشريف ، أن أفردت مصر لهم رواقاً خاصاً بهم ، عرف باسم رواق التكرور ، وذلك ضمن الأروقة التى اشتهر بها الأزهر الشريف ، كما كانت للهفة الطلبة الأفارقة وتجلدهم فى سبيل العلم ، دور هام فى تحصيل معارف العصر من مراكزها ومنابعها الأصلية فى بلاد المشرق الإسلامى ، كذلك لم تكن الثقافة وطلب التزود بجميع المعارف الإنسانية ، المنتشرة فى ذلك الوقت ، والتى منها التفقه فى أمور الدين ، وقفاً على طائفة معينة من الناس ، أو أبناء طبقة من طبقات الشعب الإفريقى ، بل إن العلم طلبه الحكام والملوك والأمراء وعامة الشعب ، وفتحت جامعة تمبكتو أبوابها للجميع ، وشجع الملوك والأمراء تلك الحركة العلمية ، بإرسال الطلاب إلى مراكز العلم فى الشرق والشمال ، وذلك للتوسع فى علوم الفقه والحديث وتفسير القرآن الكريم واللغة العربية وكل ما يتعلق بالدين الإسلامى .

بل إن أهل هذه البلاد كانوا قوامين للصلاة محافظين على أدائها فى أوقاتها ، بل كما قال « ابن بطوطة » : كانوا يذهبون منذ الصباح الباكر كل يوم جمعة ، لتأدية صلاة الجمعة حيث كانت تزدحم بهم المساجد ، كذلك كانوا حفظة للقرآن الكريم ، وقد شاهد ابن بطوطة أيضاً كيف أن أهل مالى يقيدون أبنائهم فى المنازل ، إذا لم يحفظوا القرآن الكريم فى سن مبكرة ، وشاهد حركة إسلامية واسعة مزدهرة ومنتشرة ، فى البلاد التى زارها ومكث بها فترة طويلة ، والتى حدثنا عنها فى رحلاته إلى تلك البلاد .

وكيف أن الإسلام وحضارته الإسلامية ، قد أثرت فى نفوس وحياة أهالى تلك البلاد وأخذ بيدهم إلى مدارج العلم والمعرفة .

ولقد بلغ سكان غرب القارة درجة عالية ورفيعة ، فى فن الموسيقى والرقص والغناء والنقش ، حتى لقد قال القلقشندى : إن سكان غرب إفريقيا بارعون فى الرقص والموسيقى والغناء ، ولهم ولع كبير بتلك الفنون .

● **الإسلام والاستعمار** :

لقد تعمق الإسلام فى نفوس أهل غرب القارة ، وكثر فيهم حفظة القرآن الكريم ، حتى أصبح طلبة القرآن كثيرون ، وحفظه الأولاد الصغار بكثرة ، والذين كانت تزخر بهم الكتاتيب الصغيرة ، المنتشرة فى القرى والبوادى ، وبين سكان الخيام ، بل وفى الغابات . وكثر العلماء وطلاب العلم والمعرفة والثقافة الإسلامية ، حتى أصبحت الثقافة العربية ثقافة عربية فى أرض زنجية ، وليس معنى هذا القول ، أن هذه الثقافة الإسلامية أقل غزارة وعمقاً من ثقافة بلاد الشرق الإسلامى ، أو بلاد الشمال الإفريقى ، ذلك لأن المنبع والمصدر الذى استقت منه تلك العلوم هو مصدر واحد ، وهو كتاب الله الكريم ودستوره القويم ، وسُنَّة محمد ﷺ خير المرسلين ، واللغة واحدة هى لغة القرآن العظيم .

وجاء الاستعمار وعمل على طمس الحضارة الإسلامية ، ولحقت حركة الدمار والخراب بتلك الثقافة الزاهرة ، منذ بداية حركة الكشوف الجغرافية ، وتذرع رجال الاستعمار بالقضاء على الرق ، من أجل تدمير المدن الإسلامية ، وطمس المعالم الحضارية بها ، والقضاء على المؤلفات العربية الإسلامية ، والتى نهب منها ما نهب ، وأخذ طريقه إلى دول غرب أوروبا ، عن طريق الاستيلاء بالقوة والسرقة ، وحرق منها ما حرق .

وكان الاستعمار البرتغالى والأسبانى والإنجليزى والفرنسى والألمانى لهذه المنطقة ، سبباً فى تدمير المدن الزاهرة فى تلك الأقطار ، وذلك عمداً منه على محاربة الإسلام وحضارته الخالدة ، ولغته الباقية بقاء الدهر .

ولكن إذا كان الاستعمار قد نجح لفترة ما ، عند سيطرته على هذه الأقطار ، وعلى

مقدرات شعوبها ، فى أن يحقق أهدافه ، إلا أن بلاد غرب القارة ، بعد أن قسمها الاستعمار فيما بينه ونشر لغته وحضارته الفرنسية والإنجليزية بين شعوب هذه الأقطار ، على أمل منه فى أن يباعد بينها ، وبين بقية بلاد العالم الإسلامى ، إلا أن الاستعمار ما كاد أن يرحل حتى ظهر الأصل الثابت العميق الجذور ، والمتأصل فى نفوس الشعوب الإفريقية ، والراسخ فى العقول والقلوب ، وهو الدين الإسلامى الحنيف ، الذى يربط أبناء الشرق الإسلامى بإخوانهم سكان تلك المناطق .

ومن هنا فإن حضارة الإسلام ، ودين الله الخالد ، واللغة العربية ، باقية خالدة ، وممتدة ومتسعة ومنتشرة بين شعوب إفريقيا ، غربها وشرقها وجنوبها وشمالها ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وذلك مصداقاً لقوله جل وعلا فى قرآنه الكريم : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصرون * وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾ [1] .

● كيف تعرضت إفريقيا لموجبات الغزو الأوروبى ؟

شهدت القارة الإفريقية فى أوج حضارتها الإسلامية ، موجة من الصراع الاستعمارى ، بعد خروج المسلمين من الأندلس ، وسقوط آخر معقل لهم فى غرناطة عام ١٤٩٢م [2] .

وكان الهدف من هذه الحركة الاستعمارة هو تعقب المسلمين القادمين من الأندلس ، والقضاء على آخر معاقلهم على الساحل الإفريقى ، ثم إجهاض أى محاولة للتفكير فى العودة إلى هذه البلاد .

وترتب على هذه الغزوة الاستعمارية ، محاولة تطويق المسلمين ، وذلك بالاتصال بالمملكة المسيحية فى بلاد الحبشة ، بزعامة « برستر چون » ، وأدت هذه الحركة إلى قيام الكشوف الجغرافية البرتغالية ، التى انتهت بالدوران حول إفريقيا ، والوصول إلى شاطئها الشرقى ، ودخلت فى صراع دموى مع الإمارات والممالك الإسلامية ، سواء فى شمال القارة أو فى شرقها أو غربها .

اتخذت هذه الموجة صبغة صليبية ، لأن البابوية باركت هذا العمل العدائى ضد المسلمين، واعتبرت كل من يستشهد فى سبيل تحقيق هذا الهدف من شهداء الكنيسة ، وبالتالى أيد الملوك والأمراء فى كل من أسبانيا والبرتغال هذا العمل ، ورصدوا مبالغ ضخمة للإنفاق منها على الحملات التى تتجه ضد المسلمين ، فكانت موجات الغزو الأوروبى تحت هذا الستار الصليبى ، عاملاً كبيراً فى تقويض جزء من الحضارة الإسلامية فى القارة الإفريقية .

---

(١) الصافات : ١٧١ - ١٧٣

(٢) « المسلمون والاستعمار الأوروبى لإفريقيا » : د . عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب (عالم المعرفة) الكويت .

وشهد البحر المتوسط والدول الإسلامية المطلة عليه ، ذلك الصراع الاستعمارى الذى لم يشهده تاريخ المنطقة من قبل ، فلم يحدث فى التاريخ أن استمرت موجة استعمارية مثلما حدثت فى القارة الإفريقية ، ولم يحدث أن استنزفت موارد قارة ، بشرية وطبيعية لصالح أوروبا ، مثلما حدث لإفريقيا ، كما لم يحدثنا التاريخ من قبل ، عن قارة قسمت إلى أشلاء ودويلات قزمية ، بأيدى الأوروبيين مثلما حدث فى إفريقيا .

كانت هذه الموجة الاستعمارية تتركز فى المقام الأول على المسلمين فى شمال القارة ، باعتبارهم الحصن الحصين الذى يدافع عن الإسلام والمسلمين ، وهذا ما أعطى حركات التوسع البرتغالى والأسبانى صبغة صليبية ، من أجل القضاء على المسلمين ، ومن أجل تتبع الهاربين من الأندلس .

وقد تطلب ذلك الأمر الدخول فى صراع مع مسلمى شمال إفريقيا ، واحتلال هذه الأجزاء ، وقيام أكبر عملية جهاد بحرى فى تاريخ البحر المتوسط ، استمرت منذ عام ١٤٩٢م حتى أواخر القرن التاسع عشر [١] ، وذلك عندما بدأت دول استعمارية جديدة تدخل الميدان ، وتتطلع إلى استعمار القارة ، بقصد القضاء على حضارة المسلمين ، وبهدف التحكم فى المناطق الاستراتيجية فى القارة ، وبغية السيطرة على أجزائها ، لضمان الحصول على المواد الخام اللازمة للثورة الصناعية ، التى قامت فى القارة الأوروبية .

ومن هنا صارت إفريقيا هدفاً جديداً ، أمام الغزو الاستعمارى ، لتصبح مورداً للخامات، وسوقاً لتوزيع المنتجات ، ومكاناً لنهب الثروات ، ثم القضاء على ما فيها من حضارات، ويعتبر مؤتمر برلين (١٨٨٤م - ١٨٨٥م) هو المائدة التى تصارع فيها الآكلة على قصعة القارة الإفريقية ، دون أخذ رأى أية دولة إفريقية واحدة ، وتحولت إفريقيا فى خلال عشر سنوات بعد المؤتمر ، إلى مستعمرات تابعة للدول الأوروبية ، وانقلبت الصورة من وجود ١٠٪ من الدول الإفريقية المستعمرة فقط قبل المؤتمر ، إلى حوالى ٨٪ فقط من الدول المستقلة بعد المؤتمر [٢] .

● دور الزعماء المسلمين فى مواجهة الغزو الأوروبى :

وجد أبناء القارة أنهم هدف الغزوات الاستعمارية التى جاءت لاحتلال أراضيهم ، واستعمار أوطانهم ، وتدمير حضارتهم ، فكان لا بد من التصدى ، دفاعاً عن شرف الإسلام وكلمة التوحيد ، وصار الجهاد أمراً محتماً ، ومطلباً فرضه الله على المسلمين الذين أحسوا غزو ديارهم ، وتحطيم مقدساتهم، وتدنيس حضارتهم الزاهية عبر العصور. من هنا شهدت مختلف مناطق القارة الإفريقية ملاحم بطولية ، حقق المسلمون فيها

(١) المرجع السابق « المسلمون والاستعمار الأوروبى لأفريقيا » (ص ١٠) .
(٢) نفس المرجع السابق (ص١٢) .

انتصارات باهرة ، على جيوش المعتدين الأوروبيين ، المدججة بأحدث الأسلحة ، وفنون الحرب الحديثة ، وسجل المسلمون على أرضهم أمجاداً لا مثيل لها فى تاريخ الحضارات ، وجعلوا من أرض القارة طريقاً وعراً مفروشاً بالأشواك ، وأجبروا أوروبا على إسقاط وزارات وتغيير قيادات ، وإرسال الإمدادات والمساعدات ، للوقوف أمام عنف المقاومة الإفريقية الإسلامية .

ولقد أغفل الأوروبيون بلا شك ، وهم يسجلون تاريخ استعمار القارة هذه البطولات ، وأشاروا إليها فى ثنايا مؤلفاتهم ، باعتبارها حدثاً عارضاً لا قيمة له ، أثناء غزوهم للقارة الإفريقية ، بل أنكروا هذه البطولات وتلك الانتصارات ، ووصل الأمر بهم إلى حد اتهام هذه القيادات الإسلامية بالجنون ، وركزوا على وسائل القضاء على هذه الزعامات الإسلامية ، فجاءت كتاباتهم تتويجاً لبطولات أبنائهم من القادة العسكريين ، واتسمت أعمالهم بالتحيز ، والبعد عن الموضوعية ، والتركيز على النواحى والسير الذاتية .

ولذلك فإن الكتابة عن دور الزعماء المسلمين فى مواجهة الغزو الأوروبى ، تحتاج إلى جهد مخلص لإبراز الدور النضالى الذى قاموا به ، دفاعاً عن الأرض المقدسة ، من منطلق العقيدة الراسخة .

وسنكتفى هنا بلمحة سريعة عما قاموا به ، فى إطار الصورة العامة التى نرسمها للاستعمار الأوروبى لإفريقيا .

● المسلمون والغزو الأوروبى لإمبراطورية الفولانى :

تكلمنا فى الفصل السابق عن المجاهد عثمان بن فودى ، زعيم الحركة الإصلاحية القادرية فى أوائل القرن التاسع عشر ، ودوره فى تأسيس إمبراطورية إسلامية واسعة ، طبقت الشريعة الإسلامية فى هذه المنطقة ، وأنشأ الشيخ عثمان نظاماً خلافياً ، تولى أبناؤه الحكم من بعده مدة قرن من الزمان .

ولما بدأت عمليات التقسيم الأوروبى لإفريقيا ، صارت منطقة شمال نيجيريا ضمن مناطق النفوذ البريطانى ، ولما بدأ التوسع البريطانى داخل هذه الإمبراطورية الإسلامية ، تصدى الخلفاء المسلمون من سلالة الشيخ عثمان ، لتلك الموجة الاستعمارية ، ودارت معارك مستمرة قدم فيها المسلمون نماذج مشرفة من الكفاح والنضال والفداء ، حتى استشهد الخليفة محمد الطاهر الأول على أرض بورمى ، وكان استشهاده خاتمة سلسلة من الكفاح ضد التوسع الأوروبى ، حيث كان هؤلاء المجاهدون يواجهون قوى أكبر من إمكانياتهم ، تدعمها شراسة الباطل وأطماعه [1] .

---

(١) لمزيد من الدراسة حول الفلوانى : يمكن الرجوع إلى عبد الله عبد الرازق إبراهيم : « الإسلام والحضارة الإسلامية فى نيجيريا » القاهرة ١٩٨٤م .

● **المسلمون والغزو الأوروبى لإمبراطورية التوكولور :**

انتشر الدين الإسلامى فى إفريقيا ، عندما ظهرت طلائع المرابطين البدو ، الذين جاءوا من المغرب الأقصى ، ودخلوا عن طريق سهل المحيط الأطلسى ، واتجهوا جنوباً حتى حوض السنغال ، ولكنهم توقفوا عند منطقة الشجيرات القصيرة ، ولم يتوسع الإسلام جنوباً بسبب الغابة الاستوائية ، وبسبب مقاومة أهالى البلاد من الوثنيين ، وخصوصاً شعب البمبارا (١) .

ولعبت مدن شمال إفريقيا دوراً كبيراً فى نشر الدين الإسلامى فى غرب القارة ، وتكونت ممالك ومدن إسلامية عريقة فى الغرب ، حيث نجد دولة غانا ومالى وصنغى ومدن تمبكت وكانو وجاو ، وصارت هذه المدن مراكز الإشعاع للحضارة الإسلامية ، حيث تشرب الناس تلك الحضارة ، وأقاموا دويلات إسلامية ، ولعبت الطرق الصوفية أيضاً دوراً ريادياً فى نشر الإسلام ، وتصحيح العقيدة ، بعد أن مارس السكان بعض العادات الوثنية ، التى اختلطت بالمثل والقيم الإسلامية ، وصار من الضرورى ظهور رجال الإصلاح والتجديد ، الذين ذهبوا إلى مكة ، ثم عادوا إلى بلادهم ، ليعلنوا الجهاد ضد الوثنيين ، وليؤسسوا دولاً إسلامية تتخذ من الشريعة الغراء منهاجاً وسبيلاً للحكم .

وتصادف قيام تلك الحركات الإصلاحية فى غرب إفريقيا ، مع بدايات التوسع والتكالب الأوروبى على مناطق القارة الإفريقية (٢) ، فصار جهاد زعماء المسلمين فى جبهتين : جبهة ضد الوثنيين ، وأخرى ضد الأوروبيين ، وهذا ما أعطى جهاد المسلمين صفة الحروب الصليبية ، والتى سجل فيها زعماء الإسلام بطولات فائقة ، ووقفوا سداً منيعاً ضد محاولات التوسع الأوروبى ، وكبدوا العدو خسائر فوق طاقته ، ونجحوا فى إرساء أسس العقيدة الإسلامية على أساس صحيح ، وما زالت شعوب غرب إفريقيا الإسلامية ، تدين إلى زعماء هذه الحركات الإصلاحية ، ومن أبرز الزعماء الذين ساهموا بشكل فعال فى مقاومة التوسع الأوروبى ، ذلك المجاهد التيجانى الحاج عمر الفونى التكرورى .

تزعم الحاج عمر التكرورى حركة الجهاد ضد الفرنسيين ، ولكنه دخل فى صراع مع القوى الوطنية الوثنية ، وبذلك كان عليه أن يجاهد فى جبهتين ، حتى استشهد عام ١٨٦٤م تاركاً الإمبراطورية لأبنائه ، الذين واصلوا الجهاد ، وقاوموا الفرنسيين فترة من الزمان حتى سقطت دولتهم فى أواخر القرن التاسع عشر .

---

(١) هوبيير ديشان : « الديانات فى إفريقيا السوداء » (ص ١٢٧) .

(٢) انظر : تفاصيل انتشار الإسلام فى غرب إفريقيا فى : حسن أحمد محمود : « الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا » - الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٣م ، الفصل الثالث (ص ٢١٧ - ٣٠١) .

● المسلمون والغزو الأوروبى لمنطقة سانجامبيا :

من الحركات الإسلامية التى لعبت دوراً كبيراً فى مقاومة الوثنيين ، فى منطقة سانجامبيا تلك الحركة التى قادها شيخ من شعب السراكولا ، يدعى محمد الأمين ، ذلك الشيخ الذى حاول استعادة مكانة هذا الشعب ، أيام إمبراطورية غانا الإسلامية ، بالإضافة إلى محاولاته من أجل نشر الدين الإسلامى ، بين سكان تلك المنطقة من غرب إفريقيا .

ويحتل جهاد الشيخ محمد الأمين مكانة خاصة ، تختلف إلى حد كبير عن حركات الجهاد التى أعلنها زعماء الإسلام فى السودان الغربى أمثال : الحاج عمر الفوتى ، أو الشيخ عثمان بن فودى ، أو أحمدو لوبو ، أو محمد أحمد المهدى فى السودان .

لقد كان جهاد الشيخ محمد الأمين قصيراً فى مداه ، عميقاً فى مغزاه ، قوياً فى أثره ، عنيفاً فى تنفيذ أهدافه ، حيث اتسم جهاده بالعنف والصلابة ، وقوة الإصرار على متابعة جهاده ، رغم وقوف الأعداء له بالمرصاد ، لذا كان جهاده من نوع خاص ، وفى فترة قصيرة لم تتجاوز العامين ، ووسط ظروف بالغة القسوة ، والعدو يتربص به ، والقوى المحلية تحيك حوله المؤامرات ، لكنه وسط كل هذا قاوم وناضل ، وحمل السيف ، وأعلن الجهاد لنشر الدعوة ، رغم صعوبة الظروف ، وتحدى كل من وقف فى طريقه من القوى المحلية والخارجية ، وأجبر عدداً كبيراً من الوثنيين على الدخول فى طاعته ، كما انضمت إليه جماعات أخرى كثيرة ، وجدت فيه مجسداً لآمالهم ، ومحققاً لأهدافهم ، وباعثاً لشعب السراكولا ، الذى صار تابعاً للتورودوب ، فكانت حركته قومية إسلامية جهادية ، وصار بطلاً قومياً لشعب السراكولا ، ضد السيادة الوطنية ، وضد الحكم الفرنسى الأجنبى ، وقاوم الشيخ القوى المحلية ، والتوسع الفرنسى ، حتى يتمكن من تحقيق الهدف الذى كرس له حياته ، إلى أن لقى الشهادة وهو يدافع عن الدين الإسلامى، فكان من أوائل من مارسوا حرب العصابات ضد الفرنسيين ، حتى أنه اشتهر بالشيخ المحارب ، ورغم أن نضاله وجهاده لم يستغرقا وقتاً طويلاً ، إلا أن الأثر الذى تركه كان عميقاً ، ليس فقط فى تاريخ هذه المنطقة ، بل فى غرب إفريقيا بشكل عام [١] .

● المسلمون والغزو الأوروبى لإمبراطورية ساموري توري :

يعتبر ساموري توري من الزعماء الأفارقة ، الذين لعبوا دوراً هاماً فى القارة الإفريقية قبل الاستعمار الأوروبى ، لأنه يجسد البطولة والمقاومة ضد الغزاة الأوروبين ، ولأنه استمر

(١) Hrbek , Ivan : The early period of Mahmadu Lamin's activities, in studies in West African Islamic history vol . I (ed) John Ralf Willis, p. 211 .

فى مقاومة الغزاة الأوروبيين ، حوالى سبعة عشر عاماً بدءاً من عام ١٨٨١م حتى القبض عليه عام ١٨٩٨م ، وبعد أن كان قد أسس دولة إسلامية ، فى منطقة أعالى النيجر [١] .

ولقد تصادف قيام جهاد ساموری توری مع ظهور البحرية الفرنسية ، واستكمال سلاح المشاة ، بشكل جعله فعالاً وصالحاً للحروب فى المستعمرات ، وصار هذا السلاح من أحدث وسائل الغزو ، التى استخدمتها الدول الأوروبية ، ورغم ذلك فإن ساموری شن حرب جهاد فى المنطقة ، كالحاج عمر الفوتى التكروري وابنه أحمدو .

لقد كانت لديه القدرة على الرؤية بوضوح ، والتجاوب بفاعلية مع الظروف المتغيرة ، وكانت رسالته الكبرى فى الحياة ، هى الدفاع عن إمبراطورية ، كانت إلى حد كبير نتيجة جهوده الشخصية ، قامت من أجل نشر الدين الإسلامى فى غرب إفريقيا ، ولمواجهة التوسع الاستعمارى ، ومقاومة التغلغل المسيحى فى القارة [٢] .

• المسلمون والغزو الاستعمارى الأوروبى لدولة رابح فضل الله :

يعد رابح فضل الله من الزعماء المسلمين ، الذين لعبوا دوراً هاماً فى نشر الحضارة الإسلامية ، فى وسط إفريقيا وغربها ، بالإضافة إلى مقاومة الاستعمار الأوروبى فى مرحلة التكالب على القارة ، فلقد استطاع رابح فضل الله بقوة إيمانه ، أن يفرض السكينة والأمان على جزء كبير من بحيرة تشاد ، وأن يؤسس مملكة واسعة ، وأن ينشر الدين الإسلامى وشريعته الغراء فى ذلك الجزء من إفريقيا ، وأن يقف أمام التوسع الأوروبى ، وخصوصاً الفرنسى ، فى تلك المنطقة حتى سقوط دولته بعد سبع سنوات ، من النضال المستمر والكفاح المتواصل ، ضد القبائل الوثنية تارة ، وضد الممالك المحلية تارة أخرى ، وكان من الممكن لهذه الدولة أن تعيش فترة أطول ، لولا تصادف قيامها مع التوسع الأوروبى ، وابتلاع المنطقة بأسرها ، ويكفى هذا المجاهد فخراً أنه قاوم الفرنسيين ، وأعوانهم من الحكام الوطنيين ، الذين تآمروا عليه ، واستطاع أن ينتقل من سودان وادى النيل ، إلى وسط القارة وغربها ، حيث كان مقره حول بحيرة تشاد ، التى صارت مقراً لدولته الإسلامية ، التى لم تعمر طويلاً .

• لماذا عجزت حركات الجهاد الإسلامى عن قهر الغزو الأوروبى ؟

إن الحديث عن مواجهة المسلمين للغزو الاستعمارى الأوروبى ، لا بد أن يثير سؤالاً جوهرياً ينبعث فى نفس كل مسلم :

(١) Griffith, R. : Samori Toure, essays from Tarikh, published in Leadership in 19 th century Africa, London , 1982, p. 45 .

(٢) Crowder, M. : West African Resistance, Lagos, 1978, p. 112 .

لماذا عجزت حركات الجهاد الإسلامى فى إفريقيا ، عن التغلب على قوى الاستعمار الأوروبى ، رغم إخلاصهم فى الجهاد ، والاستماتة فى الدفاع عن أرضهم وعقيدتهم ؟

ولما كانت الإجابة على هذا السؤال ضرورية ، كمؤشر لتلافى الأخطاء فى مواجهة الأعداء الذين لا يخلو منهم عصر ولا أوان ، فإننا رأينا ضرورة توضيح ذلك ، لأن تشخيص الداء هو أهم مراحل العلاج ، واللبيب من اتعظ بدروس التاريخ .

ويمكن إيجاز الرد على هذا السؤال فى تلك النقاط [1] :

أولاً : حاول زعماء الطرق الصوفية وقادة الجهاد الإسلامى ، بناء دول إسلامية تطبق الشريعة الغراء ، على حساب الدول المجاورة ، فكان ذلك بداية الصراع مع القوى المحلية التى كانت من عوامل ضعف وتفتيت جهود المجاهدين المسلمين ، فى وقت تحتاج القوى الإسلامية إلى التعاون بعضها مع بعض ، فالحاج عمر دخل فى صراع مع مسلمى ماسينا واعتبروه غازياً أجنبياً ، ووقفوا له بالمرصاد وحاصروه ، حتى استشهد وهو يدافع عن دولته ضد القوى المحلية المسلمة ، وينطبق الشيء نفسه على الشيخ محمد الأمين ، الذى واجه إمبراطورية الحاج عمر الإسلامية ، والتى وقفت ضده ، وتحالف زعماؤها مع الفرنسيين من أجل القضاء عليه ، وأيضاً واجه الزعيم ساموری توری ، القوى المحلية التى ضيعت الكثير من جهوده ، من أجل إخضاع هذه الجماعات المحلية ، وواجه الزعيم رابح فضل الله الموقف نفسه ، حيث تحالفت القوى الإسلامية المحلية ، مع القوى الأوروبية ضده ، وعقد سلطان واداى وسلطان باجرمى ، معاهدات حماية مع الفرنسيين من أجل حمايتهم ، من هذا الزعيم المسلم ، وكان حرياً بهذه الزعامات الإسلامية ، أن تساند وتؤيد وتعضد زعيماً من بنى جلدتهم ، يحافظ على العقيدة الإسلامية التى يعيشون فى كنفها ، ولا يختلف السيد محمد عبد الله حسن فى الصومال ، عن هؤلاء المجاهدين فى غرب القارة ، حيث وقفت الإمارات المحلية ضده ، ووجد مقاومة من أمير هرر أو أمير هوبيا وسلطان ميجرتين . وبعبارة أخرى وجدت حركات الجهاد الإسلامى مقاومة محلية ، أشد ضراوة من القوى الخارجية .

ثانياً : إن حركات الجهاد الإسلامى ظهرت فى وقت ، لم تفهم فيه شعوب القارة الإفريقية بعد ، معنى القومية والوطنية ، ومفهوم الدفاع عن الأوطان ضد الغزاة الأجانب، ولذا أصبحت كل حركة تجاهد من أجل نشر الدين الإسلامى بين الوثنيين ، تجد الحكام المحليين الذين يقفون للمجاهدين بالمرصاد ، خوفاً على زعامتهم وعلى هيبتهم ، وبالتالى بدأ الشقاق بين المجاهدين والزعماء المحليين ، ولقى المجاهدون مقاومة عنيفة من القوى

---

(١) « المسلمون والاستعمار الأوروبى لإفريقيا » - د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب (عالم المعرفة) الكويت .

المحلية . وكان يتعين على هذه القيادات المحلية ، أن تنسق جهودها مع الزعماء المسلمين للوقوف يداً واحدة ضد هذا الغازى الأوروبى ، الذى استهدف حضارتهم الإسلامية ، ولم تدرك هذه الشعوب وزعامتها المحلية ، أهمية هذا التنسيق إلا بعد فوات الأوان ، وبعد ضياع الأرض ومن عليها ، وسقوط هذه المناطق تحت السيطرة الاستعمارية المباشرة .

ثالثاً: رغم أن حركات الجهاد الإسلامى فى إفريقيا جنوب الصحراء ، قد تزامنت تقريباً مع الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، إلا أنه لم يحدث تنسيق بين هذه الحركات ، بل عاشت كل حركة بذاتها ، ولم تحاول الاقتراب والتلاحم والتحالف مع الحركات الأخرى ، للوقوف يداً واحدة ضد عدو مشترك يستهدف حضارتهم، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن زعماء بعض الحركات الإسلامية ، قد تحالفوا مع العدو ضد القوى الإسلامية .

وكان هذا كله سبباً فى عدم وجود جبهة إسلامية واحدة ، أمام عدو عرف كيف ينسق خطواته ، وكيف يستغل هذه الحركات لضرب بعضها ببعض ، ثم يتفرغ بعد ذلك للقضاء على القوة الباقية ، وكان هذا فى الحقيقة من أهم أسباب سقوط هذه القيادات ، بعد فترة قصيرة ، ومن صمد منها طويلاً ، فإنه استعان ببعض القوى المحلية ، التى ساندته وناصرته .

رابعاً : تشابهت حركات الجهاد والمقاومة الإسلامية ، فى إفريقيا جنوب الصحراء ، فى أنها رفضت جميعها الحماية الأجنبية ، وإن كان بعضها قد عقد معاهدات مع بعض القوى الأجنبية ، فإن ذلك لم يكن يعنى الحماية فقط ، بل لجأت هذه الزعامات الإسلامية إلى عقد صلح مع الأوروبيين ، حتى تسترد الأنفاس وتبدأ مرحلة جديدة من النضال والكفاح والمثل الحى لهذا النوع من مهادنة الأجانب ، جاء فى حركة السيد محمد عبد الله حسن فى الصومال ، حيث عقد صلحاً مع الإيطاليين والبرتغاليين لكى يعيد تنظيم قوته ، وبعد أن أحس بعدم احترام هذه الشروط ، قام بإلغائها ، ودخل فى صراع جديد مع هذه القوى ، وينطبق نفس الشيء على الإمام ساموري توري ، والحاج عمر الفوتى .

خامساً : اتضح من دراسة كل حركات الجهاد الإسلامى ، فى إفريقيا جنوب الصحراء، أن زعماء هذه الحركات رفضوا جميعاً الاستسلام للقوى الأوروبية رغم كل العروض المادية والمعنوية ، التى عرضها الأجانب عليهم ، وفضلوا القتال والصمود حتى النهاية ، وكبدوا الأوروبيين خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات ، وأجبروهم على تغيير القيادات أكثر من مرة ، وبالرغم من قلة ذخيرتهم ، وعدم مجاراتها للأسلحة الأوروبية الحديثة ، وبالرغم مما أصاب زعماء هذه الحركات من خسائر ، فقدوا فيها أبرز قوادهم ، وأشجع رجالهم ، إلا أنهم آثروا الاستمرار فى القتال ، ورفضوا بكل إباء وشمم ، أن يقبلوا شروط

الاستسلام والخضوع ، وفضلوا الاستشهاد فى سبيل كلمة الله ، وفى سبيل إحياء الشريعة الإسلامية فلقد استشهد الخليفة محمد الطاهر الأول فى دولة سوكوتو فى معركة بورمى ، واستشهد الحاج عمر الفوتى وهو يدافع عن عقيدته ، واستشهد رابح فضل الله ، والحاج محمد الأمين ، والسيد محمد عبد الله حسن ، الذى قدم نموذجاً رائعاً للنضال والكفاح المشرف ، ورفض كل العروض ، وقاوم كل الحملات التى وجهتها بريطانيا ضده ، وحتى بعد استخدام الطائرات لأول مرة ، فى حروب القارة الإفريقية ، لم يستسلم ، وظل يقاوم ويناضل حتى سقط شهيداً ، دون أن ينال الأعداء منه شيئاً . وبعبارة أخرى: كانت السمة الغالبة على كل زعماء حركات الجهاد ، الموت والاستشهاد فى سبيل الله ، والمقاومة حتى آخر لحظة من العمر ، فسجلوا بحروف من نور ، أمجاد بطولات ، لا بد من أن تعيها الأجيال الحالية ، فى كفاحها ضد الإمبريالية والاستعمار والغزو الصليبى ، الذى يهدد ديار الإسلام والمسلمين فى هذه الأيام .

سادساً : انتهت هذه الحركات الجهادية جميعها ، بعد أن بسط الأوروبيون نفوذهم على تلك المناطق الإسلامية ، ولم يكن القضاء على هذه الحركات ، بسبب التقاعس أو التخلى عن حمل الأمانة ، أو التقصير فى أداء الرسالة ، لكن الذى حدث هو أن هذه الزعامات ظهرت فى مناطق متفرقة من القارة ، وكان عليها أن تحارب فى جبهتين ، جبهة محلية وثنية ، وجبهة خارجية أوروبية ، وبالتالى لم تتمكن القيادات الإسلامية ، من أن تكرس جهودها فى جبهة واحدة ، ذلك لأن المستعمر كان يقف لها بالمرصاد ، ويقوض كل بنيان تشيده هذه القيادات ، التى اضطرت إلى مهادنة هذا الطرف أو ذاك ، لكن الأوان لم يكن مهيأ لفهم طبيعة الغزو الأوروبى ، الذى استغل هذه القوى المحلية ، وراح يفرض عليها الحماية ، ويجندها ضد بنى وطنها ، فكانت هذه الروح سبباً فى عدم تلاحم أبناء المنطقة الواحدة ، لتقف سداً منيعاً أمام عدو مشترك ، كما لم تدرك هذه القيادات المحلية ، أبعاد هذا التوسع الاستعمارى ، ولم تفهم الدرس إلا بعد فوات الأوان ، وبعد أن ابتلعت القوى الاستعمارية المنطقة بأسرها ، كما كان سر القضاء على هذه الحركات ، نابعاً من استخدام الأسلحة الحديثة ، ضد القوى الإسلامية التى تستخدم أسلحة تقليدية ، لا يمكن أن تجارى هذه الأسلحة الأوروبية ، ولم يجد زعماء الإسلام من وسيلة ، سوى الاستمرار والكفاح بهذه الموارد المحدودة ، واستطاعوا أن يلحقوا بالأوروبيين خسائر فادحة فى الأرواح والأسلحة ، وكان الإيمان بالله والاستشهاد فى سبيل العقيدة ، هما السلاح الأخير الذى حملوه حتى استشهادهم .

• معاول الهدم للحضارة الإفريقية الإسلامية

لما كانت معالم الحصارة الإسلامية تقوم على ركيزتين أساسيتين هما

١ - الثقافة العربية

٢ - العقيدة الإسلامية .

فإن قوى الاستعمار وجهت جهودها ، لزعزعة هاتين الدعامتين الهامتين ، ليس فقط بعدما استتب أمر الاستعمار الغربى فى القارة ، بل ببداية التوسع الاستعمارى نفسه ، فبعد أن أتم البرتغاليون استكشاف سواحل إفريقيا ، أنشأوا مراكز للتبشير فى ساحل الذهب ، ومصب نهر الكنغو ، وفى عام ١٤٩١م اعتنق ملك الكنغو الدين المسيحى [١] ، ولكن هذه الجهود لم تأت بالثمار المرجوة .

وفى سنة ١٦١ م أسس البرتغاليون أسقفية مسيحية بمستعمرة أنجولا ، ولكنهم لم ينجحوا فى نشر المسيحية داخل البلاد ، وامتد نشاط البرتغاليين إلى الساحل الشرقى لإفريقيا ، فقد اعتنق الملك مونوتابا المسيحية فى سنة ١٥٦١م . واستقر الآباء اليسوعيون والدومينيكان ، فى حوض نهر زمبيزى

وفى عام ١٦٣٠م اعتنق زعيم ممبسة المسيحية ، ولم تثمر هذه الجهود أيضاً الثمار المرجوة ، نظراً لانتشار الإسلام وحضارته فى إفريقيا ، فلم يبق فى أوائل القرن الثامن عشر من الذين اعتنقوا المسيحية ، إلا نفر قليل .

ثم دخل الأسبان ميدان التبشير ، وأرسلوا عدة بعثات تبشيرية ، خصوصاً فى مملكة داهومى ، وقام الفرنسيون بجهود مماثلة ، إلا أن الحروب فى القارة الأوروبية ، قضت على كل هذه المحاولات ، ولم تبق إلا نواة صغيرة من الكاثوليك فى مدينة سانت لويس[٢]، وأدلى البروتستانت بدلوهم فى الدلاء ، حيث نزل إلى مستعمرة الرأس أول قسيس بروتستانتى فى سنة ١٦٦٥م .

وعلى كل حال ، لم يكن للمسيحية قدم ثابتة ، فى أى مكان من إفريقيا ، فى بداية القرن التاسع عشر ، باستثناء فئات قليلة على الساحل

ثم بدأ النشاط المسيحى يسترد قوته ، فى القرن التاسع عشر ، مع موجات الغزو الأوروبى، نتيجة السيطرة الاستعمارية ، وقدرتها على تغيير مصائر الشعوب ، بسلطان الحكم وقراراتها الملزمة بقوة السلاح

---

(١) « الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا » (ص ٣٦) ، مرجع سابق

(٢) « الديانات فى إفريقيا السوداء » ديشان (ص ١٥٦ ١٥٨) القاهرة ١٩٥٦م

وكان من أهم العوامل التى ساعدت على نشر المسيحية فى القرن التاسع عشر :

* تغير نظرة المبشرين إلى العادات الوثنية ، فقد كان هؤلاء أول الأمر ينظرون إلى هذه الديانات نظرة احتقار ، وانصرفت جهودهم الأولى إلى محوها من نفوس الزنوج .

* بدأ المبشرون يستعينون بعلم الأجناس ، ويفرضون على أعضاء البعوث التبشيرية - قبل أن يقصدوا تلك الجهات - اتباع خطة مرسومة ، تقضى بدراسة البيئات دراسة شاملة وفهم نظمها الاجتماعية ولغاتها .

* اشتركت فى نشر المسيحية فى إفريقيا أكثر الأمم المسيحية : الأمم الكاثوليكية ، والأمم البروتستانية على حد سواء [(١)] ، بما يدفعها من إغراءات كنوز إفريقيا ، والرغبة فى استغلالها .

* عمد المبشرون إلى الاختلاط بالسكان ، والتعاون معهم فى كل مناسبة ، وترجمت الكتب المقدسة إلى اللغات المحلية ، وفرضت على هؤلاء المبشرين مهام اجتماعية وثقافية .

* بدأت الكنائس المحلية تعين قساوسة من الإفريقين ، حتى يدرك الزنوج أن الكنيسة ليست حكراً للجنس الأبيض .

* بدأ هؤلاء المبشرون يتوسلون بوسيلتين بالغتى الخطورة :

أولهما : الخدمات الطبية بإنشاء المستشفيات ، حيث يكون الإنسان فى أضعف حالاته وهو مريض ، فيكون سلس القيادة عقائدياً ، وهنا يمكن غرس ما يحلو لهم من أفكار .

ثانيهما : إنشاء المدارس المسيحية ، وقد شجعت الحكومات هذا التعليم ونشره ، منافسة للتوسع الإسلامى ، الذى ينمى العلم ويبث المعرفة ، وقد ساعدت تلك المدارس على تدعيم لغة البلد المستعمرة ، ومنافسة اللغة العربية ، التى هى أساس دعامة العقيدة والثقافة الإسلامية .

● آثار التعليم التبشيرى الغربى فى المجتمع الإفريقى :

عرض الأستاذ « لورنزو تيرنر » لنتائج هذا التعليم فقال [(٢)] :

* إن الحركة التعليمية التى وضعت لخدمة التبشير والاستعمار ، تركت أسوأ الأثر فى الناحية الاقتصادية ، فقد بدأ الإفريقيون يتركون وسائلهم التقليدية لكسب الرزق ، ولم يستطع النظام الجديد أن يعوضهم عنها شيئاً ، والمفروض أن التعليم الذى رسمه الأوروبيون لأهل البلاد ، كاف لجعلهم متطورين مع الحياة الجديدة .

---

(١) Carpenter. The Role of Christianity, Africa to day pp. 90 - 113 .

(٢) L. D. Tumer : The impact of Westem education on the African way of life, African to day p. 147 .

* إن التعليم فى المناطق البلجيكية والفرنسية يفقد الناس صفتهم الإفريقية ، ويجعلهم فرنسيين أو بلجيكيين ، والتعليم فى المناطق البريطانية ، لا يهيىء فرص التدريب المهنى ، إلا لعدد محدود من أهل البلاد .

* ترك هذا التعليم أثره أيضاً فى فقد الهوية ، فقد زلزل إيمانهم بالمسيحية ، لأن جمهور الإفريقيين الذين اعتنقوا المسيحية ، رأوا أن مبادئ هذا الدين لا يطبقها الأوروبيون، الذين يعيشون بين أظهرهم ، وأن المبشرين لا يحترمون تقاليد البلاد .

* كذلك ترك هذا التعليم أثراً أسوأ فى الميدان الاجتماعى ، فقد قطع صلة الناس بماضيهم ، وحارب تقاليد اجتماعية جرت فى جسمهم مجرى الدم ، فقد لوحظ أن الإفريقى الذى تعلم على هذا النحو ، لا يصلح للحياة بين الأوروبيين أو الإفريقيين ، فاضطربت نظم الأسرة ، وتعقدت مشاكلها الاجتماعية ، كما خلق هذا التعليم هوة سحيقة بين الرجل والمرأة ، فهو يعنى بالرجل ويترك المرأة على حالها ، فيقل إقبال المتعلمين على الزواج من الزوجات غير المتعلمات .

وهناك آراء مفكرين غربيين آخرين :

– يرون أن المسيحية حملت للزنجى على أنها دين الأسياد ، والمسيحية التى يتعلمها توحى إليه أنه أحط منزلة من معلمه ، وأكثر خضوعاً له ، والأدب المسيحى نفسه يكره الزنوج ويحط من قدرهم [(١)] ، ولا شك أن التفرقة العنصرية معول هام لهدم شخصية الشعوب ، وبالتالى كيانها وحضارتها .

– كما يرون ارتباط المسيحية بالحضارة الأوروبية ، مما يفرض على الأوروبيين نزعة مادية معينة تناقض سمو المسيحية وروحانيتها [(٢)] ، ودخول الزنوج فى المسيحية كان معناه – ليس التطور البطىء – إنما الطفرة المفاجئة ، وتغيير أوضاع الزنوج فى بيئاتهم ومجتمعاتهم، حتى إن هذا التطور كثيراً ما يوصف بأنه (الموت الشخصى) أو (الاحتضار المعنوى) للدلالة على خطورة هذه النقلة .

فقد دأب المبشرون على تحريم تعدد الزوجات وعبادة الأسلاف ونحر القرابين ، كما كافحوا عادة المهر وحفلات التلقين ، وحرموا الزنوج من متع الحياة البريئة فى مجتمعهم، فسلخوا كل من اعتنق المسيحية عن قومه وعشيرته ، وعن مشاعر طفولته المحببة ، فأصبحوا طبقة غريبة عن مجتمعهم القديم .

– هذا على حين أن الإسلام الذى بنت عليه إفريقيا حضارتها ، لم يستعبد هذه الشعوب،

---

(١) Blyden : Christianity, Islam and the Negro race p. 15 .

(٢) Trimingham : Christian church p. 14 .

إنما أشعرها بالعزة والكرامة ، وقوى فيها النزعة إلى الحرية والاستقلال ، لم يقض على نظمهم المحلية ، إنما اكتسبت شكلاً جديداً ، وتلاءمت مع تقاليد الإسلام ، ففى المجتمعات الإسلامية فى وسط وغرب إفريقيا ، نجد التعاليم الإسلامية منسجمة مع التقاليد المحلية ، فهى على حد تعبير بليدن (Healthy amalgamation) [1] أى انصهار بنّاء .

- يضاف إلى هذا أن الإسلام يتلاءم مع البيئات التى ينتشر فيها ، ويخلق فى كل منها طابعاً محلياً ، بل هو يناسب الجماعات المختلفة فى أمزجتها وأذواقها : فبعضها يرى فيه نظاماً سياسياً يناسب تقاليدها ، فتؤمن به لشد أزرها فى نضالها من أجل الاستقلال والتخلص من الاستعمار ، أو للتفوق على جيرانها [2] .

والبعض الآخر تغريه نواحيه الاجتماعية والاقتصادية ، فكل جماعة تستطيع أن تأخذ منه ما تريد ، والعبادة فى الإسلام بسيطة ، لا ترتبط بكنيسة معينة ، أو رجال دين محترفين ، على حين نجد الكهنوت الغربى برسومه وتقاليده معقداً غاية التعقيد [3] .

ولم يكن الإسلام ديناً فحسب ، إنما كان ديناً وثقافة متآلفين غير متنافرين ، والتنافر بين المسيحية والنزعة المادية للحضارة الغربية ، لذلك ارتبط الإسلام بالعلم ، وكان لهذا الارتباط أثر عظيم فى حياة الزنوج ، فالمرء لا يكاد يسلم ، حتى يتعلم القراءة والكتابة ويرتفع قدره اجتماعياً ، كلما زادت ثقافته ، والإسلام لا يأخذ المجتمعات الوثنية بالطفرة، إنما يأخذها بالرفق والأناة ، حتى لا تكون النقلة مفاجئة ، وفى كل مكان تسرب إليه الإسلام انتشرت الكتاتيب ، وأقبل الإفريقيون عليها لرغبتهم فى تعلم القراءة ، وقد أثر فى نفوسهم ارتفاع مستوى إخوانهم المسلمين ، ورجال الدين المسلمين يمكن إعدادهم بعد تدريب بسيط ، بحفظ القرآن الكريم ومعرفة أصول الدين ، والإسلام فى نظامه التعليمى لا يجعل الهوة سحيقة بين المعلم والمتعلم ، بل هو يوثق الصلة بينهما ، على عكس الحال فى النظام التعليمى الذى جلبته المسيحية الغربية ، حيث الأوروبى المعلم لا يعمل على تقريب الهوة بينه وبين من يتلقى العلم عليه [4] .

والتفرقة العنصرية التى باعدت فى أفهام الزنوج بين الواقعية والمثالية ، ليس لها محل فى الإسلام ، فهو لا يعرف حواجز الطبقات أو الجنس أو اللون ، لا يحول بين زنجى مسلم وبين التمتع بحقوقه السياسية والاجتماعية كاملة .

---

(١) Blyden : op. cit. pp . 13 - 19 , Meek, vol 2 - p. 10 .

(٢) Capenter : op. cit .

(٣) Trimingham : Christian church p. 32 .

(٤) Blyden : op. cit pp. 13 - 19 .

وتاريخ الإسلام فى إفريقيا ، حافل بالأمثلة الكثيرة للسلطنات الزنجية الخالصة ، التى ارتفع قدرها فى نظر المعاصرين جميعاً ، بصرف النظر عن اللون أو الجنس .

من أجل تلك الدراسات التى قام بها الباحثون الغربيون عن الإسلام ، وأثره فى حياة الإفريقيين ، كانت الحملة شرسة على اللغة العربية والدين الإسلامى ، وفى نهاية الفترة الاستعمارية وحتى يومنا هذا ، ما زالت معظم الدول الإفريقية تتكلم لغة البلد المستعمرة ، كما يتبين من جداول الفصل الثانى ، أما العقيدة فقد وهنت أركانها ، نتيجة جهود المبشرين المستمرة ، وغياب الوعى الإسلامى .

ولهذا فلا نعجب من أفول الحضارة الإسلامية فى إفريقيا ، ولكن العجب كل العجب أن يدعى الغرب أنه جاء ليعلم إفريقيا أصول الحضارة ، وينقذها من جمود الإسلام وتخلفه .

وما كان مجيئه إلا لطمس نور الإسلام وحضارته ، وإخراج إفريقيا إلى مجاهل ظلمات التخلف بكل أنواعها .

● صور التبعية والاستعمار الجديد :

إذا كانت الدول الإفريقية قد نالت حريتها ، وتحررت من عبء الاستعمار ، فإن هذا لا يدعو إلى التفاؤل الكامل ، بل هو تفاؤل مشوب بحذر ، فمعظم الدول الإفريقية ، ما نالت حريتها إلا نتيجة الضغوط التى واجهت الدول المستعمرة ، سواء نتيجة الحركات القومية فى دول إفريقيا ، أو نتيجة الآراء الحرة فى الدول الغربية نفسها ، والتى ترفض الاستعمار العسكرى .

ولكن ما كانت دول العالم الغربى ، ومعها أمريكا التى ظهرت على مسرح الأحداث كقوة تريد أن تهيمن على العالم أيضاً ، ما كانوا جميعاً يرحلون عن إفريقيا ، تلك القارة التى تفيض بالخيرات ، ويتركون تلك الكنوز الهائلة ، التى تدير مصانعهم ، وتنعش الحياة الاقتصادية فيها ، لذلك فقد تغير شكل الاستعمار ، ولبس ثوباً جديداً يتلاءم مع روح العصر ، ويضمن تبعية إفريقيا له .

تتمثل تلك التبعية فى الصور الآتية [(١)] :

- ترك البلاد تحكم نفسها تحت نفوذ مستتر من رجال المال والسياسة ، عن طريق التحكم فى أسعار سلع المواد الخام أو التسويق .

- أحلت الدول الاستعمارية محلها قبل الرحيل ، حكومات عميلة وطنية ، ولكنها ممائلة

---

(١) « الجغرافية السياسية لإفريقيا » مع دراسة شاملة للدول الإفريقية سياسياً واقتصادياً وطبيعياً (ص ٦٣) تأليف : د . فيليب رفلة ، بتقديم وإشراف : د . عز الدين فريد ، مكتبة النهضة المصرية .

للنفوذ الأجنبى ، وتخضع لمصالح الاستعمار ، وتلقى تلك الحكومات كل العون والسند من الاستعمار الجديد ، لتحقيق أهدافه فى القارة ، بدون حاجة لضرورة وجود قوات عسكرية أجنبية مرابطة ، تكلفه كثيراً من النفقات .

- توضع الحركات التبشيرية تحت عنوان الاستعمار الجديد ، فهى وإن كانت قديمة ، إلا أنها أضافت لنفسها الجديد ، بما يضمن لها التغلغل والنفوذ ، وسيطرة الحضارة الغربية فكرياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً .

- تقديم المعونات الاقتصادية المشروطة ، بوجود خبراء يتحكمون فى اقتصاديات الدول الإفريقية ، وانضواء بعض الدول الإفريقية تحت نظام السوق الأوروبية المشتركة ، إذ أن هذه السوق تنظم استنزاف الموارد الإفريقية ، كما تستهدف الحصول على المواد الأولية بأرخص الأسعار ، وتصريف منتجات دول السوق الأوروبية بأغلى الأسعار .

- فرض الثقافة الأجنبية للدولة المستعمرة : فلغتها هى السائدة ، وتاريخها هو الذي يدرس بالتفصيل ، حتى الأفكار والعادات الأوروبية ، هى التى تفرض نفسها على المجتمعات الإفريقية ، نتيجة طمس كل تاريخ للبلد الإفريقى ، والإيحاء إلى الإفريقيين بأن بلادهم غير ذات حضارة أو فن ، متجاهلين أبسط مبادئ التاريخ ، بأنه لا يوجد مجتمع بشرى بغير حضارة فى صورة من الصور ، ولا بغير فن فى درجة من درجاته المتطورة ، شجعهم على ذلك ضعف العقيدة الإسلامية فى النفوس ، وبالتالى ضعف الاعتزاز بالمجد الإسلامى وعظمة الحضارة التى عاشوا فى ظلالها أعزة كراماً .

- أضعف الاستعمار الناحية العقائدية والقومية والمعنوية ، وعمل على تجسيم العيوب وطمس معالم التاريخ الإسلامى الحقيقى ، كما عمل على إضعاف صحة الإفريقيين بإدخال الخمور والمخدرات ، وعمل على نشر الأمراض عامداً ، حتى يضمن شعوباً خاملة تغيب عن الوعى ولا تطالب بحقها فى الحياة ، ولا ترجع إلى ينابيع عقيدتها السامية تغترف منها ما يشفى أمراضها ، وينعش كيانها ويعيد إليها مجدها .

- جلب المستعمر مواطنيه من أوروبا ، وسكن أرض إفريقيا وأخصب جهاتها ، واستولى على الأرض وطرد السكان الأصليين إلى معازل لا يتخطوها ، وأصبح الإفريقى غريباً فى وطنه ، كما فى جنوب إفريقيا وروديسيا ، يعانى من التفرقة العنصرية ، رغم أنه صاحب الأرض ، وصاحب السيادة على كنوزها وخيراتها .

- تعانى معظم دول إفريقيا حالياً من الفساد السياسى والاجتماعى ، فتكوين الأحزاب والدس بينها وإثارة الفتن والاضطرابات ، يخلق انقسامات داخل الوطن الواحد ، تمكن الاستعمار الجديد من الانسياب بينها بسهولة ، واستصدار القرارات التى فى صالحه ، بما يضمن استمرار تحقيق أهدافه .

- من أخطر ما تعانى منه إفريقيا حالياً ، اقتصارها على الإنتاج الزراعى دون الصناعى، ضماناً لاستغلال أوروبا للخامات المعدنية التى فيها قوام حياتها .

كل صور التبعية والاستعمار الجديد هذه ، تستلزم اليقظة التامة من شعوب إفريقيا جميعها ، ومن زعمائها المخلصين ، ومن المسلمين فى كل زمان ومكان ، وخاصة أولى العزم المصلحين ، لأن الدول الغربية محركها الأساسى هو المصلحة المادية ، فهو الطاغوت الأكبر الذي تدين له بالولاء والعبودية ، وبالتالى فجميع تنظيماتها وأحزابها السياسية ، ومنظماتها وتكتلاتها الاقتصادية والاجتماعية ، تدور فى هذا الفلك ، ولن تسلم لشعوب العالم الثالث ، ولا لإفريقيا خاصة بأى تنازلات عن طيب خاطر ، إلا بما يحقق مصلحتها ونفع شعوبها ، ولذلك فشعوب إفريقيا مطلوب منها نبذ خلافاتها ، والتكتل فى منظمات تحقق لها منافعها ، وتعبر بها تخلفها ، وتستغل خيراتها بنفسها ، وتستعيد مجدها الذى يليق بعقيدتها السامية .

ولا يفوتنا فى هذا المقام ، أن نعرض لأخطر صورة من صور الاستعمار الجديد ، التى زرعها الاستعمار الغربى ضماناً لاستمرار مصالحه ، فى تلك القارة الغنية ، ألا وهى إسرائيل ، لذلك أردنا أن نفرد لها مقالاً خاصاً ، لخطورتها فى التغلغل فى القارة ، ليس على كنوز إفريقيا فقط ولكن على أغلى ما تملكه ألا وهو عقيدتها ، لأن اليهود أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين ، كما قال لنا المولى عَزَّ وجَلَّ : ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا** ﴾ [1] ، وبالتالى فإن تأثيرهم على المسلمين سيكون أقوى ، إن لم ينتبه المسلمون لهذا الخطر الداهم ، ويأخذوا حذرهم .

● الوجود الإسرائيلى فى إفريقيا وتأثيره على المسلمين [2] :

لم يقتصر اهتمام إسرائيل على توطيد علاقاتها السياسية مع الدول الإفريقية ، وتدعيم مصالحها الاقتصادية فى القارة فحسب (كما شرحنا فى الفصل الثانى) ، بل ركزت أيضاً على المجالات التى تتيح لها التغلغل والتأثير فى السواد الأعظم من الشعوب الإفريقية ، سواء كان ذلك فى المجال العسكرى أو الإعلامى ، كما فعلت ذلك فى المجالات الاجتماعية المختلفة ، فأرسلت الأطباء والممرضين ، وأقامت مصانع للأدوية ، كما أرسلت المدرسين والباحثين ، كذلك حرصت على تدعيم العلاقات الثقافية بينها وبين المؤسسات النقابية بإفريقيا ، وقد ساعد الهستدروت بالاتحاد الدولى لنقابات العمال الحرة، على ارتباطه بعدد من الزعامات النقابية الإفريقية ، مما يسر تبادل الزيارات ، وعرض

(١) المائدة : ٨٢ .

(٢) « إسرائيل وإفريقيا » (١٩٤٨ - ١٩٨٥) : د . عواطف عبد الرحمن ، حلمى شعراوى ، دار الفكر العربى .

التجربة النقابية الإسرائيلية على القادة الإفريقيين ، كما حاولت إسرائيل الاتصال بالمؤسسات الدينية الإسلامية فى إفريقيا ، وعلى سبيل المثال قام الزعيمان الدينيان المسلمان: عبد الكريم غزالة ، والفاهم عبد القادر ، من سيراليون بزيارة إسرائيل سنة ١٩٦٢م ، وقابلا وزير الأديان الإسرائيلى ، وتباحثا معه فى إرسال طلبة من سيراليون لدراسة اللغة العربية فى إسرائيل (١) .

ومن المؤكد أن هذا يثير الدهشة المقرونة بالرثاء لحال المسلمين : يطلبون تعلم اللغة العربية ، لغة القرآن فى إسرائيل !!

لا بد أن هذين الزعيمين الدينيين من عملاء إسرائيل ، فقد زرعت إسرائيل عملاء لها فى المنطقة منذ فترة طويلة ، لمجابهة أى محاولة تؤدى إلى حكم إسلامى ، لأنه يمثل خطراً على القوى الاستعمارية ، والدليل على ذلك تلك الرواية التى يرويها أحد الإعلاميين بعد زيارته لأوغندا (٢) :

بعد زيارة جمال عبد الناصر لمنطقة نيموليه ، على الحدود السودانية الأوغندية ، ذهب عشرات الآلاف من مسلمى أوغندا لمقابلته ، والترحيب به عند الحدود ، مما أزعج إسرائيل ذات المطامع العاتية فى أوغندا ، فأوعزت إلى بعض العناصر ، بإنشاء حركة إسلامية جديدة فى أوغندا ، تكون موالية لها ، واختير وزير الإعلام « أروكوديونى » النصرانى ليكون رئيساً لها بعد أن تظاهر بالإسلام « وكان حينذاك وزيراً للإعلام فى حكومة أوبوتى الأولى ، وهو أيضاً من أقربائه » ، وعين الشيخ عبده عبيد (الذى كان يقود الصراع ضد قاسم مولومبا للفوز برئاسة المجلس الأعلى الإسلامى) نائباً له ، وأطلق على هذه الجمعية اسم: الحركة الوطنية الإسلامية ، ورمز لها بالأحرف (N. A. M) ، ونشأت خلافات حادة بين المسلمين بسبب هذه الجمعية ، وتعرض بعض المخلصين للسجن .

وبعد حرب ١٩٦٧ ، وجهت سفارة إسرائيل الدعوة إلى الشيخ عبده عبيد لزيارة إسرائيل ، على رأس وفد ادعى أنه إسلامى ، وزار القدس ، ونشرت الصحف الإسرائيلية تصريحات نسبت إليه ، بأنه قال : إنه سعيد بوصوله إلى إسرائيل وزيارته للقدس ، وأنه سعد أكثر لأنه وجد الأماكن المقدسة فى أمن ورخاء ، أكثر مما كان فى عهد العرب، وكان نتيجة هذا الحادث الخطير ، أن الحكومة المصرية أدرجت اسم الشيخ عبده فى القائمة السوداء ، ومنعته من دخول مصر ، كما منعته المملكة السعودية حينذاك من الحج .

---

(١) « إسرائيل والدول النامية » : سامى حكيم ، القاهرة ١٩٦٦ (ص ٥٠) .

(٢) منار الإسلام (أوغندا جنة إفريقيا) (ص ٣٤ - ٦٥) بقلم وعدسة : عبد الفتاح سعيد ، العدد الثانى ، السنة السابعة صفر (١٤٠٢ هـ) ، ديسمبر (١٩٨١م) .

إن هذا يعنى أن إسرائيل ، وهى التى عرف أبناؤها منذ فجر التاريخ ، بالغش والخديعة والجاسوسية ، لم تكتف بزرع العملاء والوكلاء فى إفريقيا وغيرها ، إنما تقوم أيضاً بزرع جماعات عميلة تتستر بالإسلام اسماً ، وتثير الفتن والدسائس لصالح إسرائيل وبتوجيه منها ، وهكذا تحقق نفعاً مزدوجاً : تزلزل كيان الدول الإسلامية ، وتوصم الإسلام بالإرهاب - وهو منه برىء - حقداً منها على ذلك الدين القيم ، وتحقيقاً لمصالحها التى تعبدها من دون الله .

● صراع إسرائيل ضد المال العربى والإسلامى :

بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م ، أقدمت ٢٩ دولة إفريقية على قطع (أو تجميد) علاقاتها بإسرائيل ، احتجاجاً على استمرار العدوان الإسرائيلى ، على الأراضى العربية بعد الحرب ، ولم يترك الكتاب والباحثون الإسرائيليون ، قرار قطع العلاقات الإفريقية ، يمر عابراً وهم صامتون ، بل بعد قرار كل دولة ، كانوا يتبارون فى بحث وتفنيد هذا القرار ، حرصاً على مصلحة إسرائيل العليا .

ونختار هنا بعض آراء الكتاب الإسرائيليين ، على قرار قطع العلاقات بين تشاد وإسرائيل: لأنه يبين العقلية الإسرائيلية ، التى يحركها الحقد الأعمى تجاه المسلمين بصفة عامة ، والعرب بصفة خاصة ، وكيف أنهم ينظرون للإسلام على أنه خطر يجب القضاء عليه ، لأنه يهدد مصالحهم ومصالح الدول الغربية بأسرها ، ولا عجب فى ذلك ، فالإسلام يعيد للشعوب وعيها ، ويجعلها تعرف وقع خطواتها فى الحياة ، وكيف تستثمر كنوزها بنفسها ، لتحقق التقدم والرخاء لها وللأجيال من بعدها .

- يقول بنجامين توبيرجر فى صحيفة يديعوت أحرونوت [١] :

إن الصحافة الإسرائيلية لا تجد وسيلة لتبرير هزيمة إسرائيل فى إفريقيا ، سوى المال العربى والإسلام .

- وقدم هذا النوع من التبرير أيضاً أحد المعلقين البارزين فى الصحافة الإسرائيلية ، وهو «دان مرجليت» فى صحيفة هآرتس ، حيث يشير إلى الصراع المزدوج ، الذى تخوضه إسرائيل على الجبهة الإفريقية ، ضد المال والإسلام فيقول : « تبرز مقدرة القذافى ومن بعده فيصل السعودية ، على استغلال الإسلام لأغراض سياسية ، وفى مواجهة الإسلام ، تستخدم إسرائيل وسائل الإعلام ، وتحاول أن تشرح من خلالها للدول الإفريقية ، ضرورة الفصل بين الدين والدولة ، وتبذل جهدها فى إقناع الحكومات

(١) إسرائيل وأفريقيا [١٩٤٨ - ١٩٨٥] ، مرجع سابق (ص ١٢٥) .

الإفريقية ، بأنه لا يجوز السماح لحكومات أخرى بالتدخل فى شئونها الداخلية ، والانتقاص من سيادتها . أما المال فإنه ليس بمقدرة إسرائيل أن تنافس المساعدات المالية الليبية والسعودية ، فقد طلبت تشاد مساعدات أقل من عشرة ملايين دولار ، وقد درس المسئولون الإسرائيليون الطلب ، وتوصلوا إلى أن مساعدة كهذه ، لن تعود بالفائدة على علاقات البلدين ، فستحصل تشاد على المال دون أن تحل مشكلاتها ، وستطلب بعد ذلك مساعدات إضافية ، وتهدد باللجوء إلى ليبيا ، ولا تريد إسرائيل المخاطرة باستثمارها الأول » .

ثم يعترف الكاتب بأن علاقة إسرائيل مع بعض الدول الإفريقية ، كانت قائمة على الرشوة ، إذ يقول : « إن على إسرائيل ألا تفاجأ بالاتجاه الإفريقى للسير وراء المال ، فهى تعرف من تجربتها ، أنه كانت هناك حاجة إلى مبالغ كبيرة ، لرشوة أشخاص مختلفين فى إفريقيا ، للحصول على مشاريع تنمية تقوم بها إسرائيل ، وكانت هناك حالات استلزمت دفع نفقات للزعماء لكى يوافقوا على زيارة إسرائيل ، وفى مناسبات أخرى كان ينبغى دفع ثمن المصالحة لإزالة غضب زعيم إفريقى أو آخر ، لذلك كان على إسرائيل أن تدرك أن القارة السوداء غير حصينة فى وجه العروض المادية والرشوة » [1] .

يقول الكاتب : « إن رضوخ تشاد السريع ، والوضع المهزوز فى عدة دول إفريقية ، سوف يشجع فئات إسلامية متطرفة ، على تشديد حربها ضد الحكومات المركزية ، التى يتكون معظمها من مسيحيين وأصحاب معتقدات أخرى ، ونحن مقتنعون بأنه لن تمر فترة طويلة ، إلا ويتجدد النشاط التخريبى الإسلامى فى تشاد » .

هذه هى نظرة إسرائيل للإسلام : تعتبر كل حركة تهدف إلى استعادة المسلمين لحقوقهم المسلوبة فى حكم وطنهم نشاط تخريبى ، وإذا تتبعنا موقف إسرائيل من القضايا الإفريقية ، فسنجد أنها دائماً تتخذ العداء تجاه كل حركة إسلامية مخلصة ، وتشجع الحركات الانفصالية المسيحية ، وهذا ليس بغريب على إسرائيل ، فهى حليفة الغرب ، وهو الذى مكن لها فى إفريقيا ، لتكون اليد الفعالة والصورة الحية للاستعمار البديل .

● موقف إسرائيل من القضايا الإفريقية [2] :

ولقد تنبهت الدول الإفريقية أخيراً ، إلى موقف إسرائيل إزاء كثير من القضايا الإسرائيلية ، سواء مواقفها السابقة من قضايا الاستقلال الإفريقى ، أو مواقفها الحالية فى

---

(١) مجلة البلاغ البيروتية ، أكتوبر ١٩٧٣م ، والأرشيف العبرى لمركز الأبحاث ملف إسرائيل وإفريقيا .

(٢) « إسرائيل وأفريقيا » ، مرجع سابق (ص ٩٨ - ١٠٠) .

تأييد الحركات الانفصالية ، والتعاون مع الأنظمة العنصرية فى إفريقيا ، فقد صوتت إسرائيل ضد استقلال الجزائر سنة ١٩٥٦م ، وعارضت سنة ١٩٥٩م مشروع الأمم المتحدة لإجراء انتخابات عامة فى الكاميرون ، تحت إشراف المنظمة الدولية ، كما وقفت سنة ١٩٥٦م ضد مشروع منع فرنسا من إجراء تجاربها الذرية فى الصحراء الإفريقية ، وامتنعت عن التصويت بمنح تنجانيقا وروانڈا وبوروندى الاستقلال سنة ١٩٦٠م ، كما امتنعت عن التصويت لإدانة جنوب إفريقيا سنة ١٩٦٠م فى الأمم المتحدة ، كذلك عارضت مشروع ليبيريا ، الخاص بمنح الحكم الذاتى للأقاليم المستعمرة سنة ١٩٥٩م .

كذلك يثار موقف إسرائيل من مأساة جنوب السودان ، وأزمة الكنغو والحرب الأهلية فى نيجيريا ، ويدل موقفها على تأييدها ودعمها للحركات الانفصالية فى إفريقيا ، رغم ما أكدته منظمة الوحدة الإفريقية ، من ضرورة احترام سيادة كل دولة إفريقية ، وعدم المساس بوحدة أراضى كل دولة ، والحفاظ على الحدود الموروثة من الاستعمار ، رغم ما يترتب على ذلك من صعوبات ، كما يثار موقف إسرائيل من التفرقة العنصرية ، وهى بصفة عامة تعلن معارضتها له ، ولكنها فى الواقع تخالف القرارات الدولية المتعلقة بذلك ، ودليل ذلك تعاونها الوثيق مع نظم الأقلية العنصرية ، فى روديسا وجنوب إفريقيا ، كذلك يثار موقف إسرائيل من الاستعمار ، فهى تنادى بضرورة تصفية الاستعمار ، ولكنها فى الواقع تدعم السلطات المستعمرة ، وأبرز مثال على ذلك دعمها للاستعمار البرتغالى ضد أنجولا وموزمبيق وغينيا بساو (أعلنت استقلالها فى صيف ١٩٧٣م) .

وفيما يتعلق بموقف إسرائيل من قضية جنوب السودان : أكد الدكتور مزروعى أستاذ العلوم السياسية بجامعة ماكريرى فى أوغندا ، أن كثيراً من زعماء الانفصال فى جنوب السودان اللاجئين فى أوغندا ، يحصلون على معونات من إسرائيل كما أن بعضهم كان يلجأ إلى سفارة إسرائيل فى كمبالا ، للحصول على معونات مادية وعسكرية ، كذلك أشارت صحيفة « نيوزويك » الأمريكية ، إلى المعونات العسكرية التى يتلقاها المتمردون فى جنوب السودان من إسرائيل ، وأن بعض المراقبين الغربيين ، لاحظوا استخدام المتمردين للأسلحة الآلية المصنوعة فى إسرائيل ، المعروفة باسم عوزى .

أما موقف إسرائيل من الحرب الأهلية فى نيجيريا ، فقد أصدر حزب الأغلبية فى إسرائيل بياناً ، طالب فيه بالعمل على إنقاذ شعب بيافرا ، كما أعلنت وزارة الخارجية الإسرائيلية ، عن تطوع أكثر من ٥٠٠ طبيب وممرضة وباحث اجتماعى ، لأعمال الإغاثة فى بيافرا ، فضلاً عن الدعم العسكرى الذي قدمته إسرائيل للمتمردين فى بيافرا ، وقد طالبت بعض الصحف النيجيرية الحكومة ، بعد انتهاء الحرب الأهلية فى نيجيريا ، بضرورة إعادة النظر فى علاقتها مع إسرائيل .

وتكشف العلاقات الوثيقة بين إسرائيل ، ونظم الأقلية العنصرية فى روديسيا ، وجنوب

إفريقيا ، عن الطبيعة الاستغلالية العنصرية الكامنة فى النظام الصهيونى ، وترجع العلاقات بين إسرائيل وحكومة جنوب إفريقيا إلى سنة ١٩٤٨م ، فقد كانت حكومة بريتوريا من أوائل الحكومات التى بادرت بالاعتراف بإسرائيل .

وكان مالان رئيس حكومة جنوب إفريقيا فى ذلك الحين ، أول رئيس حكومة أجنبى يزور تل أبيب ، وتعتمد إسرائيل على نفوذ الجالية اليهودية فى جنوب إفريقيا (١١٦ ألف نسمة) فى دعم العلاقات الثنائية بين البلدين ، وخاصة فى المجال العسكرى ، وتنظيم مشاريع المساعدات المالية ، واستقطاب المتطوعين اليهود الذين أنهوا خدمتهم العسكرية .

● لماذا الضعف الإسلامى ؟

والآن وبعد استعراض تاريخ المسلمين والاستعمار الأوروبى لإفريقيا نتساءل : إلى متى سيظل المسلمون مستضعفين ؟ متى ينجلى هذا الليل البهيم ، ويسطع نور الإسلام من جديد؟ متى يعلو الإسلام ويسود ورءوس الكفر إلى جحورها تعود ؟ أسئلة تراود كل المسلمين المخلصين ، ويتطلعون إلى طرق النجاة بفرض المقترحات والحلول ، ونحن بدورنا نحاول أن نلقى دلونا داعين الله أن يهدينا سبلنا ، ويوفق القادة المصلحين إلى انتشال العالم الإسلامى ، من هوة التخلف الفكرى والعقائدى والاقتصادى والسياسى والعروج به إلى مدارج الرقى والتقدم .

ولذلك فإن إلقاء نظرة سريعة على أسباب الضعف الإسلامى ، تعتبر أولى وسائل العلاج ، فلا بد من تشخيص الداء قبل الدواء .

أهم أسباب الضعف الإسلامى [١] :

- التخلف الاقتصادى والاجتماعى للشعوب الإسلامية ، وذلك نتيجة خضوعها للغزو الاستعمارى فترة طويلة ، وهذا يتطلب سرعة يقظة تلك الشعوب ، لاستغلال الثروات الطبيعية - التى حباها الله بها - بنفسها .

- النقص القيادى فى المجتمعات الإسلامية ، وذلك بسبب تغيبها مدد طويلة عن حكم نفسها بنفسها ، ويمكن إعداد القيادات اللازمة ، بتوفير حرية الفكر وحرية العقيدة .

- عدم بناء فكر سياسى متكامل يصير عنواناً على الوجود الإسلامى ، وهذا يستلزم جهود علماء المسلمين ، لوضع هذا الفكر السياسى نظرياً ، ثم ممارسته تطبيقياً ، لإعطائه التطور اللازم له ، مثل قوانين الأحوال الشخصية ، التى تطورت حسب الاجتهاد العصرى، لأنها تمارس فعلاً ، والممارسة خير وسيلة لحفز الاجتهاد ، لاستنباط ما يلائم ما يجد من أحداث من وحى القرآن والسُّنَّة .

---

(١) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى كتاب : « نحو ثورة القرن الواحد والعشرين ، الإسلام والقوى الدولية » : د . حامد ربيع ، دار الموقف العربى .

- عدم وجود تنظيم دولى ثابت ، له الصفة الديمقراطية والمؤسسية ، يعبر عن تلك الإرادة الإسلامية ، مثل مدينة الفاتيكان التى تعبر عن الإرادة المسيحية ، ويمكن الاستعاضة عن ذلك بالمؤتمرات الإسلامية ، والتكتلات الاقتصادية لأننا فى عالم التكتلات، وقد اتحدت جميع الملل والنحل لتحقيق مصالحها ، وجاء على المسلمين الدور ليتحدوا ، وإلا ضاعوا فى خضم المادية والأطماع الشخصية .

- عدم خروج المجتمعات الإسلامية إلى الوظيفة الكفاحية ، رغم أن الجهاد فرض أساسى فى الإسلام ، وهو أساس الوجود الإسلامى ، لأن الإسلام بمساحته الشاسعة وموارده المتعددة ، يغرى قوى كثيرة بالطمع فى شعوبه ، ما لم يدعم بالجهاد .

- تخطيط واضح العناصر ، مقنن من جانب القيادات البيضاء ، لمكافحة الإسلام ، كما رأينا فى استعراض تاريخ الاستعمار القديم والجديد ، وهذا من أكبر التحديات التى تواجه المسلمين ، وتستلزم منهم الحذر واليقظة لكل الشعارات البراقة ، والتى تحمل فى طياتها معاول هدم الشعوب الإسلامية .

● الإسلام وقدراته الحقيقية (١) :

لا بد أن أن تكون قيادات العالم الإسلامى على وعى بحقيقة هامة جداً ، وهى أن النظام الدولى الجديد ، الذى تخضع له الأسرة الدولية المعاصرة ، يعكس خصائص لم تعرفها الإنسانية من قبل ، فهو نظام لا يسمح - على الأقل فى الأمد القريب - بإمكانية تحقيق إمبراطورية عالمية ، كما كان يحدث فى الماضى ، ومن ثم فهو نظام يتيح للقوى الضاغطة ولدول العالم الثالث ، فاعلية لم يقدر لها من قبل أن تمارسها، ولذلك فهى فرصة للعالم الإسلامى أن يدعم وجوده فى الإطار الدولى ، وخاصة أنه يملك من القدرات ما يؤهله لذلك.

ويمكن تلخيص تلك القدرات فى الآتى :

أولاً - الكثافة السكانية :

فالمسلمون طبقاً لأقل الإحصاءات تفاؤلاً ، يدور عددهم حول الألف مليون (أى سدس سكان العالم) ، بينما يؤكد البعض أنه يتجاوز ذلك ، بالإضافة إلى أن هذه الكثافة السكانية ، ترتبط بمناطق تمتاز بالثروات البترولية والمعدنية والطبيعية ، كما فى المنطقة العربية والإفريقية ، كما أن الثروات البشرية فى المنطقة الآسيوية ، لا يمكن تجاهلها لأهميتها فى تحقيق التنمية .

ثانياً - الامتداد الإقليمى :

فالمنطقة الإسلامية بمثابة حزام ، يمتد من المحيط الهادى حتى المحيط الأطلنطى ، هذا

---

(١) المرجع السابق « الإسلام والقوى الدولية » د . حامد ربيع .

الحزام يفصل الشمال عن الجنوب ، وهذا من الناحية الاستراتيجية ، قادر على أن يحقق وظائف ثلاث :

- حصر وشل التدفق البشرى ، الذى هو فى حاجة إلى الثروات ، من الشمال إلى الجنوب.

- التحكم فى جميع المواصلات الجوية ، ما بين القارة الأوروبية ، وباقى أجزاء العالم القديم .

- هذا الامتداد قادر على أن يصيب كل كتلة عملاقة فى مواقع قاتلة ، ليس فقط بالنسبة لدول أوروبا وشرق آسيا ، بل كذلك فى الولايات المتحدة ، حيث أقصر نقطة تستطيع أن تصل إلى العالم الجديد ، تقع فى غرب إفريقيا .

ثالثاً - المقدمة الطبيعية لدول العالم الثالث :

إن الإسلام بحكم كونه حضارة شرقية ، يحملها شعب غير أبيض ، عاش خبرة الاستعمار، وعانى الجرائم الأوروبية ، فهو أقرب القوى الاجتماعية والحضارية ، لدول العالم الثالث ، وبالتالى فهو يمثل نقطة جاذبة ، لها وزنها ، يضاعف هذه الحقيقة ، أن جميع دول العالم الثالث الإفريقية والآسيوية ، يسودها نوع من الوثنية ، لم يعد يتقبله المنطق المعاصر .

وبذلك فإن الظروف العالمية المعاصرة ، مهيأة لأولى العزم من المسلمين ، الراغبين فى نشر الإسلام ، وتدعيم مفهومه العقائدى ، سواء كانوا فرادى أو تبع مؤسسات وتنظيمات إسلامية .

رابعاً - الحقيقة العالمية :

الإسلام هو أول الحقائق ذات البعد العالمى فى إنسانية القرن العشرين ، لا توجد دولة آسيوية أو إفريقية أو أوروبية أو فى القارة الأمريكية ، لا تعرف الإسلام ولو أقلية مسلمة، حتى تلك الأقليات المسلمة ، أضحت بفضل التطور الديمقراطى ، والتجانس بين قوى الأغلبية المتصارعة ، قادرة على أن تمارس تأثيراً أكبر من حجمها الحقيقى ، فعندما تقف قوتان كل منهما فى مواجهة الأخرى ، بتوازن معين ، فإن قوة صغيرة محدودة ، قادرة على أن تتحكم فى الموقف ، بانضمامها لأى من الطرفين ، وتلك هى قصة الصهيونية الأمريكية فى تعاملها مع كلا الحزبين : الديمقراطى والجمهورى .

وهذه الظاهرة برزت واضحة فى انتخابات الهند ، حيث استطاعت الأقلية المسلمة ، أن تمكن أنديرا غاندى من العودة إلى الحكم، وهى اليوم مدعوة لأن تمارس تأثيراً مماثلاً فى فرنسا.

خامساً - القوة المعنوية والمادية :

الإسلام دين القوة ، يقوم على أساس أن الحق دون قوة لا موضع له ، وتاريخ الإسلام يسيطر عليه مفهوم الجهاد ، لأن الجهاد إنما يعنى قدرة المرء على أن يقدم نفسه ، لتحقيق

مثالية الدعوة الإسلامية ، والجهاد هو طرح الذات فى معركة المصير ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من التضحية بالنفس والمال .

والعالم الحديث يحترم القوة ويخضع لها ، لأنها مظهر من مظاهر الحضارة والقدرة على تحقيق الأهداف ، فما بال الأمر إذا كان الجهاد فى سبيل الله ، لتدعيم القيم السامية فى الإسلام ، وتحرير الشعوب من طمع الطامعين وظلم المستبدين .

ولذلك هناك أمر من الله بإعداد كل سبل القوة الممكنة ، سواء القوة المادية أو المعنوية، لإرهاب أعداء الله وأعدائنا ، الذين يحاولون استغلال كل نقطة ضعف فى الشعوب الإسلامية ، لتكون معولاً من معاول الهدم ، ينفذون منه إلى السيطرة على مقدرات الشعوب ومواردها الاقتصادية ، وهو ما حذرنا منه المولى جَلَّ شأنه أشد التحذير ، وأمرنا بتفاديه:

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ [1] .

ولا شك أن ختام تلك الآية هو ما يخيف إسرائيل حقاً ، كما ذكرنا سابقاً فى نفس هذا الفصل : إنه المال والإسلام ، وهذا هو التحدى المفروض علينا لنكون أو لا نكون :

نتمسك بديننا من مناهله العذبة الصافية ، كما يريد الله لنا ورسوله ، وننفق من أموالنا ، غير هيابين ولا وجلين من نفاذها ، لأن الله وعد - ووعده الحق - أنها ستوفى إلينا ، فالمال هو دائرة الصراع فى العالم كله ، ومن أجله تعقد المؤتمرات والتكتلات فى كل الدنيا .

فإن كنا نحب المال حباً جماً : فالدعوة إلى الله والإنفاق فى سبيله ستزيد المال حتماً ، إما بالاستثمار والتعاون الاقتصادى مع الدول الإسلامية ، وإما بالأجر الأخروى الذى وعدنا الله به ، والله لا يخلف الميعاد .

ونحمد الله على تلك الثروات التى تحظى بها الدول الإسلامية ، وهبها الله إياها حتى لا يكون لها على الله حجة ، فى تخلفها وتقاعسها عن حمل مشعل الرسالة ، وهذا فرض عين على كل مسلم ومسلمة فى عصرنا الحاضر ، لأن التحديات كبيرة ، والأخطار تحدق بنا من كل الجهات ، وليس أمامنا إلا خوض الصعاب والانتصار عليها بعون الله وقدرته، طالما صدقت العزائم وخلصت النيات .

❊ ❊ ❊

---

(١) الأنفال : ٦٠ .

الفصل الخامس
مشكلات المسلمين فى إفريقيا
مشكلات ناتجة عن غياب الوعى الإسلامى

● أخطر المراحل :

يعانى المسلمون فى إفريقيا من مشكلات متعددة نتيجة الاستعمار ، هذه المشكلات تجعلهم يمرون بأخطر المراحل التى مرت بهم فى تاريخهم الطويل ، حتى أصبح الكثيرون حالياً لا يتصورون أن إفريقيا بوضعها البائس الحالى ، كانت صاحبة حضارة عظيمة تحت راية الإسلام ، وأنها كانت تموج ببحار العلم والثقافة ، والنظام الاقتصادى الذى كان يحقق لأهلها الوفرة والرخاء ، حيث كانت الأرض ملكاً للقبيلة ، يعيشون كأسرة واحدة ينتجون ما يحقق لهم الاكتفاء الذاتى .

ويقول « باتن » عن تلك الفترة الخصبة ، فى حياة القارة ضحية المكر الغربى (١) :

« إن معظم الإفريقيين ينظرون إلى الأرض ، كما ينظر الأوروبيون إلى الشمس والهواء فهى تستوى معهما فى الوفرة ، وفى أنه لا غنى عنها ، وينبغى أن يشارك فيها كل أفراد المجتمع وفقاً لاحتياجاتهم ، فلم يكن للأرض ثمن ولم تكن سلعة للبيع » .

بعد تلك الوفرة وذلك الرخاء ، جاء المستعمر واستولى على الأرض بالقوة ، ثم سن قانون حيازة الأرض ، وحرية بيعها وشرائها ، وبهذا القانون تمكن الأوروبيون والشركات الاحتكارية ، من شراء الأراضى من الإفريقيين وهم مرغمون ، بعد أن تراكم عليهم الديون ، وليس لديهم من نقود لتسديدها ، وبعد أن أصبحت الملكية للأفراد ، جاءت الشركات واحتكرت شراء السلع الزراعية ، فاضطر الفلاح الإفريقى أن يزرع ما تشتريه الشركات المحتكرة كلها من المحاصيل النقدية (٢) .

أثرت هذه السياسة على قلة توافر الغذاء للسكان ، فانتشرت المجاعة وازداد المرض وكثر موت الأطفال ، وبالتالى أخذ عدد السكان فى التناقص ، وهكذا فإن الرغبة فى إماتة

---

(١) Baten, T. R., problem of Africa development p. 25 .

(٢) « إفريقية ، دراسة عامة وإقليمية » : د . أحمد نجم الدين فليجة - جامعة بغداد ومؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية (ص ٨٩ - ٩١) .

إفريقيا جوعاً ، جرى التخطيط له منذ زمن طويل ، ثم يتهمون الإسلام بأنه السبب فى ذلك ، ويعرضون عليهم النصرانية مقابل لقمة العيش ، ويالها من صفقة خسيسة ، تعتبر لون من سرقة العقائد ، ولا تعتبر نجاحاً للحملة على الإسلام ، ولكنها تعتبر مسلكاً يملى علينا الحذر والاحتياط ، ويستثير همة أغنياء المسلمين ، للوقوف بجانب إخوانهم الإفريقيين ، قياماً بحق الأخوة الإسلامية ، ودفاعاً عن دين الله (١) .

ورغم أن إفريقيا عاشت أروع الحضارات فى ظلال الإسلام ، إلا أنه خلال مسيرتها نبتت أمراض طفيلية ، ولم ينتبه المسلمون لأسباب كثيرة لاقتلاع جذورها ، حتى استعصى الداء ، ودخلت الأمة فى غيبوبة الجمود ، ولم تفق إلا على صدمة الاستعمار .

وقد أدرك الاستعمار لأول وهلة ، أنه يقاتل أمة ذات رسالة ، وشعوباً ذات حضارة ، وأدرك أن أعظم منجم هو منجم الأفكار ، وأن أخطر مداهمة إنما تكون على الإنسان ، فوضع مخططاته لتغيير عقول أبناء المسلمين وقلوبهم ، فكانت البعثات التعليمية والإرساليات التبشيرية ، والمدارس الأجنبية ، ومحو اللغة العربية ، وإضعاف العقيدة الإسلامية ، وبذلك استطاع فى مدة وجوده فى إفريقيا ، أن يخرج أجيالاً متقطعة الصلة بالإسلام ، ويقول شاعر هندى مسلم فى ذلك (٢) :

« لقد أخطأ فرعون فى تقتيل الأبناء واستحياء النساء ، ولو علم شيئاً من السياسة الحديثة ، لفتح لهؤلاء الذين قتلهم المدارس وتوصل بذلك إلى ما يريد ، ويسمى ناشد العلم والفضيلة » .

وهذا قول حق ، لا ينطبق على مسلمى إفريقيا فقط ، بل ينطبق على مسلمى العالم كله ، فقد انتقل أبناء المسلمين الذين رباهم على عينه ، من خندق الدفاع عن المسلمين ، إلى خندق الأعداء المهاجمين للإسلام ، أو على الأقل انتقلوا إلى الناظرين إلى الإسلام ، على أنه دين الرجعية والجمود ، لأنهم لم يتعلموا فضل الإسلام على العالم كله ، وعلى الحضارة الغربية بصفة خاصة (٣) .

وواكب ذلك تمزق نفسى للإنسان الإفريقى ، بسبب ما يسمعه عن الإسلام ، وما يجده

---

(١) حوار مع الشيخ محمد الغزالى : كيف يواجه المسلمون سرقة العقائد ، منار الإسلام (ص ٢٠ - ٢٥) ، العدد الثامن ، السنة السادسة ، شعبان ١٤٠١ هـ/ يونيو ١٩٨١م .

(٢) د . أحمد خليل : « أخطر المراحل على المسلمين اليوم » ، و« هذا هو الحل والعلاج » ، منار الإسلام (ص ٦٦ - ٧٣) ، العدد (٧) - السنة العاشرة - ، رجب ١٤٠٥ هـ/ أبريل ١٩٨٥م .

(٣) يمكن الاطلاع على مزيد من التفاصيل فى موضوع : « من عطاء الإسلام للبشرية » وثائق تاريخية وعلمية ، بقلم أنور الجندى ، مجلة الأمة ، العدد (١٦) - السنة الثانية ، ربيع الآخر ١٤٠٢هـ/ فبراير ١٩٨٢م ، وسنورد بعضاً منه فى الخاتمة إن شاء الله .

من حاضر مزرى للمسلمين ، وتفوق حضارى للأوروبيين ، وتلك وصمة عار فى جبين المسلمين جميعاً ، ومسئولية نسأل عنها أمام الله يوم القيامة : فلا نحن أدينا دورنا فى التقدم العلمى ، ولا التزمنا بنشر مبادئنا فى المجتمع البشرى ، ولا احتفظنا بقيمنا لنعمل بها فى محيطنا الداخلى .

وقد بلغ مكر العدو من الإحكام والنفاذ والدقة ، ما لم يبلغه شياطين الإنس على مدى التاريخ ، فلقد أحكم قبضته على وسائل التحذير ، لإلهاء المسلمين عن واقعهم ، كى لا يفتحوا أبصارهم ، ولا يعملوا عقولهم ، حتى لا يشعروا بهول المحنة ، ولا يدركوا حقيقة الجريمة ، فهو لم يستعمل أسلحة القوة المادية فحسب ، وإنما استعمل بجانب ذلك أسلحته النفسية ، وفق مخططات مدروسة ، ومكتشفاته العلمية ، نتيجة لدراستهم الدقيقة لواقع المسلمين وماضيهم ، وهدفه فى ذلك أن يستسلم المسلمون لنوم طويل ورقاد مميت .

وهذا هو التحدى المفروض على كل مسلم أياً كان موقعه فى الحياة ، ودرجة ثقافته : تعرف الحقيقة وكشف الزيف فى دعاوى الحاقدين .

ويجب ألا نفقد الثقة بأمتنا الإسلامية ، لأننا نملك الرسالة الخالدة ، والفكر الإنسانى الأصيل ، والتجربة الحضارية الرائدة ، والموقع الاستراتيجى الفريد ، والقوة البشرية الضخمة والثراء العريض فى موارد الثروة الاقتصادية ، وعلينا أن نجتاز هذه المحنة ، ليس لإنقاذ أنفسنا فقط ، ولكن لإنقاذ البشرية بأسرها .

تلك كانت نظرة عامة على حال المسلمين فى إفريقيا . . ونتبعها بدراسة تحليلية للمشكلات التى يعانى منها المسلمون .

ويمكن تقسيم تلك المشكلات إلى قسمين رئيسين :

١ - المشكلات الناتجة عن غياب الوعى الإسلامى .

٢ - المشكلات الناتجة عن التخلف السياسى والاقتصادى والاجتماعى .

وسنعالج فى هذا الفصل بمشيئة الله : **المشكلات الناتجة عن غياب الوعى الإسلامى** .

أولاً - مشكلة التبشير :

إن من أخطر المشكلات التى تواجه المسلمين فى إفريقيا ، هى مشكلة الزحف التنصيرى المكثف والمنظم ، الذى يهدد القارة من أقصاها إلى أقصاها ، حيث يهدد ذلك الزحف المسلمين ، باستغلال احتياجهم إلى العمل والكسب ، والمساعدات الصحية ، والخدمات الاجتماعية والتعليم ، والجهود التى تقف وراءه ، والمخططات التى ترسم له دولية عالمية، بل هى صورة مفزعة للغارة على العالم الإسلامى ، بالروح الصليبية القديمة وبالوسائل المتطورة الحديثة . فالحملات الصليبية تتحرك من بلاد النصرانية جميعها ،

لكن هذه المرة بعناوين وأسماء جديدة ، سلاحها : القلم وجرعات الدواء والآلات الزراعية ، وتقديم سائر أنواع الخدمات ، حتى يمكن اغتيال الشخصية المسلمة ، التى لم يتمكن الأعداء من هزيمتها فى المعارك العسكرية [١] .

كيف استشرى خطر التنصير فى إفريقيا ؟

لقد رأينا فى الفصل السابق : كيف أن التنصير لم يجد رواجاً فى إفريقيا - رغم الجهود المبذولة فى سبيله - حتى قرابة القرن التاسع عشر ، ففى ظلال الاستعمار ، ومع غياب الوعى الإسلامى ، وابتعاد المسلمين عن قواعد دينهم الحنيف ، استطاع التنصير أن يشق طريقه بسهولة فى أرجاء القارة الإفريقية ، فقد عرف الغرب الصليبى ، بواسطة رسله من المنصرين (وهم المسمون بالمبشرين) ، وكذلك بواسطة المستشرقين ، والخبراء بشئون العالم الإسلامى ، أن المسلم يبقى مستعصياً على الخداع والتضليل ، وعلى قبول السير فى طريق الغرب ، أو أى طريق سوى الإسلام ، ما دام متمسكاً بإسلامه ، معتزاً بعقيدته مستعلياً بتوحيده ، مفتخراً بتراثه وفكره الإسلامى الأصيل ، منتمياً إلى أمته المسلمة ، وشاعراً بهذا الانتماء ، فالباطل لا يغلب لقوة فيه ، ولكن يغلب لضعف جند الحق : **﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾** [٢] .

ومن ثم عرفت قوى الغرب الصليبية : أن عليها تحطيم عوامل الاستعصاء ، واقتلاعها من نفوس المسلمين ، وأول ما ينبغى أن تفعله ، هو عزل المسلم عن كتاب ربه سبحانه ، وسُنَّة نبيه عليه الصلاة والسلام ، والقضاء على لغته العربية ، وتشويه تاريخه ، وقبل أن تتحقق هذه الأمور ، فإن الغرب لا ينتظر ولا يأمل السيطرة على المسلمين ، وقبولهم السير فى طريقه ، والتلون بثقافاته .

ويجب أن يعى المسلمون كلام الغرب جيداً ، لأن ما أقلقهم وبدأوا بهدمه ، هو الدواء الذى يجب أن نبدأ به نهضتنا من كبوتنا ، وهو طريق تقدمنا ، والتحرر من وطأة التخلف ، التى يعانى منها المسلمون فى عصرنا الحاضر .

- ومن ذلك الكلام ما قاله جلادستون رئيس الوزارة البريطانية عام ١٨٨٢م ، حيث وقف فى مجلس العموم البريطانى ، وأمسك بيده نسخة من المصحف الشريف يقول لهم[٣]:

---

(١) « فى إفريقيا : حملات صليبية مستمرة وغياب إسلامى مفزع » : استطلاع مصور (ص ٣٣ - ٤٥) فى جريدة الأمة ، العدد (١٦) - السنة الثانية - ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ/ فبراير ١٩٨٢م .

(٢) آل عمران : ١٢٠ .

(٣) « التقدم العلمى فى هذا العصر وفتنة المسلمين به » : للشيخ زهير الخالد ، من بحوث مؤتمر الدعوة ، نشر فى مجلة الوعى الإسلامى (ص ٢٩ - ٣٧) ، السنة الرابعة عشرة ، العدد (١٦٨) ، ذو الحجة ١٣٩٨ هـ/ نوفمبر ١٩٧٨م .

« إنه ما دام هذا القرآن فى أيدى المصريين (ويقصد بذلك المسلمين) ، فلن يقر لنا قرار فى تلك البلاد ، ولا أن تكون أوروبا فى أمان » .

- كذلك يقول المبشر وليم جيفورد بالكراف : « متى توارى القرآن ومدينة مكة من بلاد العرب ، يمكننا حينئذ أن نرى العربى (ويقصد المسلم) يتدرج فى طريق الحضارة بعيداً عن محمد وكتابه » .

- ويقول أحد حكام الجزائر الفرنسيين - بمناسبة مرور مائة عام على استعمارها - : يجب أن نزيل القرآن العربى من وجودهم . . . ونقتلع اللسان العربى من ألسنتهم ، حتى ننتصر عليهم » .

والشواهد كثيرة على تعرف الغرب الصليبى على سر استعصاء المسلم عليه .

ولكن الغرب عرف إلى جانب هذا ، وبواسطة رسله ، الحال التى وصل إليها المسلمون ، وأن عقد الاستعصاء والمناعة ضد التأثير بغير الإسلام ، وهنت وبدأت تنحل، وتتفكك بسبب بعد أجيال المسلمين عن الإسلام ، وجهلهم به وبمنهجه فى الحياة ، وما خيم عليهم من جمود فكرى وغير فكرى ، ومن ثم راحت قوى الغرب تنشط ، مستغلة الحال التى صار إليها المسلمون فى إفريقيا ، وتحتال بكل ما أوتيت من حيل وأساليب ومكر ، لإخراج أجيال المسلمين من الإسلام ، بتنصير أفكارها الذى عبروا عنه بالتغريب، وصرفهم عن الأخذ بأسباب التقدم الحق .

هذا ، ولقد كانت أخطر الجسور التى عبروا عليها لاغتيال عقول الناشئة من أبناء المسلمين فى إفريقيا هى [(١)] :

١ - الإرساليات التنصيرية (والمسماة بالإرساليات التبشيرية) .

٢ - دوائر الاستشراق .

٣ - السياسات التعليمية التى وضعوها لأبناء المسلمين فى مدارسهم الحكومية ، بحيث نجحوا فى القضاء على اللغة العربية ، وإحلال لغتهم الأجنبية محلها .

● آثار التبشير فى تخريب المجتمعات الإسلامية فى إفريقيا :

جاءت الإرساليات التنصيرية تغزو مجتمعات المسلمين فى إفريقيا ، مستغلة الحال التى صار إليها المسلمون ، وكذلك الحماية التى بسطتها لها دولها الاستعمارية ، فأقامت العديد من المؤسسات التنصيرية كالمدارس والمستشفيات والصحف والمجلات والجمعيات و. . . . ، واندس قسسها ورهبانها بين المسلمين ، لا سيما جهلتهم وعوامهم ، ونشطوا

---

(١) « التقدم العلمى فى هذا العصر وفتنة المسلمين به » ، للشيخ زهير الخالد ، مرجع سابق (ص ٣٥ - ٣٧) .

بينهم يقدمون لهم أنواعاً مختلفة من المساعدات ، ليستحوذوا عليهم ، وينصروهم ، أو على الأقل يجعلونهم يسيرون فى طريق التنصر ، وذلك بنشر أساليب التفكير النصرانى والحياة الغربية ، وعاداتها وتقاليدها ، ومفاهيمها وتصوراتها ، إذ من المؤكد أن الإسلام ينحسر فى نفس المسلم وتفكيره وحياته وبيئته ، بقدر ما يقتبس من غيره فى هذه المجالات .

ورد فى كتاب الغارة على العالم الإسلامى لشاتلييه :

« إن المسلمين يقتبسون من حيث لا يشعرون ، شطراً من المدنية النصرانية ، ويدخلونه فى ارتقائهم الاجتماعى ، مما يجعلها مستعدة لتقليد غيرها ، من غير قصد منها ، ولقد بذلت دوائر الاستشراق جهوداً ضخمة ، لإعادة صياغة التراث الإسلامى ، صياغة تخدم أغراضهم ، وقامت بتحقيق الكثير من الكتب الإسلامية ، والتعليق عليها ، وتوجيهها الوجهة التى يريدونها ، متعمدين طمس معالم التراث الإسلامى الأصيل ، وتسليط الأضواء على ما يكتبونه هم ، وكذلك الانحرافات العقيدية والفكرية فى تاريخ المسلمين ، وذلك حتى لا يجد المسلم المثقف ، غير ما صدر عن دوائر الاستشراق ، سواء كتب بأيدى المستشرقين ، أو بأيدى تلاميذهم من أبناء المسلمين .

وبذلك يستقل الاستشراق بتوجيه المثقف المسلم ، مما أحدث أكبر فتنة فكرية ، عانت منها المجتمعات الإسلامية كلها ، ومنها شعوب إفريقيا .

● كيف يواجه مسلمو إفريقيا تلك الحملات التبشيرية الشرسة [1] ؟

إن مواجهة حملات التنصير هى : مواجهة قوى الباطل ، التى لا تألو جهداً فى محاربة الإسلام ، ومحاولة تطويقه والقضاء عليه ، منذ بدء الدعوة الإسلامية فى مكة ، وهى قضية الوجود الإسلامى نفسه وقضية العقيدة ، وأمانة الدعوة إلى دين الحق ، التى أودعها الله أمانة فى أعناقنا .

إنها قضية التحدى الحقيقى للإرادة والوعى الإسلامى ، ليس بالنسبة لمسلمى إفريقيا فقط، ولكن بالنسبة للأمة الإسلامية بأسرها .

فإذا كان أصحاب سيدنا محمد ﷺ قد عضوا على دينهم بالنواجذ ، وواجهوا كل التحديات ، بإرادة صلبة وعزم لا يلين ، وعقيدة متينة راسخة ، فنصرهم الله نصراً عزيزاً مؤزراً، وانتشروا فى الأرض مبشرين بدين الله ، فإن عجلة الزمان قد دارت دورتها ، وجاء دورنا فى رفع راية الحق عالية خفاقة ، وأن نجاهد فى سبيل ذلك بالنفس والمال ، ليس تفضلاً منا أو سبقاً جديداً سنقوم به ، ولكن لاستنقاذ كرامتنا ، ووجودنا فى الحياة حيث أصبح وجودنا فى مهب الريح ، لأنه لا يحميه عقيدة راسخة ، تمتد جذورها إلى أعماق خمسة عشر قرناً ، وترتفع فروعها إلى عنان السماء .

---

(١) « التقدم العلمى فى هذا العصر وفتنة المسلمين به » ، للشيخ زهير الخالد مرجع سابق .

والإجابة على هذا السؤال ليست مباشرة ، لأنها تشمل البحث فى كل مجالات الحياة: العقائدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية . . . ونظراً لأهمية البحث العلمى ، والذى لن تقوم للمسلمين نهضة إلا به ، فعلينا أن نرجع إلى تجارب المصلحين ، خلال التاريخ الحديث ونرى محصلة جهودهم وتجاربهم ، على أن يكون فى خلفيتنا ، أن كل تجربة كانت نتيجة الظروف التى أحاطت بكل مصلح ، فلا تكون نظرتنا محدودة ، بل علينا أن نغترف منها جميعاً إثراء للفكر ، وترشيداً لخطواتنا على طريق الإصلاح ، لأن التحديات التى تواجهنا عاتية ومتشابكة ، ونواحى التخلف التى نعيشها متعددة ، وهذا يستلزم منا رؤية أوسع فى الفكر ، تحتاج كل أنواع خبرات الذين سبقونا على درب النهضة ، وإحياء المجتمعات الإسلامية ، وتخليصها من كيد الصليبية واليهودية والشيوعية ، وكل قوى الشرك التى ترى فى الإسلام خطراً على وجودها ، كما جاء فى مجلة « لاريفو مسلمان » التى تصدر فى باريس على لسان أحد المبشرين ، حيث قال [1] :

« إن الهدف ليس مجرد نشر النصرانية ، بل إخضاع العالم الإسلامى » .

وقال الأب « جيرونر » فى خطاب ألقاه فى أحد المؤتمرات التبشيرية حيث قال :

« إن الإسلام هو مشكلة اليوم التى لا يجب تأجيلها » .

لماذا ؟ لأن الإسلام هو الدين الوحيد الخطر عليهم ، فهو كما يسمونه - دين متحرك زاحف - حيث يمتد بنفسه وبدون أية قوى تساعده ، وهذا هو وجه الخطر فيه .

ونحن بدورنا نقول : إن التبشير هو مشكلة اليوم التى لا يجب تأجيلها .

● كيف واجه المصلحون تيارات التبشير وتخلف الوعى الإسلامى ؟

نسجل هنا بعض تجارب المصلحين ، حتى نجمع محصلة خبرات العالم الإسلامى :

١ - **بدأ السيد أحمد خان ١٨١٧م بدلهى** : رأى أن مبدأ الإصلاح يتم من التربية ، ووسيلة ذلك فى الأخذ بالتعليم الحديث .

وقد عاب عليه البعض ، أنه نادى بضرورة الأخذ بالحضارة الغربية بكاملها ، حتى لا تعود الأمم المتحضرة تزدريهم ، ويحكم عليه العلامة أبو الحسن الندوى : أنه ليس هو صاحب الخطة المنهجية المنشودة ، التى تحتاج إليها عودة الروح للعمل الإسلامى [2] .

---

(١) « الإرساليات التبشيرية مهمتها إخراج المسلمين من الإسلام » : تحقيق (ص ٩٩) فى مجلة منار الإسلام ، العدد (١٢) - السنة الخامسة - ذى الحجة ١٤٠٠ ه/نوفمبر ١٩٨٠م .

(٢) « مستقبل العمل للدعوة الإسلامية » : د . رؤوف شلبى ، من بحوث المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين ، مجلة الأزهر (ص ١٦٠٣) شوال/ذو القعدة ١٣٩٧ هـ - أكتوبر/نوفمبر ١٩٧٧ - تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية .

ويمكن التوفيق بين الرأيين : أنه لا بد من تربية النشء على العقيدة الإسلامية الصحيحة ، ولا مانع فى نفس الوقت من الأخذ بالعلوم الحديثة ، حتى يستطيع المسلمون فى إفريقيا منافسة غيرهم من مواطنيهم ، الذين هيأت لهم مؤسسات التنصير أن يحتلوا مراكز مرموقة ، وذات مسئولية فى دولهم وحكوماتهم (١) .

٢ - **قام زعماء العالم الإسلامى بالهند** ، بنهضة بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨م تزعمها محمد على ، وشوكت على ، وأبو المكارم آزاد ، وقرروا مقاطعة الحكومة الإنجليزية ، فكان ذلك أمضى سلاح سلمى استخدمته الحركة الإسلامية ، وانطلقت موجة عنيفة من السخط الشديد اكتسحت البلاد ، تحمل معها الدعوة إلى مقاطعة البضائع الأجنبية والتنحى عن مظاهر الحضارة المستعمرة ، والتمسك بالبساطة وأساليب الحياة الخاصة الوطنية.

وتزعم قمة الموج العاتى فى تحطيم صنم الحضارة الأوروبية ، كأمل وأمنية للمسلمين المفكر الجليل محمد إقبال (١٨٧٧ - ١٩٣٨م) : فقد أبرز جوانب الضعف فى هذه الحضارة ، والتلوث الذى يصيب به القلب ، والفرد والمجتمع والضمير والفكر (٢) .

وهذه التجربة تناسب مسلمى إفريقيا ، حيث هم فى أشد الحاجة إلى استعادة الهوية الإفريقية ، التى أضعفها المستعمر بزلزلة العقيدة ، واحتقار أساليب الحياة القبلية فى إفريقيا وإضعاف النظام الاجتماعى وتشتيته .

كما أن حركة المقاطعة الاقتصادية لدول الغرب ، تفيد إفريقيا كثيراً فى الحفاظ على ثرواتها ، على أن يعوض ذلك تكامل اقتصادى ، بين دول إفريقيا بعضها البعض ، وبين الدول الإسلامية الأخرى .

٣ - **جمال الدين الأفغانى** (١٨٣٩ - ١٨٩٧م) : عاش فى بلاد فارس والأفغان ، وهى فى حالة ليس بعدها حالة من التنازع والبغضاء ، وكانت الحكومة البريطانية الهندية تستغل هذا الخلاف ، فتغرى إحداهما بالأخرى ، فعرف جمال الدين سياسة التمزيق التى تنشرها الحكومات العدوة ضد المسلمين ، فوضع خطته على أساس التوفيق بين الأمم الإسلامية ، فنادى بفكرة « الجامعة الإسلامية » . ولقد كان يشق عليه كثيراً ، أن يرى العالم الإسلامى متحداً على الخلاف ، مختلفاً على الاتحاد ، مطاوعاً للاستعمار ، فعزم على حسم الخلاف ، وإيصاد الأبواب على المستعمر والمستغل وأبواق الفتنة .

وهذا الطريق أيضاً من الطرق التى يجب أن تبدأها شعوب إفريقيا المسلمة ، فى مواجهة حملات التنصير الشرسة ، لأن أخطر ما تواجهه تلك الشعوب ، هو الصراعات القبلية والطائفية والحزبية ، ونحن ننتهز تلك الفرصة لنناشدهم من أعماق قلوبنا ، أن

---

(١) « فى إفريقيا : حملات صليبية مستمرة وغياب إسلامى مفزع » مرجع سابق (ص ٤٥) .
(٢) « مستقبل العمل للدعوة الإسلامية » - د. رؤوف شلبى - مرجع سابق (ص ١٦٠٦) .

يتركوا تلك الصراعات ، لأن القوى المحيطة بهم تتربص بهم الدوائر ، لتفتك بهم وتقضى عليهم ، وخاصة بعد تفتيت القارة إلى دويلات صغيرة ، يصل بعضها إلى نصف مليون نسمة [(١)] ، ولهم فى قول الله عَزَّ وجَلَّ حبل النجاة من المهالك ، والعروج إلى طريق النور والعزة والكرامة والتقدم : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾ [(٢)] .

﴿ **وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾ [(٣)] .

٤ – **الشيخ محمد عبده** (١٨٤٩ – ١٩٠٥م) : يئس من التعامل مع السياسة فتوجه إلى الإصلاح عن طريق التربية ، وركز على رسالة التعليم ، فوجه جهوده كلها لرفع الحجر عن العقول ، وظن أن إجازة الاجتهاد ، وتفسير أمور الدين ، تفسيراً يطابق العلم الحديث الأوروبى ، كافية لتحقيق الإصلاح .

ونحن نعتبر أن التركيز على رسالة التعليم فى إفريقيا ، خير طريق لمواجهة التبشير ، لأن هذا هو الطريق الذى اتخذته الإرساليات ركيزة لها ، لإحداث التغيير الفكرى والعقائدى لشعوب إفريقيا .

وأن يكون لمناهج التعليم الإسلامى شخصيتها المستقلة ، وأن يحدث فيها تطوراً يلائم عظمة العقيدة الإسلامية ، ويلائم شراسة الهجمات التبشيرية .

ومن المقترحات التى تحقق هذا التطور لمناهج التعليم الإسلامى [(٤)] :

١ – إدخال بعض العلوم مثل مقارنة الأديان والحضارة الإسلامية :

فهذا يفيد فى تدعيم اليقين الذى جاهدت التنصيرية لزعزعته ، فتأخر العالم الإسلامى يرجع قبل كل شىء إلى أن الغرب وحضارته ، عملاً جاهدين على صرفه عن أحكام دينه ومقومات ذاته ، حتى نسى المسلمون أنهم كانوا أصحاب حضارة ، وأن الفكر الأوروبى قام واستيقظ من سباته ، الذى دام نحو عشرة قرون أو يزيد ، على صوت انتشار العلوم والفنون والآداب الإسلامية . وتقول المستشرقة الألمانية هونكة فى كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب » : « إن الحضارة الغربية إنما انبعثت بتأثير الحضارة الإسلامية » [(٥)] .

---

(١) Regional Surveys of the World - Africa south of the Sahara 1993 - 22 nd edition - Europa publications limited .

(٢) آل عمران : ١٠٣ .   (٣) الأنفال : ٤٦ .

(٤) « مناهج التعليم الإسلامى : تاريخها وعوامل انحرافها ، وطرق إصلاحها » : للدكتور أحمد شلبى ، من بحوث المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين ، (ص ١٥٧٣) .

(٥) « إلى حضارة الإسلام » : د . محمد عبد المنعم خفاجى ، منار الإسلام القرن الخامس عشر الهجرى – عدد خاص محرم (١٤٠٠ هـ/ ديسمبر ١٩٧٩م) .

٢ - تعديل الخط الدراسى لبعض العلوم كالتاريخ الإسلامى ، بحيث يشمل جميع البلاد العربية والإفريقية والآسيوية وحتى الأوروبية ، كنوع من وحدة الترابط ، الناتجة عن وحدة العقيدة .

٣ - إعادة النظر فى خطة بعض العلوم كالفقه الإسلامى : حيث جدت معاملات جديدة على المجتمع الإسلامى ، لا بد أن يقابلها اجتهاد فكرى ، حتى لا يشعر الدارس بهوة انفصالية بين ما يدرسه وما يعيشه فعلاً .

٤ - تطهير بعض العلوم مما دخلها من إسرائيليات وانحرافات : لاستعادة عظمة المنهج الإسلامى فى البحث والتحليل .

٥ - إعادة كتابة الدراسات الإسلامية بأسلوب العصر ومناهجه : حيث يجب التأكيد على حقيقة هامة ، وهى أن مصطلح « العلوم الإسلامية » هو من قبيل العام الذى خصه العرف ، وأن كلمة الدراسات الإسلامية يجوز أن تطلق على كل دراسة تقدم خيراً للبشرية ، وأنه لا فرق فى الإسلام بين دراسة تتناول القرآن والسُّنَّة النبوية ، وأخرى تتناول المادة وخواصها ، ما دامت هذه الدراسة تهيمن عليها الروح العقائدية ، والبواعث التى تهيمن على دراسة العلوم القرآنية وغيرها ، من العلوم التى خصها المدلول المعاصر لمصطلح « العلوم الإسلامية » (١) .

ونواصل تجارب المصلحين فى بعث الوعى الإسلامى :

٥ - **الوهابية النجدية بالحجاز** : كان لها دور فى إيقاظ المجتمع العربى ، الذى تاه وسط عوامل سياسية واجتماعية ، عرقلته عن رسالته الإسلامية الأولى ، وكان لها دور فى الحركات الإصلاحية التى قامت فى إفريقيا ، عندما ذهب قادة القبائل إلى الحج ، وأعجبوا بتلك الحركة وحذوا حذوها فى بلادهم .

وتتركز دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب (١٧٠٣م - ١٧٩١م) على صرف الناس عن البدع الضالة والخرافات والأوهام ، التى لا أصل لها من الدين ، ثم دعوة صريحة إلى الإبداع فى التشريع ، وإطلاق باب الاجتهاد على مصراعيه ، لكل مقتدر عليه ، مستوفى لشروطه ، والاعتماد على القرآن والسُّنَّة وحدهما ، كمصدر للعقيدة والتشريع ، ثم التوسل بالقوة لفرض هذا الإصلاح ، ومد نفوذه إلى العالم الإسلامى ، وقد تحقق هذا بتحالف الوهابية مع أمير الدرعية من آل سعود عام ١٧٤٧م ، وبدأت الفتوح والتوسعات، وأعلن المنهج الثورى فى الإصلاح (٢) .

---

(١) « إلى حضارة الإسلام » : د . محمد عبد المنعم خفاجى ، مرجع سابق .

(٢) « الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا » (ص ١٣١) : د . حسن أحمد محمود - دار الفكر العربى .

وما أشد حاجة مسلمى إفريقيا إلى قادة مصلحين ، ينهجون نهج أسلافهم ، ويقومون بصرف المسلمين عن الجهل الذى يوقعهم فى البدع والخرافات ، لأن المؤمن الحق يكون قادراً على مواجهة كل الفتن التى يبثها دعاة التبشير ، كما أنهم فى حاجة إلى فتح باب الاجتهاد الفكرى ، مدعماً بالقرآن والسُّنَّة ، لاجتياز هوة التخلف العقائدى ، وتشتت الهوية الإسلامية .

٦ - **المحمدية بأندونيسيا** : لم يترك المسلمون الاستعمار الهولندى يمتص خيرات أندونيسيا ويعيث فيها فساداً ، بل جاهد المسلمون فى أندونيسيا جهاداً مريراً ، طوال عدة قرون ، لإخراج المستعمر من بلاد أندونيسيا : فقامت عدة منظمات لهذا الغرض منها[1] :

شركة إسلام التى أسسها الحاج سمنهودى عام ١٩٠٥م ، ثم تطورت برياسة الحاج عمر سعيد شكرو وأمينوتو ، إلى حزب سياسى تجارى ، يتخذ التجارة له ، وسيلة لمقاومة الاستعمار الهولندى .

كما قام الحزب الماشومى الذى يتألف من مجموعة من المنظمات السياسية الإسلامية ، لمواجهة الحركة الشيوعية والإلحادية بعد الاستقلال ، ولكن سوكارنو (الشيوعى) استطاع بألاعيبه أن يفتت هذه الجبهة الإسلامية القوية ، بما عرف عنه من دهاء ولولبية .

فلم يبق فى مجال خدمة الدعوة إلا المحمدية ، التى أسسها كياى محمد دحلان عام ١٩١٢م ، وبقيت إلى اليوم تعمل فى حقل التربية والخدمة الاجتماعية .

● خطوات على الطريق لمواجهة التبشير فى إفريقيا :

نخلص من تجارب المصلحين فى العصر الحديث : أن مواجهة التبشير تستلزم نفس الجهد الذى يبذله المبشرون فى سبيل مهمتهم ، وهو جهد لا شك عظيم ويبذل فيه المال الكثير، وهذا لا بد أن يستثير همة المسلمين فى كل مكان ، للدفاع عن عقيدتهم وكيانهم ووجودهم، ولكى تنجح الجهود المبذولة فى هذا الطريق لا بد من مراعاة الآتى :

- إن مواجهة التبشير تستلزم أولاً وقبل كل شىء ، مواجهة التخلف الذى تعانى منه شعوب إفريقيا ، وهذا يستلزم الاستعانة بكل تجارب المصلحين السابقين : من الوحدة الإسلامية حيث نعيش عصر التكتلات الاقتصادية والتنظيمات السياسية الكبرى . ومن ضرورة الاهتمام بالتربية والخدمة الاجتماعية ، فتلك منافذ الإرساليات التبشيرية ، ولا بد من التكامل الاقتصادى والتبادل الثقافى بين الشعوب الإفريقية المسلمة ، وبينها وبين بقية

(١) مستقبل العمل للدعوة الإسلامية - د . رؤوف شلبى - مرجع سابق .

الشعوب المسلمة فى العالم أجمع ، وكذلك التعاون السياسى والاقتصادى والاجتماعى عن طريق المنظمات الإفريقية .

- إن مواجهة التبشير تستلزم ضرورة إعطاء قيم إسلامية للإنسان الإفريقى ، تمكنه من السيطرة على ذاته ، وترشده فى حركته لعمارة الكون وتسخير موارده ، وذلك كى يتم التوازن فى شخصية الإفريقى المسلم ، وتتهيأ أمامه الفرصة لتكوين شخصية سوية ، تمكنه من اتخاذ القرار السليم ، وشق طريقه فى الحياة ، بخطوات ثابتة وعزيمة لا تلين ، أمام إغراءات الحياة الزائفة .

- لا بد من إجراء دراسة ميدانية لحال المسلمين فى بلاد إفريقيا ، لتقصى احتياجاتهم، وهى تتركز فى : دعاة مخلصون يتقنون اللغة ، التى يستطيعون بها سهولة التخاطب مع أهل البلد ، ولهم خبرة فى مجال الحركة والتنظيم ، كما تتركز فى الحاجة إلى المال لإقامة المدارس والمستشفيات والمراكز الإسلامية ، وهذا يستلزم تنسيق جهود البلاد الإسلامية فى هذا المجال ، تحت لواء جهاز واحد ، لمنع تبدد المعونات فى غير أهدافها المطلوبة [1] .

- توفير البعثات الدراسية لطلبة إفريقيا ، فى معاهد العلم التى تزخر بها البلاد الإسلامية ، التى فتح الله عليها بنعمة العلم والمال ، الذى مكنها من تشييد دور العلم ، وأن تكون تلك البعثات ملائمة لاحتياجات التنمية فى تلك البلاد الإفريقية .

- ضرورة بعث روح الجهاد بكل معانيه : فالأمة التى تواجه الشدائد ، وتكافح الصعاب ، ويعيش أبناؤها فى جهد دائب ، وجهاد متواصل ، هى الأمة التى تستحق الحياة وأن يكتب لها البقاء والظفر ، والأمة التى لا يعرف أبناؤها النصب ولا العناء ، ولا مشقات الجهاد ، هى الأمة التى يتكالب عليها الأعداء ، لقد عرف المسلمون الأوائل أن الحياة جهاد فى سبيل الله ، ليخرجوا الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، فالإيمان والجهاد توأمان ، والوهن والإيمان ضدان لا يجتمعان فى قلب واحد ، فالذى يغلب الوهن على قلبه ، ويشتت الضعف فؤاده ، هو امرؤ نسى إيمانه وارتباطه بخالقه ، وبالتالى أصبح كالشاة الشاردة ، تلتقطها ذئاب التبشير بمنتهى السهولة .

---

(١) « أضواء على شرق إفريقيا » : استطلاع مصور قام به حسين المحسى ، مجلة منار الإسلام ، (ص ٤١) ، العدد (٦) - السنة السابعة - جمادى الآخرة ١٤٠٢ هـ/ أبريل ١٩٨٢م .

ثانياً - اضمحلال التراث الإسلامى :

مفهوم التراث الإسلامى [1] :

إن من أهم المشكلات التى يواجهها المسلمون فى إفريقيا ، هى اضمحلال التراث الإسلامى ، والبعد الفكرى والنفسى عنه ، حتى كادوا يفقدون معه هويتهم الإسلامية ، ولا شك أن هذا من آثار الاستعمار ، وعمليات التبشير التى تكلمنا عنها آنفاً .

وحقيقة التراث هو : تجربة الأمة على طول تاريخها ، وهو ثمرة احتكاكات الأمة وممارستها على طول أجيالها : فى حروبها ومعاهداتها وفى صلحها ، وما يثمره ذلك من اهتمامات واتجاهات وعواطف وانفعالات ، وما يثمره ذلك أيضاً من فنون وآداب وعلوم ، سواء أكان ذلك متوارثاً على هيئة عادات وتقاليد أو كان متوارثاً شفاهاً ، أو متوارثاً مكتوباً .

والتراث بهذا المفهوم هو روح ومعنى وحياة ، تيار يتدفق فى أجيال الأمة على طول تاريخها ، يربط بين سلفها وخلفها ، وينقل للأجيال ثمرات قرائح الأجداد ، بما فيها من علوم وآداب وفنون وأعراف وقيم وأنماط وسلوك ونظم مجتمع ، وتجديد هذه الروح مهمة واجبة ، لكل جيل من الأجيال ، يقوم بإحيائها ، فيكفل للتجربة استمراريتها ، وللروح بقاءها .

بداية الأزمة :

إن الأمم قد تتعرض لغزوات تأتى فى أشكال مختلفة : عسكرية ، ثقافية، واجتماعية، غزو فى الوعى ، وغزو خارج الوعى ، مثلما حدث لشعوب القارة الإفريقية المسلمة .

وعلى مدار التاريخ الاستعمارى ، وعمليات التبشير المكثفة التى استظلت بظله ، فإن أجيالاً من شعوب إفريقيا قد تم تفريغها تفريغاً يكاد يكون كاملاً ، عن ماضيها كله ، من علومه وآدابه وفنونه ، وقد تم هتك العلائق بينها وبينه ، وسار ما كان فى الماضى متكاملاً متماسكاً ، مزقاً متفرقة مبعثرة ، تكاد تكون خالية عندهم من المعنى ومن الدلالة: ولأنه غير ممكن أن يظل التاريخ فارغاً أبداً ، فقد تم ملء هذا الفراغ ، بجديد من العلوم والآداب لا تمت إلى هذا الماضى العريق بصلة .

إن ما أصاب الأمة الإفريقية من التخلف الحضارى والغزو التنصيرى ، هو بسبب

---

(١) محاضرة « نحو خطة واعية لإحياء التراث الإسلامى » ، للدكتور عبد العظيم الديب - مجلة الأمة - العدد الثالث والأربعون - السنة الرابعة - رجب ١٤٠٤ هـ/ أبريل ١٩٨٤م ، (ص ١٧) .

انقطاعها عن التراث ، ليس الانقطاع فقط ، بل وصل الأمر إلى استعداء أبناء الأمة على تراثها يعيبونه ويسبونه ، ويعتبرون تبجحاً ، أن الإسلام هو سبب تخلف إفريقيا .

وحينما ينقطع استمرار تجربة الأمة ، ويضيع منها الطريق ، وحين تفقد الإحساس بماضيها المشرف ، وينتزع تاريخها الإسلامى من ضميرها ، ويزول أثره من مشاعرها وعواطفها ونفسها ، حينئذ تبدأ الأزمة ، وتفقد الأمة قدرتها على الإبداع والصمود ، أمام عواصف الحياة ، ولذلك لا بد من الحرص على التراث ، ومحاولة إحيائه ، وتجلية صورته فى وجدان المسلمين .

لماذا الاهتمام بالتراث ؟

إن الإسلام لا يرفض منجزات الحضارة وعلومها ، فهى ملك لجميع الأمم ، تتوارثها كل أمة عن الأخرى ، حسب دورتها الحضارية ، وتضيف إليها سنة التطور . ولكن تراث الأمة الإسلامى وتجربتها شىء آخر ، فمهما تدرب القرد على عادات الإنسان ، فلن يكون إلا قرداً وحضارة الغرب مادية ، ممكن أن تقود العالم إلى مهالك متردية ، أما حضارة الإسلام فهى حضارة الحب والنجاة للإنسانية ، حيث تجمع التفوق المادى والانبعاث الروحى .

ولكل إفريقى مسلم الحق أن يفخر بعظمة الحضارة الإسلامية فى إفريقيا ، إذا عرف أنه :

- عندما كانت أوروبا تتحاور فى جواز تعلم الحروف والكتابة والقراءة ، كان الخليفة الفاطمى العزيز بالله يرسل المبعوثين لشراء الكتب من كل مكان ، حتى كانت مكتبته تحتوى على أكثر من مليون ونصف من المجلدات المخطوطة ، وكان الحاكم الفاطمى ينشئ فى القاهرة دار الحكمة ، ويملؤها بنفائس المخطوطات ، حتى أن « جلبرت فون أورياك » الذى ارتقى كرسى البابوية فى روما عام ٣٨٩ هـ/ ٩٩٩م باسم البابا « سلفستر الثانى » ، كان يتحسر من أجل ذلك ، ويقول عن مكتبات القاهرة ، التى تحتوى على نحو ثلاثة ملايين من الكتب المخطوطة : إنه لمن المعلوم تماماً ، أنه ليس ثمة أحد فى روما ، له من المعرفة ما يؤهله لأن يعمل بواباً لتلك المكتبات ، وأنى لنا أن نعلم الناس ، ونحن فى حاجة لمن يعلمنا ، إن فاقد الشىء لا يعطيه [(١)] .

- كانت صلة مصر بدول إفريقيا قوية ، حيث كان الحج من أهم عوامل تدعيم العلاقات بين مصر وبين هذه البلاد ، وقد حج إلى مكة كثير من مشاهير سلاطين المسلمين فى هذه الجهات ، واتصلوا أثناء مرورهم بمصر بالسلاطين ، ووجوه الناس

---

(١) « إلى حضارة الإسلام » : د . محمد عبد المنعم خفاجى ، مجلة منار الإسلام (ص ٧٨) - القرن الخامس عشر الهجرى - عدد خاص .

والعلماء وكانت لهم مع مصر مراسلات سجلها ديوان الإنشاء ، مما ساعد على انتشار الدين الإسلامى ، وما تبعه من انتشار الحضارة الإسلامية فى أرجاء إفريقيا (١) .

- كان أهل التكرور (من غرب إفريقيا) أسبق طوائف القارة اتصالاً بمصر فى الناحية الثقافية ، واستقرت منهم طوائف بمصر ، لتشهد حلقات العلم فى الجامع الأزهر ، ولتسمع من شيوخه المبرزين ، وابتنى تجار التكرور بمصر مدرسة للمالكية ، عرفت باسم مدرسة بن رشيق ، وأصبحت مثابة لطلاب العلم من بلاد التكرور ، وبعضهم وفد على مصر ، بقصد الانقطاع والعبادة والانتظام فى سلك الطرق الصوفية .

- اشتهر شمال إفريقيا بمعالم ثقافية وحصون فكرية ، كانت منارات هدى لشعوب إفريقيا حوالى ألف سنة منها : الزيتونة ، الأزهر ، القيروان ، القرويين ، تلك الحصون الثقافية الإسلامية ، استطاعت أن تواجه تحديات التغريب رغم ضراوته ، وتحافظ على أصالة الدين وعلى اللغة العربية من معاول هدم المعتدين (٢) .

- قامت جماعات مسلمة من أهل إفريقيا المخلصين ، بإنشاء مدن ما زال لها شأن كبير فى تاريخ الإسلام فى إفريقيا ، مثل تمبكت التى كان لها دور كبير كمركز للثقافة الإسلامية ، حيث كان لها اتصال وثيق بجامعات المغرب مثل فاس والقيروان .

وهكذا فالاهتمام بالتراث معناه : تجديد صور التراث المختلفة وأوعيته المتنوعة ، وجعلها فى متناول الأجيال لاستعادة أصالتها ، وإحاطة تراثها بما يجب له من التقدير والاحترام ، فتستلهمها فى حركتها وانطلاقها فى الحياة .

ولا يعنى هذا أن نعود بالإنسانية إلى الوراء وإلى عصور خلت - كما زعم البعض - فلا يتصور أن يعيش المسلمون حالياً على طب الزهاوى وابن النفيس ، ولا كيمياء جابر ابن حيان ، ولا بصريات الحسن بن الهيثم ، ولا رياضيات البيرونى ، ولا هندسة بن موسى والجزرى . إنما المقصود أن نعود إلى ماضينا وتاريخنا ، نستطلعه فندرسه ونعيه ونجعله قائماً بذاكرتنا ، حياً فى نفوسنا ، وعندها سيكون أثره فى واقع حياتنا تلقائياً سارياً ، فنستعيد به كرامتنا وشخصيتنا الأصيلة ، فنتدارك ما فاتنا من تخلف ، ونشق خطواتنا فى الحياة بأقدام ثابتة ، نابعة من قوة العقيدة وما تبعثه من عزم الإرادة .

---

(١) « الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا » ، (ص ١٨٨ - ١٩٠) : د . حسن أحمد محمود ، دار الفكر العربى .

(٢) « الحصون الثقافية تواجه تحديات التغريب » : استطلاع مصور فى مجلة الأمة (ص ١٧ - ٣١) العدد (١٩) - السنة الثانية - رجب ١٤٠٢ هـ/ مايو ١٩٨٢م .

● تجربة إفريقية لإحياء التراث الإسلامى [1] :

إن إحياء التراث الإسلامى ليس بالأمر الهين ، ويتطلب تضافر جميع الجهود الإسلامية فى هذا الميدان ، لأنه باستثناء شمال القارة ، فإن بقية القارة تعانى من نقص الدعاة الأكفاء ، وقلة الإمكانيات المادية ، وعدم توافر الكتب والمراجع الإسلامية ، وفوق هذا وذاك ، عدم توافر الذين يجيدون اللغة العربية وأصولها وقواعدها ، التى تمكنهم من الخوض فى بحار التاريخ .

وتأكيداً لهذا الكلام : نعرض تجربة الشيخ عبد الحميد بن باديس ، فى محاولته لبعث حياة جديدة فى أرض الجزائر ، متمثلة فى النهج الإسلامى الصحيح ، وقد نجحت تجربته إلى حد كبير ، لأنه كان يدعمها جهود المخلصين من أبناء الجزائر .

ولكن نظراً لأن الجزائر كانت تئن تحت الاستعمار الفرنسى ، فكان لا بد من تفجر الصدام بين المعسكرين ، لأن القضية لدى كل منهما هى : « نكون أو لا نكون » ، وهو ما يتطلب تضافر الجهود الإسلامية جميعها ، لمواجهة التحديات ، والانتصار عليها ، مهما كانت صعوبتها .

أدرك الشيخ ابن باديس أن الطريق الأمثل لاسترداد الجزائر شخصيتها ، هو إحياء مبادئ الإسلام الصحيحة ، ومناهضة سياسة الاستعمار وأساليبه فى التبشير ، وفى العدوان على اللغة العربية والثقافة القومية ، وما خلفته من ظواهر ضارة فى المجتمع توشك أن تعود به القهقرى ، إلى ظلمات الجهالة والتخلف ، وتقطع ما بينه وبين العالم الإسلامى من روابط تاريخية وروحية ، يدل على ذلك أن الجزائر كانت تحفل قبل الاحتلال بالمدارس سواء فى المدن أو القرى ، وقد قدر « أوجين كومب » رئيس مجلس الشيوخ الفرنسى عددها ، بأكثر من ألفى مدرسة ابتدائية وثانوية وعالية ، فضلاً عن مئات المساجد التى كانت تعنى بتلقين اللغة العربية ، وكاد هذا البناء الحضارى أن ينهدم تحت سنابك المستعمر ، الذى أطفأ هذه المنارات العلمية ، ليجعل أعزة أهل البلاد أذلة ، تحت وطأة الأمية والجهل فيسهل له قيادهم .

كيف حاول المستعمر القضاء على التراث الإسلامى ؟

إننا نعرض تجربة الجزائر كنموذج لدور المستعمر فى كل دول إفريقيا ، حيث لم يختلف منهجه كثيراً فى دولة عن أخرى ، وعلينا إذا أردنا الإحياء ، أن نتتبع خطوات الإماتة التى انتهجها المستعمر فنبعث فيها الحياة :

---

(١) « مكافحة التبشير فى الجزائر » : د . حسن فتح الباب (ص ٥٨ - ٦٧) - مجلة الوعى الإسلامى - العدد (٢٣٤) جمادى الآخرة ١٤٠٤ هـ/ مارس ١٩٨٤م .

- استولت السلطات الفرنسية على الأوقاف ، وكانت من ضمنها المدارس ، فانقطع المصدر المالى الذى كان يمول التعليم ، فتفرق العلماء وتشتت المدرسون والطلاب ، وكان فى قسطنطينية - مدينة الشيخ ابن باديس - سنة ١٨٣٧م حين غزاها الفرنسيون ست وثمانون مدرسة ، فلم يبق منها بعد تسع سنوات من الاحتلال إلا ثلاثون مدرسة ، واتخذ الفرنسيون من المدارس ، مخازن وثكنات وحظائر لخيولهم كما فعلوا بالمساجد ، وكذلك الشأن فى مدينة عنابة ، إذ كان بها قبل الاحتلال تسع وثلاثون مدرسة ، فلم يبق منها بعده سوى ثلاث مدارس .

- حرَّم المستعمرون استعمال اللغة العربية فى المكاتبات الرسمية ، وأوجبوا إصدار الأحكام باللغة الفرنسية . واستمر ذلك سنوات طوال ، حتى أصدر « شوتان » وزير الداخلية الفرنسى ، بعد نيف ومائة عام من الاحتلال ، قراراً باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية فى الجزائر ، يحظر تعليمها أو التعلم بها !! وكانت حربهم عليها واضطهادهم أهلها بسجنهم ونفيهم ، بل إعدامهم أحياناً ، انطلاقاً من حربهم على الإسلام ، باعتبار العربية لغة القرآن الكريم ، ولسان الإسلام ديناً وحضارة ، والوعاء الذى يحتوى أهم العناصر المكونة للروح ، والشخصية القومية والثقافية للأمة ، فلا يتم فصل الجزائريين عن دينهم ، إلا بفصلهم عن اللغة العربية .

- كان فتح مدرسة أو فتح مؤسسة دينية ، تجمع أكثر من عشرين شخصاً ، ولو لغرض ثقافى ، يستوجب العقاب بمقتضى القانون ، ثم تراجعت السلطة الفرنسية خشية الانفجار الشعبى ، فأجازت فتح المدارس بعد الحصول على ترخيص منها ، وكان ذلك من أشق الأمور لكثرة الشروط المفروضة .

- شجع الفرنسيون بعض المنحرفين فى فكرهم وممارستهم عن جوهر الإسلام ، الغارقين فى التهاويم والشعوذة والخرافات ، المعادين للعلماء الجزائريين ذوى الفهم الصحيح والإيمان الواعى الصادق ، فكان معظم هؤلاء المنحرفين يتلقون العون المادى والمعنوى من السلطات الفرنسية ليحاربوا أولئك العلماء الصالحين ويصرفوا الناس عنهم ، وقد انتشروا فى الأماكن النائية المعزولة عن المدن ، واتخذوا منها مرتعاً خصباً لبث دعاويهم وأباطيلهم مستغلين الأمية المتفشية وسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية .

● ابن باديس ومنهجه فى الفكر الإصلاحى :

- وعى الشيخ عبد الحميد بن باديس عِلَّة الواقع السقيم لبلده ، وأعمل فكره فى التماس العلاج ، فوجد ضالته فى النهج الإصلاحى الإسلامى ، الذى استنه من قبل الأفغانى ومحمد عبده ، والذى كانت الصحف التى تصدر باسمه فى المشرق ، وعلى

رأسها العروة الوثقى ، تخترق أشعتها المغرب رغم الحصار المضروب ، كذلك كانت هنالك بعض الكتب التى ترد من مصر ، وبعض الأقطار العربية الأخرى ، فضلاً عن المؤلفات والمراجع ، التى تضمها المكتبات الخاصة فى الجزائر

- وفى ضوء هذا الفكر ، أعلن ابن باديس دعوته تحت شعار « الإسلام ديننا ، والعربية لغتنا ، والجزائر وطننا » ، وسعى إلى جعله واقعاً معيشياً ، فانضمت إليه الصفوة من رجال الدين والتعليم ، ومختلف الفئات المثقفة .

- وصف المفكر الإسلامى مالك بن نبى ، الشيخ بن باديس بقوله : إنه المصلح الذى استعاد موهبة العالم المسلم ، كما كانت فى عصر تومرت بإفريقيا الشمالية .

- قام مذهبه الإصلاحى على ضرورة الرجوع إلى السلف ، إذ لم يكن القيام بأى عمل فى النظام السياسى أو الاجتماعى أو غيره ممكناً ، قبل تحرير الضمائر استناداً إلى قول الله عزَّ وجَلَّ . ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ [1] .

أنشأ جمعية العلماء الجزائريين المسلمين سنة ١٩٣١م التى ركزت نشاطها على إنشاء المدارس الحرة الشعبية ، لإحياء الدين واللغة العربية ، ولم تكن تلك المدارس مجرد كتاتيب لتعليم مبادئ القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن على النمط التقليدى ، بل كانت إلى جانب ذلك مراكز لتنوير وبث الوعى ، ومنارات للمعرفة العصرية ، ومن ثم دعا ابن باديس إلى دراسة علم الأخلاق وعلم النفس ، واعتبر هذه الدراسة مبدأ أساسياً فى مناهج التربية والتعليم

- انتقد طرق التعليم فى عصره قائلاً : « إن التعليم القديم غير نافع فى زماننا لنقصانه ، إذ أن تعليم القرآن وحده ، على الكيفية المألوفة عندنا بهذه الأقطار ، لا يفيد المتعلم، فلا بد من معرفة العلوم النافعة فى الدين والدنيا ، أما إذا اقتصرنا على أحد العلمين ، ضاع ما يفتقر لذلك العلم المجهول ، ولكن أهل زماننا تركوا العلمين معاً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، نعم إنه يوجد بعض العلماء ولكن صاروا لقلتهم كالعدم » .

- لم يغفل المصلح الجزائرى عن جانب مهم من الحياة الاجتماعية الإسلامية وهو : «خطبة الجمعة » فدعا إلى إصلاحها ، وأشار إلى الحضارة الإسلامية وتاريخها ، واستشهد بأقوال الأجانب مما يدل على سعة اطلاعه .

- إلى جانب النهضة التعليمية الإسلامية ، أصدرت الجمعية برئاسة الشيخ ابن باديس عدة صحف ، تنطق بلسانها وتبث دعوتها ، إدراكاً منها لما تلعبه الصحافة من دور كبير

(١) الرعد ١١

فى تشكيل اتجاهات الرأى العام ، ودحضاً للدعاوى الباطلة ، التى تنشرها الصحف الاستعمارية فى الجزائر ، ولأن كل الحركات التاريخية بدأت بإصدار الصحف والمجلات .

– أخذ الإمام ابن باديس يوقع مقالاته فى صحف الجمعية ، بأسماء تعيد إلى الأذهان أمجاد الماضى الذى حاول الاستعمار دفنه ، كما صارت الصحف تنشر الأنباء عن الثورة السورية ، وثورة عبد الكريم الخطابى فى المغرب ، وعن البطولات الليبية ضد الطليان ، وعن قضية فلسطين لكى يشعر القارئ بأنه جزء من أمة عريقة تنتفض لنيل حريتها ، ومن طيات التراث بدأت تتردد قصص البطولة الإسلامية .

– بدأت اتجاهات ابن باديس نحو تربية الشبيبة وإعدادها للمعركة الحاسمة ، فباسمه يرتبط إنشاء الفرق الرياضية والكشفية ، التى كانت تعبيراً واضحاً عن يقظة الوعى القومى ، والاستعداد للجهاد فى سبيل التحرر واسترداد الشخصية الإسلامية العربية .

وهكذا استعرضنا تجربة ابن باديس ، كنموذج يلائم شعوب إفريقيا ، لاستعادة شخصيتها الإسلامية ، واستعادة هويتها وكرامتها وبالتالى استعادة حضارتها .

وإذا أضفنا إلى ذلك ضرورة تضافر الجهود الإسلامية ، فى مد شعوب إفريقيا المسلمة بالدعاة والكتب والبعثات العلمية وإنشاء المراكز العلمية ، فإن هذا سيخرج تلك الشعوب من رقدتها وينتشلها من غفوتها ، ويكون عوناً لها على اجتياز أزمة اضمحلال الثقافة والتراث الإسلامى ، وفى هذا خير لو تعلمون عظيم .

ثالثاً – غياب الإعلام الإسلامى باللغات الإفريقية المتداولة :

دور وسائل الإعلام فى نشر الدعوة الإسلامية :

إن وسائل الإعلام هى المجال الخصب ، الذى يشكل عقلية الشعوب واتجاهاتها ، وتعتبر من أخطر الوسائل فى التأثير على الرأى العام ، وتكتسب تلك الأهمية من أنها تتمتع بالقدرة على اجتذاب الجماهير ، بما تتضمنه من مشوقات وجوانب ترويحية ، والوصول إلى وجدان المشاهدين والمستمعين والقارئين على اختلاف مستوياتهم ، وقد ساعد التقدم الهائل فى وسائل الاتصال ، على سهولة انتشارها وقلة تكاليفها ، ويمكن عن طريق وسائل الإعلام خدمة الدعوة الإسلامية فى المجالات الآتية :

– عرض الفكر الإسلامى بصورته النقية ، بعيدة عن شطحات اليمين واليسار ، وبوسائل ملائمة لعصرنا الذى نعيشه (1) .

---

(1) « مسئولية الإعلام الإسلامى » ، منار الإسلام (ص ٤) ، أستاذ على محمد العجلة ، العدد (٤) – السنة السابعة – ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ/ فبراير ١٩٨٢م .

- طرح التصورات الإسلامية للنهوض بالأمة من عثراتها ، فى كافة الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

- كشف التاريخ الإسلامى بما يعيد للأمة كرامتها وعزتها ، وكشف الفتن التى تدبر للمسلمين ، حتى يكونوا على حذر بدفعهم إلى توحيد صفوفهم .

- يمكن نشر اللغة العربية التى تصل المسلمين بالكتاب والسُّنَّة ، وهذا فيه إثراء للفكر والعقيدة .

- العمل على تربية الأمة المجاهدة ، وإنعاش روح الجهاد ، التى كادت تخبو من نفوس المسلمين ، فخلدوا إلى التكاسل والاعتماد على الغير فى تدبير معاشهم .

هل توجد وسائل إعلام إسلامية فى إفريقيا ؟

إن الرد على هذا السؤال يمكن معرفته من حديث صحفى عربى جال فى شرق إفريقيا ، حيث يقول [1] : « إن الحملة الإعلامية ضد العرب والمسلمين هنا لها جذور قوية ، ولا يوجد من يتصدى لها ، حتى من الدول العربية التى تقدم لمعونات والقروض للحكومات الإفريقية ، فالكتب الدراسية مثلاً لا زالت تقول : إن العرب كانوا يأخذون أبناء البلاد ويبيعونهم فى الأسواق ، وكثيراً ما تجد فى بعض صفحات تلك الكتب ، صوراً مرسومة تصور عربياً يجر عدداً من العبيد المقيدين بالحبال ، فهل قام العرب بتوزيع كتاب مضاد يقول للأفارقة : إن البرتغاليين والبريطانيين هم الذين ساقوا أربعة عشر مليوناً من أبناء إفريقيا ، باعوهم عبيداً فى أسواق أوروبا وأمريكا ؟

والكنائس النصرانية تستأجر محطات التليفزيون لعدة ساعات أسبوعياً ، للتبشير بالنصرانية ، فهل فكرت إحدى الموسسات العربية الإسلامية فى استئجار التليفزيون ، ولو لمدة نصف ساعة فى الأسبوع لخدمة الدعوة الإسلامية ؟ أو لطرح بعض الحقائق التاريخية عن استغلال الأوروبيين للأفارقة ، والتى وردت فى بعض الكتب لكتاب غربيين ، أبت ضمائرهم إلا أن ينصفوا الحقيقة للتاريخ ؟

ويختتم حديثه قائلاً : إننا نسوق هذا الكلام ، أملاً فى أن يكون له صدى ، فى أوساط المؤسسات القادرة على التصدى للإعلام المضاد ، لتؤدى واجبها حيال أخوة لها فى إفريقيا ، ووفاء بأمانة العقيدة التى أوكلها الله فى أعناقنا .

وفى حديث آخر للشيخ قاسم مولومبا ، المفتى المؤقت لأوغندا ، وقاضى قضاتها ، رداً

---

(١) « أضواء على شرق إفريقيا » (ص ٧٠ - ٩٩) ، بقلم وعدسة عبد الفتاح سعيد ، منار الإسلام العدد (١٢) - السنة السادسة - ذى الحجة ١٤٠١ هـ/ أكتوبر ١٩٨١م

على سؤال عن مستقبل المسلمين فى إفريقيا ، أجاب [1] : إن تقصير المسلمين العرب فى توجيه الدعاة إلى إفريقيا ، هو الذى أوصلنا إلى ما نحن فيه ، فالإسلام دخل إلى أوغندا مثلاً عام ١٨٤٤م ، ولم يكن أمامه دين ينافسه ، ولكن البلاد لم تشهد أى داعية متفرغ لتعليم الناس ونشر الدين ، باستثناء بعض التجار العرب ، الذين عرف الناس الإسلام منهم .

وجاءت المسيحية عام ١٨٧٧م يحملها مبشرون متفرغون دهاة ، لم يتركوا حلية أو فتنة توصلهم إلى هدفهم إلا ومارسوها ، وخرجوا فى مدارسهم جيلاً من الشباب ، الذين نصروهم وعلموهم وأعدوهم للحكم ، وبذلك تحولت البلاد إلى دولة مسيحية ، فإذا أراد العرب أن يخدموا دينهم ، فعليهم أن يسارعوا بإنشاء إذاعة موجهة لإفريقيا ، تجلو للناس الحقائق ، وتعلمهم الإسلام باللغة السواحلية (وهى لغة المسلمين التى تكتب بالأحرف العربية) على أن تتطور بعد ذلك إلى توجيه برامج أخرى ببعض اللغات الإفريقية .

● الإعلام الإسلامى ضرورة تعدل الجهاد فى سبيل الله :

لا نجد أمام هذا الغياب المفزع للإعلام الإسلامى فى إفريقيا ، إلا أن نستثير حماس وهمة المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية ، فهم ليسوا أقل وفاء وإخلاصاً من أصحاب الملل الأخرى لعقائدهم ، الذين يسخرون وسائل الإعلام لخدمة فلسفاتهم ، خدمة لا نقص فيها ولا تناقص ، وتنشئ الأجيال على الاندماج بها والوفاء لها ، بل على العكس فإن المسلمين أشد حباً لله ، وأشد تفانياً له ، وتضحية بالمال والجهد فى سبيل رفع راية الإسلام خفاقة ، تظل بظلها الوارف جميع شعوب الأرض المستضعفة : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب** ﴾ [2] .

إن الاهتمام بالإعلام الإسلامى ضرورة تعدل الجهاد فى سبيل الله ، لأنه جهاد فى سبيل أن تكون كلمة الله هى العليا ، جهاد بالكلمة والصورة والقلم ، لتحرير عقول الناس من خرافات جاهلية العصر الحديث ، وشهواته التى يئن تحتها ، جهاد لتحرير الوجدان من سيطرة البريق الزائف والدعاوى الباطلة ، جهاد لإنقاذ البشرية من آلامها ومحنها ومصائبها ، برفع كلمة الحق ونشر مبادئ الخير والسلام والعدل ، جهاد لصقل الرأى العام وتحريره من ضلال الباطل .

وقد علمنا القرآن الكريم كيف نخاطب الناس بأرقى الأساليب الإعلامية ، واستثمار

---

(١) « أوغندا جنة إفريقيا » (ص ٣٤ - ٦٥) : بقلم وعدسة عبد الفتاح سعيد - منار الإسلام - العدد (٢) - السنة السابعة - صفر ١٤٠٢ هـ/ ديسمبر ١٩٨١م .

(٢) البقرة : ١٦٥ .

الطرق السلمية فى التأثير ، مع مراعاة جانب هام ، وهو ملاحظة صفة التقوى والصدق والتجرد وإبراز الحقائق ، ولا خيار إن كانت لنا أو علينا ، ولنا فى رسل **الله** أسوة حسنة، فقد كانت وظيفتهم كلهم عليهم السلام ، هى إعلام الناس بوجود الخالق الحق وهداية الناس إلى طريق الخير والرشاد ، فهم رجال الدعوة ، وصوتها الناطق الهادر المؤثر(١) .

كما علمنا القرآن الكريم الجد والسعى فى الحياة ، ونهانا عن التكاسل والاعتماد على الغير ، لأن القيمة الحقيقة للإنسان ، هى أن يستثمر عقله وطاقاته ، فى سبيل تحقيق رضا الله سبحانه ، وجدير بالإنسان المسلم الواعى ، أن يستثمر كل لحظة من لحظات حياته فى مرضاة الله ، بالعمل الجاد لبناء الأرض وإعمارها ، واستخدام كل الوسائل المتاحة للدعوة إلى دين التوحيد والعقيدة الراقية .

إن الإعلام الإسلامى الذى يتخذ من القرآن الكريم نبراساً وهادياً ، جدير باستخدام كل التقنية الحديثة ، فى سبيل توصيل رسالة الإسلام إلى البشرية جمعاء ، وهل هناك أنفع من تبليغ رسالة سماوية ، تعالج جميع مشاكل الإنسانية المعذبة فى هذا العالم المضطرب ؟

ومسلمو إفريقيا معذبون بغياب الوعى الإسلامى ، نتيجة الاستعمار وحملات التبشير المستمرة ، وهم فى أشد الاحتياج إلى إعلام إسلامى قائم على فن صياغة الكلمة ، وفن التأثير على الناس ، وفن تنقية الأجواء النفسية ، وفن حسن استخدام الإذاعة والتليفزيون والصحافة والسينما والكتب والمعارض والمحاضرات والندوات ، و . . . لنقل الكلمة الهادفة الواعية ، نقلاً محبباً سليماً ، بعيداً عن التكرار والتطويل والملل ، وأهم من هذا كله يكون بلغة يفهمونها ، ويجيدون التعامل معها ، ويرتبطون من خلالها بالعالم الإسلامى .

فهل من مجيب ؟ اللهم وفق المجاهدين المخلصين ، إلى مد العون إلى إخوانهم المسلمين الإفريقيين فى هذا المجال الحيوى ، ألا وهو مجال الإعلام .

رابعاً - مشكلات تتعلق بتوجيه الدعم وصراع الأشقاء :

أولاً - بالنسبة لأهمية الدعم لشعوب إفريقيا المسلمة :

لا أحد ينكر احتياج المسلمين الشديد فى إفريقيا ، لدعم إخوانهم المسلمين ، العرب

---

(١) « الإعلام الإسلامى وتحديات العصر » : د . زهير الأعرجى - منار الإسلام - (ص ٤٦) ، العدد (٣) - السنة العاشرة - ربيع الأول ١٤٠٥ هـ/ ديسمبر ١٩٨٤م .

لمواجهة التبشير الكنسى النصرانى ، المدعوم بكل الإمكانيات المادية والمعنوية ، بواسطة المؤسسات الكنسية العالمية من كل لون وجنس .

ففى جولة أحد الصحفيين العرب فى بوروندى [1] : رأى كيف يعيش المسلمون فى بؤس وفقر شديدين ، حيث البيوت فى شكل حجرات صغيرة ملتصقة مع بعضها البعض، وقد بنيت من الطين وسقوفها من قطع الحديد والصفيح الصدئة ، ولا توجد خدمات حكومية للمسلمين : لا مدارس ولا مستشفيات ولا شوارع مسفلتة ، والمساجد متواضعة للغاية ، بناها المسلمون بإمكانياتهم المتواضعة ، التى اقتطعوها من أقواتهم وقوت عيالهم .

هذا وفى المقابل : حال النصارى وكنائسهم ، ومؤسساتهم التعليمية والعلاجية ، وأماكن سكنهم ، فهى تقع فى أجمل الأماكن فى البلاد ، نظيفة تشرح نفس كل زائر لها، والطرق مسفلتة جميلة ، تحيط بها الحدائق والأشجار والأزهار ، ولا يختلف الحال كثيراً فى دولة إفريقية عن أخرى ، حيث جميع الدول الإفريقية المسلمة ، تعانى من نقص الإمكانيات المادية ، المتمثلة فى عاملين رئيسيين :

١ - الأموال لبناء المدارس والمساجد والمراكز العلمية .

٢ - الداعى الكفء الذى يجيد العربية ، ولغة البلد الإفريقية التى يعمل بها ، وأن يكون أسلوبه متطوراً يلائم روح العصر .

وهذا يهيب بالدول الإسلامية الغنية (وخاصة العربية) أن تمد يد العون ، إلى أخوة لها فى الله ، لتحقق لهم العزة والكرامة ، التى تليق بانتمائهم إلى ذلك الدين القيم .

ولكن كيف يتم توجيه هذا الدعم ؟

- الجميع يجمع على أن هذا الدعم ينبغى أن لا يوضع فى يد الحكومة أو أيدى أفراد، وإنما ينبغى أن يكون هناك مجلس من سفراء الدول العربية الإسلامية ، يباشر تنفيذ المشاريع ويتأكد من إنفاق الدعم فى الأغراض الإسلامية ، من أجل رفع مستوى المسلمين، ودعم نشاطهم الرامى إلى تصحيح مفاهيم وعادات وتقاليد المسلمين ، وجمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم [2] .

- ويقول الشباب المسلم فى تانزانيا : إن الأمريكيين والروس والصينيين وغيرهم ،

---

(١) « أضواء على شرق إفريقيا » - استطلاع مصور قام به حسين المحسنى مجلة منار الإسلام (ص ٤١) العدد (٦) - السنة السابعة - جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ - أبريل ١٩٨٢م .

(٢) « أضواء على شرق إفريقيا » (أوغندا - تانزانيا) : بقلم وعدسة عبد الفتاح سعيد (ص ٤٩)، منار الإسلام - العدد الرابع - السنة السابعة - ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ/ فبراير ١٩٨٢م .

حين يريدون المساعدة فى مشروع اجتماعى أو استثمارى أو غيره ، يقومون بتنفيذ المشروع من حيث البناء والتجهيز وتدريب الأفارقة عليه ، ثم يسلمون المشروع بعد ذلك ليؤدى رسالته ، والمطلوب من الدول والمؤسسات الإسلامية التى تقدم المساعدات ، أن تنهج هذا المنهج لعدم تعريض أموال المساعدات الإسلامية لمطامع مرضى النفوس ، من المتاجرين باسم الإسلام ، وعلى حساب مصالح المسلمين (١) .

- ويقول نفس هؤلاء الشباب : إن إرساليات التبشير ومن يساندها من النصارى ، الذين يمسكون بزمام السلطة فى البلاد ، يقدمون كافة الخدمات للطلبة غير المسلمين . أما الطالب المسلم ، فإنه لا يجد من يقف إلى جانبه ، وقليل منهم من يتمكن من الحصول على منحة دراسية فى الدول الإسلامية ، ومع ذلك فإن معظم المنح مخصصة للدراسات الإسلامية ، وهذه لا مستقبل لها فى البلاد ، لهذا من الضرورى أن تخصص للطلبة المسلمين الأفارقة منح للدراسات العصرية مع الدراسات الدينية ، حتى يجدوا لأنفسهم مجالاً للعمل فى بلادهم بعد ذلك ، فى مختلف المجالات الإدارية والفنية والاجتماعية .

- يحتاج رجال التعليم فى أوغندا حاجة ماسة ، إلى مراجع وكتب إسلامية تساعدهم على أداء مهمتهم ، ومراجع مثل صحيح البخارى وصحيح مسلم وكتب التفسير وكتب الفقه المبسطة والتاريخ والسيرة ، فأوغندا كما يقولون هى البلد الوحيد الذى لا يمكن الحصول فيه على الكتاب الإسلامى ، على أن هذه الكتب - لو أرسلت - ينبغى أن يكون ذلك عن طريق إحدى السفارات الإسلامية لضمان وصولها (٢) .

- كما يوجد فى أوغندا أكثر من خمسة ملايين مسلم ، يحتاجون إلى تخصيص عدد من المنح الدراسية الإسلامية (فى جامعات ومعاهد الدول العربية) لدراسة اللغة والدين والعودة إلى بلادهم كدعاة ومعلمين . ومن الضرورى ألا تكون هذه المنح عن طريق شخص واحد ، حتى لا يخضع الاختيار للمصالح والأهواء ، وإنما يجب أن يكون عبر لجنة عربية إسلامية ، تأتى إلى البلاد كل عام لمقابلة الطلبة الذين تتوفر فيهم الشروط واختيار المناسب منهم .

إن عملية الدعم يجب أن تتم بوعى ويقظة شديدين ، حتى لا تضيع أموال المسلمين هباء، وحتى تأتى ثمارها المطلوبة ، ولا تكون سبباً فى النزاع والشقاق بين المسلمين : كما يقول لنا الصحفى الذى قام بتحقيق عن شرق إفريقيا ومنها كينيا : إنه يوجد فى كينيا

---

(١) نفس المرجع السابق ، (ص٥٣) .

(٢) أوغندا جنة أفريقيا (ص ٥٣) - بقلم وعدسة عبد الفتاح سعيد - منار الإسلام - العدد (٢) - السنة السابعة - صفر ١٤٠٢هـ - ديسمبر ١٩٨١م .

حوالى أربعمائة جمعية إسلامية ، إلا أن عدداً كبيراً منها يسيطر عليها المرتزقة ، الذين يجوبون البلاد العربية لجمع المعونات والمساعدات ، التى يسرق جزء كبير منها ، وإن هذا الموضوع كان سبباً فى إيجاد خلافات وفتن كبيرة بين المسلمين [1] .

ثانياً - بالنسبة لصراع الأشقاء المسلمين :

لقد زرع المستعمر الغربى أسباب الحقد والكراهية ، والصراعات العرقية والقبلية ، بين أبناء الجنس الواحد ، وخاصة المسلمين ، وسلك لذلك طرقاً عدة منها [2] :

- تفتيت القارة إلى دويلات صغيرة ، قد تقسم فيها الحدود السياسية القبلية الواحدة فى دولتين .

- تشجيع الفرق الإسلامية المنحرفة عن الإسلام ، من أجل إحداث فرقة فى العمل الإسلامى .

- زرع العملاء والوكلاء والجماعات العميلة ، التى تتستر بالإسلام اسماً ، لإثارة الفتن والدسائس بين المسلمين .

- زرع الحكومات العميلة ، التى تقرب إحدى الطائفتين على الأخرى فى البلد الواحد، مما يثير النزاع على كراسى الحكم .

وقد ذهب ضحية لهذا الصراع ، الكثير من أبناء إفريقيا المسلمين . ومن المؤسف حقاً أن المسلمين فى إفريقيا ، لم يرتفعوا إلى مستوى المسئولية ، وأفرغوا من حساباتهم أنهم المستهدفون للتصفية دائماً ، وأنه ستدور عليهم الدائرة ، بعد أن يستتب الحكم لإحدى القوتين المتعارضتين أو لكلتيهما ، وشغلوا أنفسهم بخلافات تافهة ، من أجل الصراع على المال أو المنصب أو العصبية القبلية .

ولهؤلاء المسلمين نقول : إن الصراع بينكم فى هذا العصر بالذات لن يودى بكم إلا إلى التهلكة ، فهذا عصر التكتلات والقوى الكبرى المؤثرة ، ويكفى ما فاتكم من بناء أنفسكم ، وقد آن الأوان لطرح الخلافات جانباً ، والانصهار فى بوتقة العمل والبناء ، للحفاظ على كيانكم واستغلال ثرواتكم ، وتحقيق الرخاء لأبنائكم وانتشالهم من وهدة الضياع .

واعلموا أن الدول العربية الإسلامية ممكن أن تساعدكم فى بعض المشاكل ، التى تعانون منها ، أما مشكلة الصراع بينكم ، فذلك هو التحدى الذى يتطلب تضافر جهودكم

---

(١) « أضواء على شرق إفريقيا منار الإسلام » ، ذى الحجة ١٤٠١هـ - أكتوبر ١٩٨١م .

(٢) « أضواء على شرق إفريقيا منار الإسلام » ، ربيع الآخر ١٤٠٢هـ - فبراير ١٩٨٢م .

واستنفار إرادتكم ، لتخطى هوى النفس والأطماع الشخصية ، فكل عوامل التفرقة والتنازع لا تأتى إلا من تلك النوازع .

إن المشكلة حالياً أصبحت بالنسبة لشعوب إفريقيا المسلمة ، هى مشكلة « تكون أو لا تكون » ، فإما أن تعتصم بدينها ، وتجتمع عزائم رجالها ، على تحرير ضمائرها من التعصب والعنصرية والطبقية والطائفية ، وإما ستكون وقود النار التى يدفعها إليها أعداؤها ، مستغلين ذلك التشتت الذى يعيش فيه المسلمون ، نتيجة ضياع العقيدة وضعف النفس ، وخور الإرادة فى حياة حرة كريمة .

ومهما يكن بينهم صراعات ، فلن تزيد عن تلك التى كانت فى الأمس البعيد ، بين الأوس والخزرج ، ويزكيها اليهود ، ليضمنوا المكاسب العظيمة ، التى يجنونها من وراء ذلك الصراع ، **ولذلك فنجاة مسلمى إفريقيا حالياً ، تكمن فى نفس العلاج الذى تحقق لأهل المدينة ، وهو يتمثل فى النقاط التالية ، كما تبينها لنا الآيات (١٠٣ - ١٠٥) من سورة آل عمران** :

- الاعتصام بحبل الله جميعاً والاحتماء بالوحدة الإسلامية .

- الاعتراف بنعمة الله وفضله : لأن الاعتصام بمنهج الله معناه اجتماع القلوب على حب إله واحد ومنهج واحد ، يتطلب السعى الجاد فى الحياة ، لتحقيق العزة والكرامة للمسلمين .

- إن تلك الوحدة فيها نجاة من نيران الفتن ، التى يبثها أعداء الحق فى كل مكان ، وينتظرون الشياه الشاردة لينقضوا عليها ، فهى فريسة سهلة يسيل لها لعاب الطامعين .

- إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هو دعامة الأمة الإسلامية ونهضتها ، حيث تتحدد ملامح الخير بوضوح للمسارعة إليها ، وتتحدد علامات الخطر بوضوح التى تقود الأمة للمهالك فيمكن تجنبها .

- إن التفرق والاختلاف ، بعد معرفة معالم الدين الحق ، تهدد بعذاب عظيم ، ليس فى الآخرة فقط ، ولكن فى الدنيا أيضاً ، حيث تعيش الشعوب مستضعفة ، عرضة للنهب والسلب ، من قوى الطغيان ، التى استطاعت أن توحد نفسها ، حتى ولو كان ما يجمعها هو أطماع دنيوية .

- إن ذلك التفصيل فى سورة آل عمران ، أوجزه الله فى آية فى سورة الأنفال ، تأمر بطاعة الله ورسوله ، والوحدة وعدم التنازع ، لأن هذا معناه الفشل وتبديد ثروات الأمة ،

وهذا لن يتم إلا بالصبر والمثابرة وجهاد النفس ، وساعتها سيؤيدهم الله بنصره ، لأن الله مع الصابرين ، الذين يعضون على دينهم بالنواجذ ، مهما كانت التحديات التى تواجههم.

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ (١) .

وهكذا يوم أن يعرف المسلمون فى إفريقيا مبادئ الإسلام الحق ، وتتمكن العقيدة من النفوس ، ستتوقف تلك الصراعات ، وتبدأ الشعوب فى التقاط أنفاسها ، واستعادة كرامتها وإقامة دعائمها على نظام ، قوامه التسامح والعدل والمساواة والسلام ، لا يشرع القتال إلا دفاعاً عن النفس أو العرض أو المال أو الضعفاء ، ودفاعاً عن العقيدة القيمة ، ليعيش أهلها أعزة كراماً ، يعرفون كيف يستغلون ثرواتهم ، فى تحقيق الرفاهية لهم ولأبنائهم ، وبذلك يحررون أنفسهم من مهاوى الاستعمار ، والتبعية التى تطحن أجسادهم ونفوسهم ، وتجعلهم يعيشون فى أوطانهم أتباع أذلاء ، وهذا ما يرفضه الإسلام كل الرفض ، ويأباه لمن ارتضوه ديناً ، لأنهم ساعتها سيكونون وصمة عار فى جبين تلك البشرية الغراء .

خامساً - مشاكل الأقليات المسلمة فى إفريقيا :

إن مشكلة الأقليات المسلمة فى إفريقيا ، لا تختلف كثيراً عن مشكلات المسلمين فى تلك القارة ، والتى يمكن إرجاعها إلى هذين العاملين الرئيسين :

١ - غياب الوعى الإسلامى .

٢ - التخلف الذى تعانى منه القارة بجميع صوره ، فمشكلة المسلمين العامة فى إفريقيا هى مشكلة كيف وليس مشكلة كم . فعلى سبيل المثال هناك إحصائية تقول :

فى أوغندا ٤٫٨ مليون مسلم ، يمثلهم فى البرلمان خمسة أعضاء ، بينما ٧٫٢ مليون مسيحى يمثلهم ١٢١ عضواً .

- هذا على حين أنه فى دراستنا لطبقات المجتمع فى أمريكا اللاتينية ، نجد أن الأقليات هناك أصبحت تشكل كيانات متميزة ، لها مؤسساتها التعليمية والاجتماعية والاقتصادية والصحية الخاصة بها ، تلك الكيانات التى وصلت إلى حد من القوة ، هيأ لها أن ترقى ببعض أبنائها ، إلى أرفع المناصب السياسية والعسكرية والثقافية ، بل بلغ بعض هؤلاء إلى مرتبة الوزارة ورئاسة الجمهورية (٢) .

---

(١) الأنفال : ٤٦ .

(٢) « الدعوة الإسلامية الخارجية وقضية الأقليات » : د . عبد الله عبد الشكور كامل ، مجلة منبر الإسلام (ص ٩) ، العدد (٩) - السنة السادسة والثلاثون - رمضان ١٣٩٨ هـ/أغسطس ١٩٧٨م .

وهذا ناتج من اهتمام الدول التى تنتمى إليها تلك الأقليات ، فربطت ما بينها برباط ثقافى واجتماعى ودينى ، تمثل فى المدارس التى رعتها وعاونت فى إنشائها ، وفى الكنائس التى شادتها ، والنوادى التى أقامتها ، والعنصر الإنسانى الذى بعثت به من الوطن الأم الأوروبى أو الآسيوى ، يحمل فكرتها إلى تلك الأقليات ، ويلتزم خطتها فى الحفاظ على كياناتها . وبذلك عاشت تلك الأقليات وقد حفظت لنفسها لغتها ، وثقافتها، وقوميتها ، ومذهبها الدينى الخاص بها ، كما قامت فى الوقت نفسه ، بالدفاع عن قضايا أمتها التى تنتسب إليها ، وساهمت فى نشر ثقافتها وأمجاد تاريخها ، على أرض جديدة ، وبين جنسيات عديدة .

- والأقلية اليهودية فى أمريكا ، استطاعت أن تثبت جدارتها ونفوذها ، بل أصبح لها دور فى ترجيح الانتخابات ، واختيار رئيس الجمهورية ، بالانضمام إلى أحد الحزبين ، مما جعل الدوائر السياسية تحسب لهم ألف حساب ، والجاليات اليهودية فى أوروبا ، نجحت فى تأسيس دولة إسرائيل على أرض فلسطين ، حيث كانت صيحتها الأولى فى مدينة « بال » بسويسرا ، حينما اجتمعت المؤسسات والجمعيات اليهودية فى العالم ، على هيئة مؤتمر ، كان الخطوة الأولى فى توجيه جهود يهود العالم ، إلى تحقيق فكرة «هرتزل» فى إنشاء دولة لليهود [١] .

فماذا فعلت الأقليات المسلمة سواء فى إفريقيا أو غير إفريقيا ؟

بل ماذا فعلت الأكثرية المسلمة سواء فى إفريقيا أو غير إفريقيا ؟

إن الأقلية المسلمة إذا صلحت كانت نعمة وسبباً فى انتشار الإسلام ، وإذا فسدت ضيعت نفسها ، وضيعت معها عقيدة الإسلام الغالية ، فقد رأينا من تاريخ المسلمين فى إفريقيا ، كيف انتشر الإسلام على أيدى تجار فرادى ، أو رجال تصوف ، أو بعض الهجرات ، وكيف استطاع هؤلاء القلة بقوة عقيدتهم ، وإخلاص نياتهم ، وعزم إرادتهم، أن ينشروا الإسلام الواعى الصادق فى إفريقيا كلها ، وأن تظلل راية الحضارة تلك القارة، فعاشت أروع سنى حياتها ، فى ظلال العقيدة والثقافة الإسلامية ، والتقدم السياسى والاقتصادى والازدهار التجارى .

فيجب على هذه الأقليات ، أن تكون كل منها أمة لا فرداً ، ويقوى شخصيته ويقوم بالدعوة إلى الإسلام بقوله وسيرته ، بقوة وحماسة وتضحية ، قائمة على ثقافة إسلامية جيدة ، وعقيدة متينة راسخة .

وعلى الدول الإسلامية - وخاصة العربية - أن توجه عناية خاصة لتلك الأقليات ، لأنهم

(١) نفس المرجع السابق رقم (٣٦) « الدعوة الإسلامية الخارجية وقضية الأقليات » د. عبد الله عبد الشكور كامل .

مهددون بالضياع فى خضم الكفر وجاهلية العصر ، ويحتاجون - أشد من غيرهم - إلى من يمد لهم يد العون ، لتثقيفهم وتوعيتهم ، حتى يكونوا مشعلاً للهداية والدعاية يمكن به تبديل ميزان القوي فى القارة ، لصالح المسلمين جميعاً - سواء أكانوا أغلبية أم أقلية .

كيف نواجه مشاكل الأقليات المسلمة فى إفريقيا ؟ (١) :

١ - فى مقدمة هذه الأساليب تقوية الإذاعات ، التى تتولى حكوماتها الدعوة للإسلام ، لتذيع على هذه الأقليات بمختلف لغاتها ما يعلمها دينها ، ويشجعها على التمسك به بأساليب شتى : عن طريق القصة والتمثيلية والمسابقة والقصيدة ، يضاف إلى ذلك تعليم اللغة العربية لهذه الأقليات ، بأرقى الطرق وأسلمها ، فدراسة هذه اللغة فرض على كل مسلم ومسلمة ، وبدونها لا يتم فهم القرآن والسُّنَّة كما يجب ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وقد استطاع المبشرون والمستعمرون تعطيل هذه اللغة ، فتعطل بتعطيلها اجتماع المسلمين - وخاصة فى موسم الحج - وتفاهمهم وتعاونهم ، مما هو من أهم غايات الحج ، حيث بات المسلمون يتفاهمون فيما بينهم بالإشارات (لغة الصم والبكم) أو بلغة أجنبية .

٢ - يمكن استخدام أشرطة الفيديو ، والأفلام التليفزيونية الملونة ، التى تعرض أركان الإسلام ومبادئه المختلفة وكيفية الوضوء والصلاة ، وترسل إلى البلاد التى فيها أقليات مسلمة ، لعرضها فى تجمعات المسلمين ، أو بتأجير ساعة من التليفزيون أسبوعياً ، أو عمل اتفاقيات ثقافية مع الحكومات التى فيها تلك الأقليات .

٣ - إنشاء مجلة شهرية مبسطة فى الموضوعات التى تهم العالم الإسلامى ، وما ينبغى لمؤمن من معرفته ، تترجم إلى اللغات المتداولة فى إفريقيا ، ترسل إلى تلك الأقليات لتحقيق الترابط بينهم وبين المسلمين فى كل بقاع الأرض ، مما يزيد من قوة العقيدة ، وزيادة الشعور بالانتماء الإسلامى .

٤ - لعل أهم ما يشغل بال الذين يحاولون الكتابة للأقليات المسلمة فى إفريقيا : المذهب الذى يتحتم عليهم اتباعه ، سواء الشافعى أو الحنفى أو المالكى أو الحنبلى . وهذه المسألة يمكن حلها بالرجوع إلى مصدر السُّنَّة النبوية نفسه ، وفى الرجوع إلى هذه السُّنَّة - علاوة على العصمة من الخطأ - تبسيط للفقه وإظهار لجماله وتدريب عملى له ، والاغتراف من نبع صاف عذب ، لم تكدره خلافات الفقهاء أو تغير الأحوال .

---

(١) « الأقليات المسلمة فى العالم » طريقة توعيتها وأساليب الإفادة منها ، للأستاذ محمود مهدى الاستانبولى - الوعى الإسلامى (ص ٥٣) - السنة الرابعة عشرة - العدد (١٦٢) ، جمادى الآخرة ١٣٩٨ هـ/ مايو ١٩٧٨م .

٥ - من أهم وسائل الدعم لتلك الأقليات : استعمال المسجد ، بحيث ينبغى أن يشع بالحركة نهاراً وليلاً ، فلا يكون مقراً للصلاة فحسب ، بل هو مدرسة ، وناد ومستشفى، وقصر ضيافة ، ومحكمة لحل المشكلات ، ومقر لجلسات الجمعيات الخيرية ، وللمراكز الإسلامية ، وغير ذلك مما فعله الرسول ﷺ مما هو ضرورى فى بلاد الأقليات المسلمة ، كذلك يجب ألا تمنع النساء من المساجد ، لأن الرسول ﷺ نهى عن ذلك ، وقد كن فى عهده يحضرن الصلوات ، ويستمعن لوعظه ونصحه ، وكان لهن مكان خاص . والمرأة فى إفريقيا تحتاج أشد الاحتياج إلى العلم ، لأنها متخلفة كثيراً عن الرجل ، ولن ترقى أمة إلا برقى المدرسة التى تعد فيها أجيالها .

٦ - تنظيم المراكز الإسلامية المنتشرة فى إفريقيا ، والحض على توحيد أعمالها ، وإزالة الخلافات بين بعض أعضائها ، وتشجيعها بمختلف الوسائل المادية والمعنوية ، ومحاسبتها عما عملت وعما ستعمل . ويجب أن يكون من أولى مهام تلك المراكز دعوة كبار المفكرين والساسة من الرجال والنساء ، لعرض الإسلام عليهم بالوسائل الإعلامية الممكنة، كما فعل الرسول ﷺ فى الكتابة إلى الملوك والرؤساء ، وكما كان يعرض الإسلام على الزعماء والوجهاء ، لأن فى إسلام هؤلاء تشجيعاً لإسلام من خلفهم .

٧ - مضاعفة الاهتمام بالثقافة الإسلامية الصحيحة القوية للأقليات المسلمة ، لإحياء شخصيتها وافتخارها بالإسلام وحرصها عليه ، كى لا تذوب فى الأكثرية الكافرة ودينها بحكم القوة والتقليد ، فتضيع كما تضيع الجداول الصغيرة فى الأنهار الكبيرة ، فتخسر الدين والدنيا معاً . وقد نبه الرسول ﷺ إلى أهمية الحفاظ على الشخصية الإسلامية ، وحث على تميزها عن غيرها ، سواء فى اللباس أو العادات أو غير ذلك .

والغريب أن كثيراً من المسلمين يزهدون فى الحفاظ على هذه الشخصية ، ويسارعون فى الذوبان فى غيرهم بسبب جهلهم وقلة وعيهم ، وهذا ما يحرص عليه الأعداء من المستعمرين والمبشرين ، لإفناء الشخصية الإسلامية ، على حين نجد اليهود مثلاً شديدى الحرص على شخصيتهم ، والحفاظ على تقاليدهم ، على الرغم من سخفها وفسادها : فلهم أسماؤهم العبرية ، وعاداتهم القديمة لا يتركونها ، حتى لغتهم الجامدة ، فهم يلقنونها لأبنائهم ، سراً أو علانية حسب الظروف ، فإن كل يهودى - على الغالب - يعرف لغته الدينية ، ولغة وطنه الذى يعيش فيه ، ويحافظ على دينه المحرف ، على الرغم مما جلبه عليه من الاضطهادات والويلات ، وهذا ما ساعد على توحيدهم ، وإنشائهم دولة إسرائيل ، بتفاهمهم ، ووحدة أهدافهم ، وغيرتهم على تراثهم ، والمحافظة عليه .

كل ذلك يدعو الغيورين على الإسلام والمسلمين ، إلى المسارعة لدراسة هذا الضعف فى الوعى ، لمعالجته وتقوية الشخصية الإسلامية ، وخاصة بين الأقليات ، لأنهم أشد احتياجاً لتلك القوة لمواجهة تيار الأكثرية .

٨ - من وسائل تلك الأقليات أيضاً : تبادل الزيارات والبعثات بين هذه الأقليات والمراكز العلمية فى البلدان الإسلامية ، كأن يرسل إليها المدرسون الدائمون ، أو المؤقتون على الأقل كزوار وموجهين من وقت لآخر ، وكذلك يؤخذ من هذه الأقليات أفراد لتثقيفهم وتوعيتهم ، ليعودوا إلى جماعتهم ، ويقوموا بواجباتهم نحوها ، فى الأخذ بيدها إلى معارج النور والرقى .

٩ - ينبغى أن ينظر سفراء الدول الإسلامية لهذه الأقليات ، نظرهم إلى رعاياهم ، فإن المسلم أخو المسلم مهما اختلفت أوطانهما ، وتباعدت ديارهما ، وفرقت بينهما السياسات فعليهم أن يهتموا بأمورهم ، ويمدوهم بالمعونات ، ويتوسطوا لهم لدى حكوماتهم ، ويحلوا مشكلاتهم ، ويتبادلوا معهم المعلومات والأخبار ، ويقدموا لهم المساعدات الثقافية الإسلامية ، وكل ذلك واجب دينى مقدس .

١٠ - من أشد ما تعانيه بعض الأقليات المسلمة قلة أفرادها ، ويمكن تلافى ذلك بالتشجيع على الزواج ، بل بالتشجيع أيضاً على نظام تعدد الزوجات ، بشرط تحقق التضامن الاجتماعى ، بين هذه الأقليات والعالم الإسلامى كله .

وفى النهاية نحب أن ننبه : أن بعض الأقليات تعيش فى مهب رياح الإلحاد والكفر ، وقطع الصلة بيننا وبين هذه الأقليات ، يشكل خطراً عظيماً ، وخسارة فادحة ، يحمل وزرها المسلمون القادرون ، الذين وهبهم الله السلطة والمال والعلم ، وإنها لأمانة لو تعلمون خطيرة .

* * *

الفصل السادس
مشكلات المسلمين فى إفريقيا
مشكلات ناتجة عن التخلف

● التخلف وضياع الشخصية الإسلامية :

إن تلك المشكلات التى سنتكلم عنها فى هذا الفصل ، هى نتيجة حتمية للمشكلات التى تكلمنا عنها فى الفصل السابق ، والناتجة عن غياب الوعى الإسلامى ، فالإنسان هو الأداة والهدف لأى جهد حضارى ، وقد نجح الاستعمار - فى غياب الوعى الإسلامى - فى زعزعة الثقة بالنفس لدى الفرد المسلم الإفريقى ، وإخفاء روح المبادرة لديه ، وتعطيل طاقات التساؤل والخيال والإبداع ، وسلب الرغبة فى الاعتراض ، وتكريس النزوع إلى الاستسلام والخنوع ، وطمس روح الاستقلالية . وهكذا فإن جوهر التخلف الذى تعيشه المجتمعات المسلمة فى إفريقيا ، والقصور الذى يعوقها عن اللحاق بركب الحضارة المعاصرة على جميع مستوياتها ، يكمن فى توجيه ذهنية الفرد المسلم ، الذي خرج من معركته مع المستعمر خائر القوى ، مهدود الكيان ، محطم الشخصية .

● نظرة عامة على مشاكل التخلف فى إفريقيا [1] :

* تعد القارة رغم مساحتها الكبرى (ربع مساحة العالم) وثرواتها البشرية الضخمة ٦٤٠ مليون نسمة (خمس سكان العالم) من أفقر قارات العالم ، رغم التحسن الطفيف فى اقتصاديات دولها جنوب الصحراء الكبرى ، حيث بلغ معدل النمو الاقتصادى ٣ر٣٪ بعد أن كان ٢٪ سنة ١٩٩٢م .

* بلغت ديون القارة عام ١٩٩٢م ما يتراوح ما بين (٢٨٠ - ٣٠٠ مليار دولار) من المتوقع وصولها إلى ٣٢٠ مليون دولار عام ١٩٩٥م ، وحيث يبلغ معدل نمو الديون الإفريقية ٩٪ سنوياً ، كما تمثل الديون حوالى ١١٠٪ من الناتج القومى الإجمالى .

---

(١) هذه البيانات كلها من مرجعين رئيسيين :

(أ) مصر والتنمية الإفريقية - جمهورية مصر العربية - وزارة الإعلام ، الهيئة العامة للاستعلامات - القاهرة ١٩٩٣م .

(ب) القمة الإفريقية الثلاثون (١٣ - ١٥ يونيو ١٩٩٤م) تونس ، جمهورية مصر العربية - وزارة الإعلام - الهيئة العامة للاستعلامات .

* ومن ناحية أخرى ، فقد زادت فوائد الديون فى بعض الدول عن حصيلة الصادرات ، وقد كلفت إفريقيا ٢٣ مليار دولار عام ١٩٩٠م وحدها .

* تدنى نصيب القارة فى التجارة العالمية إلى ١٪ والزيادة السنوية المحدودة فى الإنتاج الزراعى ٢٪ مع تزايد عدد السكان بمعدل أسرع وهو ٢ر٣٪ ، فضلاً عن انخفاض متوسط دخل الفرد فى القارة انخفاضاً شديداً ، وتأثير ذلك على قطاعات هامة مثل : التعليم ، الصحة ، البنية الأساسية ، واتساع دائرة الفقر لتشمل ١٦٠ مليون إفريقى .

* وجود ٣١ دولة إفريقية على الأقل تعتبر من الدول « الأقل فقراً فى العالم » ، ويزداد الأمر سوءاً فى الدول الإفريقية الإحدى عشرة (بتسوانا - بوروندى - إفريقيا الوسطى - تشاد - أثيوبيا - ليسوتو - ليبيريا - موزمبيق - رواندا - الصومال - زامبيا » (دراسة الفاو مارس ١٩٩٤م) .

* وقد سبق أن حذرت الفاو (دراسة يناير ١٩٩٤م) من تهديد شبح المجاعة ، لخمسة عشر مليوناً ، يعيشون فى أربع دول إفريقية أنهكتها الحروب (أثيوبيا - السودان - موزمبيق - أنجولا) فى حين ناشدت سبع دول إفريقية ، أعضاء فى هيئة التنمية ومكافحة الجفاف الرسمية وهى (چيبوتى - الصومال - أثيوبيا - أرتيريا - السودان - كينيا - أوغندا) فى تقرير لها (مارس ٩٤) ، ناشدت العالم إرسال ٥ر٢ مليون طناً من المساعدات الغذائية لمحاربة المجاعة الناتجة عن الفقر والجفاف ، وتؤثر على ٣٠ مليون شخص (تقرير اليونيسيف ديسمبر ١٩٩٣م) بينهم ٤ ملايين فى أثيوبيا وحدها (تقارير الإغاثة - أبريل ١٩٩٤م) .

* تراجع معدلات الإنتاج الزراعى ، فى منطقة جنوبى الصحراء الكبرى فى إفريقيا ، بصورة ملحوظة ، ومعناها أن يظل ٣٠٠ مليون إفريقى (حوالى ٥٥ ٪ من سكان إفريقيا البالغ عددهم ٦٤٠ مليون نسمة) يعانون قلة التغذية ، مقابل ١٨٠ مليون إفريقى يعانون من الجوع ، مما يعنى أن القارة الإفريقية تعد أكثر القارات معاناة من نقص الغذاء فى العالم ، وكمثال صارخ لذلك يعانى ٥ر٢ مليون طفل أنجولى من سوء التغذية ، بسبب الحروب الأهلية الطاحنة هناك (تقرير اليونيسيف - أبريل ٩٤ ، ودراسة للفاو نوفمبر ١٩٩٣م) .

* انتشار الأمراض الفتاكة فى القارة الإفريقية ، بسبب قلة الاعتمادات المالية لمكافحتها ، وحسب تقرير منظمة الصحة العالمية (مارس ١٩٩٤م) أن من بين سكان إفريقيا نحو ١٧١ مليون شخص مصابون بالسل (حوالى ٢٧٪ من مجموع السكان) ، فى حين عدد المصابين بالإيدز نحو ٨ ملايين ، منهم ثلاث أرباع مليون طفل (من إجمالى ١٢ مليون مصاب فى العالم) ، وقد توفى أكثر من مليون إفريقى حتى الآن ، متأثرين بالمرض الذى يهدد جهود التنمية فى إفريقيا (تقرير اللجنة الاقتصادية لإفريقيا - مارس ١٩٩٤م) .

* أوضحت منظمة الصحة العالمية أن ٣٤٤ مليون شخص بالقارة (حوالى ٥٤٪) يفتقرون إلى أنظمة صرف صحى ، بالإضافة إلى أن حوالى ٢٦٥ مليون شخص (٤١٪) يعانون من نقص مياه الشرب .

* هبوط معدل النمو الاقتصادى السنوى فى إفريقيا ، حيث بلغ ٤ر١٪ عن عام ٩٣ ، وهذا يعد أقل من المستوى المتوقع له وهو ٣٪ (رغم أن هذا المعدل قد تضاعف مقارنة بعام ٩٢ الذى بلغ فيه هذا المعدل ٧ر٠٪) ، بينما انخفض نصيب القارة الإفريقية من التجارة الدولية ، من ٤ر٠٪ إلى ١٪ فى السنوات العشر الماضية .

* يلاحظ أن ظروف الجفاف والحروب والديون وهبوط أسعار السلع الأولية ، التى تعد المصدر الرئيسى للعملة الصعبة ، فى اقتصاديات العديد من الدول الإفريقية ، قد حالت دون تزايد هذه المعدلات ، فإن أسعار السلع الأولية فى إفريقيا قد انخفضت بنسبة ٤ر٦٪ عام ١٩٩٣م مقارنة بنسبة ١ر٥٪ عام ١٩٩٢م ، ٣٪ عام ١٩٩١م ، وقد تسبب انخفاض أسعار بعض هذه السلع ، مثل النحاس والبن والكاكاو والقطن والفول السودانى ، فى أن تخسر إفريقيا سنوياً أكثر من مجموع المساعدات الخارجية التى تتلقاها .

* تواجه الحكومات الإفريقية مشكلات كثيرة ، تفرض عليها تحدياً رهيباً يجب الإسراع بمواجهته ، متمثلاً فى : العمل على تقليص حجم العجز فى ميزانيتها ، وخفض معدلات التضخم فى بلادها ، والتوصل إلى سياسة جمركية جيدة ، وتحسين الأوضاع المالية ، وإعادة انتعاش الزراعة كمصدر من مصادر الثروة فى دول القارة ، لتقليل الاستيراد (يسجل أن إفريقيا بحلول يونيو ١٩٩٤ تعد ثانى أكبر مستورد للقمح فى العالم !!) . هذا فضلاً عن الالتزام بعملية الإصلاح الهيكلى ، والعمل على إعادة وترتيب وجدولة الديون الإفريقية من جانب البنك الدولى .

* عملية إنعاش الزراعة فى إفريقيا ضرورة حتمية ، خاصة بعد انضمام ست وثلاثين دولة إفريقية فى منتصف أبريل ١٩٩٤م إلى اتفاقية الجات ، وهى الاتفاقية التى ستتأثر بها الدول الأكثر فقراً ، والتى تستورد المنتجات الزراعية ، وهذا ما أشار إليه البنك الدولى (فى دراسة ديسمبر ١٩٩٣م) إلى أن القارة الإفريقية ستتأثر أكثر من غيرها من القارات ، خاصة وأن صادراتها ستقل من حيث الكم بنسبة ٤٪ ، كما ستقل أسعار هذه الصادرات (تمثل الصادرات الإفريقية حوالى ٦ر٢٪ من الصادرات الدولية وهى نسبة ضئيلة للغاية .

* تفاقم المشاكل بوجود ١٢ دولة إفريقية (حوالى خمس دول القارة) تعانى من الحروب الأهلية ، التى أوصلت هذه البلاد فى شرق وغرب وجنوب القارة ، لحالة من الفوضى يرثى لها .

* يوجد بإفريقيا العديد من الأنهار والبحيرات ، التى تعطى صورة عن وجود ثروة كبيرة من الموارد المائية فى القارة ، وعلى الجانب الآخر ، يوجد بإفريقيا أكبر صحراء فى العالم (شمال خط الاستواء) ، ومناطق شاسعة جرداء وشبه جرداء فى معظم أرجاء القارة تقريباً ، وهناك المحن والدمار الذي ينجم عن فترات القحط الطويلة فى السهل ، وأجزاء عديدة فى بلدان أخرى ، والحاجة الصارخة إلى الغذاء وعلف الماشية والألياف والمرافق الأساسية مثل مياه الشرب والصرف الصحى .

* تعانى إفريقيا من معوقات أساسية لازمة وهى : ندرة رأس المال - ندرة الأيدى العاملة المدربة ، ضعف الهياكل المؤسسية نتيجة نقص الخبرة الفنية ، وعدم تغيير الهياكل الإدارية ، وعدم كفاءة العملية التخطيطية .

* تعتبر التبعية الاقتصادية للغرب ، أكبر مظهر من مظاهر التخلف فى إفريقيا ، فهى صورة من صور الاستعمار الجديد ، وأكبر قيد على التنمية فى جميع أشكالها ، ولن يتحقق التخلص من هذا القيد ، إلا بالتعاون والتضامن بين جميع البلدان الإفريقية ، لضمان تنمية ذاتية لإفريقيا ولصالحها .

تلك كانت نظرة عامة على مشاكل التخلف فى القارة ككل . وسنحاول بعون الله ومشيئته أن نتناول المشاكل التى يعانى منها المسلمون فى كل مجال على حدة .

أولاً - مشكلات ناتجة عن التخلف الاقتصادى :

إن المشكلات التى يعانى منها المسلمون فى إفريقيا نتيجة التخلف الاقتصادى ، هى أكثر المشكلات حدة وخطورة ، لأنها تتعلق بأساسيات الحياة ، من طعام وشراب ونقل ومواصلات وسلع ضرورية وحيوية ، لاستكمال أسباب المعيشة . والمسلم الذى يتضور جوعاً أو يستجدى طعامه ، لن يفكر بحال من الأحوال فى استكمال أركان عقيدته ، فضلاً عن تدعيمها فمن كان شغله الشاغل الأرض ، لتوفير حد الكفاية لمطالب الجسد ، لن يكون عنده دافع للتطلع للسماء ، لتحقيق مطالب الروح .

وتستفحل الكارثة عندما يتعلق الأمر بشعب ثم أمة بأسرها . ولقد نجح الاستعمار فى إضفاء مظاهر التخلف على شعوب إفريقيا - وخاصة الإسلامية منها - ضماناً لتحقيق مصالحه ، واستنزاف موارد الثروة الاقتصادية الإفريقية ، بما يحقق مزيداً من الرفاهية للشعوب الأوروبية ، وقد امتدت تلك المظاهر للتخلف ، لتشمل جميع القطاعات الاقتصادية مما أصاب القارة بطعنة فى الصميم ، جعلها تدور فى الحلقة المفرغة للفقر ، يتطلب الخروج منها طاقة مادية ومعنوية كبيرة ، تشبه تلك الدفعة القوية التى يحتاجها

الصاروخ ، لينطلق فى الفضاء خارج نطاق الجاذبية الأرضية ، وانطلاقاً من إيماننا بقول الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ **ولا تيئسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ (١) .

فإننا سنحاول تصوير المشاكل التى يعانى منها المسلمون فى إفريقيا ، والناتجة عن التخلف الاقتصادى ، باعتبار أن تشخيص الداء هو أول خطوة على طريق العلاج ، ومن سار على الدرب وصل ، ونتتبع تلك المشاكل فى فروع الهيكل الاقتصادى المختلفة ، مع محاولة لدراسة كيفية مواجهة تلك المشاكل .

١ - مشكلة الزراعة وملكية الأرض (٢) :

تميزت الزراعة قبل الاستعمار بكونها زراعة محاصيل غذائية ، تقدم للسكان ما يجعلهم أصحاء قادرين على العمل ، يزداد عددهم يوماً بعد يوم ، وكانت الأرض ملكاً للقبيلة يعيشون كأسرة واحدة ، يعمل جميع أعضائها لتقديم الغذاء إلى كل فرد فيها ، ثم جاء المستعمر واستولى على الأرض بالقوة ، ثم سن قانون حيازة الأرض ، وحرية بيعها وشرائها وبهذا القانون تمكن الأوروبيون والشركات الاحتكارية ، من شراء الأراضى من الإفريقيين وهم مرغمون ، بعد أن أصبحت الملكية للأفراد ، جاءت الشركات واحتكرت شراء السلع الزراعية ، فاضطر الفلاح الإفريقى أن يزرع ما تشتريه الشركة المحتكرة من المحاصيل النقدية ، أثرت هذه السياسة على قلة توافر الغذاء للسكان ، فانتشرت المجاعة ، وازداد المرض ، وكثر موت الأطفال ، وبالتالى أخذ عدد السكان فى التناقص ، فكانت سياسة المحصول الواحد يزاولها الاحتلال فى إفريقيا بشدة ، حيث تخصص مناطق واسعة، وأحياناً إقليم برمته ، لإنتاج محصول أو محصولين ، فاختصت غانا بزراعة الكاكاو ، وغامبيا بزراعة الفول السودانى ، وأوغندا بالقطن ، وكينيا بالبن ، ونيجيريا بزيت النخيل ، وهكذا .

ولم تؤثر هذه السياسة على إنهاك الفرد الإفريقى فقط ، بل تسببت فى إنهاك الأرض، فأصبحت الآن غير قادرة على الإنتاج ، فنظام الدورة الزراعية ضرورى للمحافظة على خصوبة التربة ، وكان الإفريقيون يعملون به قبل وصول المغتصبين ، كما أن إدخال محاصيل جديدة من مناطق أخرى فى العالم ، جلبت معها أمراض نباتية ، وأصبحت مستوطنة فى إفريقيا والقضاء عليها أصبح من الأمور الصعبة .

---

(١) يوسف : ٨٧ .

(٢) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ : إفريقيا يراد لها أن تموت جوعاً : د . جمال عبد الهادى محمد مسعود ، د . وفاء محمد رفعت جمعة ، دار الوفاء للطباعة والنشر (ص ٨٦) .

كما أن سياسة انتشار زراعة المحاصيل النقدية ، قضى على مساحات واسعة من الغابات وأخشابها الثمينة ، كما حصل فى جنوب غانا ونيجيريا ، وحيث امتد الخراب إلى حدود السافانا ، فأصبحت الرياح الصحراوية الجافة ، تجد لها منفذاً فى إقليم الكاكاو فى الجنوب وتؤثر على إنتاجه ، كما أن الاعتماد على محصول نقدى واحد يضر بالاقتصاد الوطنى ، إذ يؤدى إلى تعرضه بصورة كبيرة لتقلبات الأسعار فى السوق العالمية .

الجفاف والجوع فى الساحل الإفريقى [1] :

تمتد البلاد التى يمكن أن تتضرر من الجفاف كل بضع سنوات ، فى نطاق عرضى فى إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، من السنغال فى الغرب إلى أثيوبيا والصومال فى الشرق، وهى بلاد تقطن معظمها أغلبية إسلامية ، وهذا يعطى أبعاداً خاصة لآفة الجفاف فى الساحل ، حيث وجدت فيها الإرساليات التنصيرية ، فرصة ذهبية للتسلل إلى المجتمع الإسلامى بهذه المنطقة ، مستغلة وضع المسلمين المتردى . وقد تأتى لها ذلك بسبب غياب المنظمات الإسلامية عن الساحة ، وبسبب أن دول الساحل تحتل مركزاً من سلم التخلف لا تحسد عليه ، إذ هى من بين الأقطار الأقل نمواً والأكثر فقراً فى العالم .

وتوضح الخريطة أن إقليم الساحل يمتد فى المناطق التى تتراوح فيها كمية المطر الساقط ما بين ١٥٠ و ٥٠٠ مليمتر فى السنة ، وكلها أمطار صيفية تسقط خلال أشهر الصيف الثلاثة : يوليو ، وأغسطس ، وسبتمبر . ويشمل النطاق الأجزاء التالية من الوحدات السياسية : شمال السنغال ، وسط مالى ، شمال فولتا العليا ، وجنوب جمهورية النيجر، الأطراف الشمالية من نيجيريا ، وسط تشاد ، وسط وشرق السودان ، شمال وشرق وجنوب شرق أثيوبيا ، النطاق الحيوى فى وسط وجنوب الصومال ، شرق وشمال كينيا ، كما يمتد بدرجة مخففة فى وسط شمال تنزانيا .

---

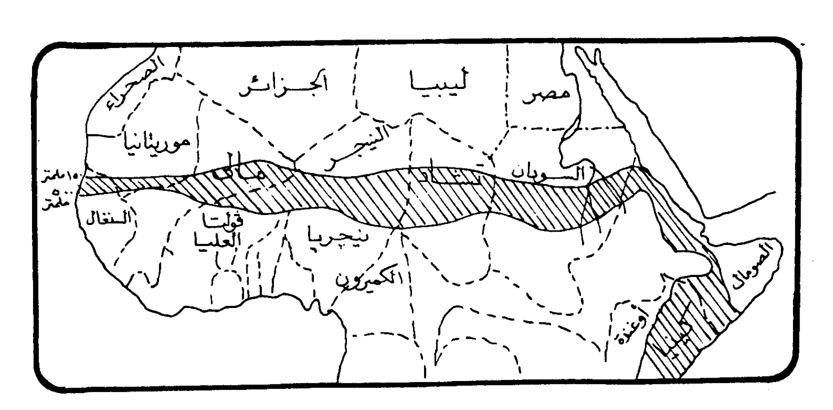
(١) (أ) « قصة الجفاف والجوع فى الساحل الإفريقى » : د . كوثر عبد الرسول ، مجلة الدوحة (ص ٤٠ - ٤٥) ، العدد (١٠٩) ربيع الثانى ١٤٠٥ هـ/ يناير ١٩٨٥م .

(ب) « عندما يغتال الجفاف المسلمين فى أقطار الساحل » : عبد القادر سيلا ، مجلة الأمة (ص ٢٨ - ٢٩) ، العدد (٥٠) - السنة الخامسة - صفر ١٤٠٥ هـ/ نوفمبر ١٩٨٤م .

جدول بعدد المسلمين المتضررين فى نطاق الساحل الإفريقى

الدولة	عدد السكان بالمليون (١٩٨٠)	تقدير عدد سكان المنطقة الحرجة	تقدير عدد المسلمين من سكان المنطقة الحرجة
السنغال	٦	١	١
مالى	٧ر٥	٣	٣
فولتا العليا	٧	١	٥ر٠
النيجر	٥ر٥	٢	٢
نيجيريا	٨٨	٨	٨
تشاد	٤ر٥	٢	٢
السودان	٢٠	٥	٥
أثيوبيا	٣٣	١٢	٨
چيبوتى	٢٥ر٠	٢٥ر٠	٢٥ر٠
الصومال	٥	٣	٣
كينيا	١٧	٣	١
المجموع	١٩٣ر٧٥	٣٧	٣٣

خريطة لمناطق الجفاف والجوع فى إفريقيا



ومن الصعب حصر أعداد المتضررين ، من الجفاف المتكرر الحدوث ، سواء فى صورة قمة حادة ، أو فى صورة استمرار انخفاض وذبذبة فى كمية المطر الصيفى ، ويعطينا الجدول المنشور ، تقديرات تقريبية لأعداد الناس الذين يعيشون داخل النطاق الحرج ، ويتضح من الجدول ، أن عدد المتضررين من المسلمين كبير فى نطاق الساحل ، والسبب فى ذلك : أن إقليم الساحل هو أول أقاليم إفريقيا المدارية ، الذي دخل الإسلام بعد عبور المسلمين الصحراء الكبرى ، وفيه نشأت ممالك إسلامية تاريخية هى : غانا ، مالى، سنغاى ، الفولانى ، الفونج ، وإمارات أخرى : كالهوسا ، والفور ، وعدال . وساعدت هذه الممالك على تثبيت الإسلام فى هذا النطاق ، ونشره جنوباً حتى الغابات الاستوائية ، أو المستنقعات الدائمة .

وبعد وقوع نطاق الساحل فى أيدى الاستعمار الأوروبى ، تدهورت الأحوال الاقتصادية بعد أن ركز الأوروبيون على تشغيل موارد النطاق الجنوبى ، بغرب إفريقيا بصورة أساسية، بالإضافة إلى مشروعات زراعية محدودة فى القسم الجنوبى من إقليم الساحل ، كفول السودانى والقطن . وهذا التوقف الاقتصادى فى إقليم الساحل ، جعله أقل قدرة على مواجهة آثار الذبذبة المناخية ، أو إيجاد بدائل حياة للمناطق التى يصيبها التصحر .

مقترحات لمشكلة الجفاف والجوع فى منطقة الساحل الإفريقى [1] :

- إن علاقة الإنسان والعوامل الطبيعية ليست علاقة الند بالند . والمهم هو المزيد من فهم عناصر التفاعل الطبيعى ، لكى يتعايش الإنسان معها بطريقة أحسن ، وفى منطقة الساحل الإفريقى ، لا بد من رصد أموال للإنفاق على الدراسات لفهم خلفية الواقع البيئى، تربة ومناخاً ومياه جوفية ونباتات طبيعية ، وذلك تمهيد ضرورى قبل البدء بأية مشروعات عمرانية .

- الكثير من المشروعات الحالية فى نطاق الجفاف (وفى بلاد العالم الثالث بصفة عامة) إما هى ناجمة عن قرارات سياسية ، تجسم تصورات عامة دون دراسة شاملة ، أو هى مبادرات تأخذ الشكل التعاونى أو الفردى ، وتستخدم تكنولوجيا حديثة كدق آبار عميقة ، وضخ مياه باطنية إلى حد النضوب ، دون دراسة مسبقة .

- معظم الدول الحديثة مليئة بمشكلات ميراث عهد الاستعمار : فهى ملتهبة بمشكلات حدود مع الجيران ، وملتهبة بمشكلات أقليات ، أو تجمعات لغوية ، أو سلالية أو دينية أو كلها معاً ، وملتهبة بمشكلات الانحياز إلى كتل دولية مختلفة ، والدسائس الأجنبية التى تستثير القلاقل والثورات والحركات الانفصالية ، ومن ثم فإن إنفاق هذه الدول على

---

(١) « قصة الجفاف والجوع فى الساحل الإفريقى » د. كوثر عبد الرسول ، مرجع سابق .

التسلح والأمن يضعها فى دوامة أفضليات بين إنفاق التسلح ، وبين الإنفاق على البنية الأساسية ، من تعليم وعلاج وتحديث الإنتاج وبناء الطرق ومقومات الحياة بصفة عامة .

– السياسة الأساسية التى يمكن أن تنبع من أجل حلول طويلة الأجل ، ليست فى دق آبار وإقامة مشروعات متسرعة ، فهذه حلول إسعافية ، إنما هى بالضرورة مرتبطة بتنمية الإنسان : أى إنفاق مكثف على التعليم الأساسى ، والتدريب المهنى ، والتغلب على الفجوة بين الحرف والاقتصاد التقليدى ، والتنمية الاقتصادية الاجتماعية المطلوبة ، لتحسين نوعية الحياة مهنياً وصحياً وثقافياً .

– المطلوب أيضاً تفاهم مشترك بين دول المنطقة ، للخروج من شكل الحدود السياسية الجامدة ، إلى الحدود المرنة التى تقبل تحركات الناس والأفراد فى حالات المجاعة ، إلى حين تحسن الأوضاع ، وذلك كنوع من الممارسات القديمة ، يضفى عليها صياغة قانونية حديثة لا تتعارض مع سيادة الدول .

– تحتاج الدول إلى دراسات شاملة لمقومات البيئة ، وليس معنى ذلك أن بالإمكان إيقاف الجفاف إذا كان هناك تغير مناخى شامل نحو مناخ الصحراء ، وإنما المطلوب هو تقليل أثر الجفاف بمشروعات أقل بريقاً وأكثر دواماً ، ويكون ذلك مرتبطاً بفهم الطبيعة الانتقالية للإقليم : مثلاً رعى أكثر تقدماً من الرعى التقليدى ، لكنه لا يجب أن يكون بالضرورة صورة من الرعى العلمى فى الغرب ، لاختلاف كافة المقومات البيئية والبشرية والاقتصادية العامة ، أو تطور زراعة المطر على منهج الزراعة المتنقلة القديمة ، مع تحسين البذور ، وتحسين أداء المزارع بالإرشاد والتدريب ، وليس على منهج الميكنة الزراعية التى ثبت ضررها البالغ فى التربات الإفريقية ، وساعدت على تصحر أجزاء من نطاق الساحل الإفريقى ، كانت منتجة بصورة مقبولة ، هذا فضلاً عن إقامة صناعات ريفية أو غذائية من النوع الذى يمكن أن يستخدم عمالة كبيرة دون رأس مال كبير .

– على الدول الإسلامية الغنية أن تتعاون فى مشروعات كبيرة ، تهدف إلى الحيلولة دون تقدم الصحراء فى منطقة الساحل ، باعتباره أحد عوامل الجفاف ، وذلك بغرس المناطق التى ابتلعتها الرمال ، واختفت نباتاتها وحيواناتها ، وبناء حواجز من الكثبان تمنع من طمر الأراضى الصالحة للزراعة ، وحفر الآبار بعدد وافر ، وتشجيع مزروعات سريعة النضج ، والعمل لإعادة البيئة الطبيعية إلى سالف عهدها ، وتجديد الثروة الحيوانية، والسيطرة على مصادر الماء بواسطة بناء السدود على الأنهار المتوفرة ، وتحلية ماء البحر ، والتقليل من استهلاك الحطب كمصدر للوقود ، باعتباره عاملاً من عوامل التصحر، واستبداله بطاقة قابلة للتجديد .

ونتقل إلى النقطة الثانية من مشاكل التخلف الاقتصادى .

٢ - مشاكل التجارة :

كانت التجارة [1] قبل دخول المغتصب الأوروبى ، حرة نشطة بين ممالك إفريقيا وشعوبها من جهة وبينها وبين آسيا العربية وجنوب شرقى آسيا من جهة أخرى ، وكان لها نظام دقيق يشرف عليه الملوك والرؤساء ، استخدم الإفريقيون الطرق الصحراوية فى غرب القارة لمبادلة الذهب بملح الطعام ، والطرق البحرية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ، لمبادلة الحديد والذهب ومنتجات الغابة ، بالأسلحة والمنسوجات من الهند والجزيرة العربية وجنوب شرق آسيا ، عبر المحيط الهندى بواسطة السفن الشراعية ، التى تستعين فى سيرها بالرياح الموسمية الصيفية والشتوية ، وكانت الطرق والمسالك الداخلية معروفة لدى التجار العرب ، فى الصحارى وفى الجبال ، وكانت لهم مراكز لخزن البضائع المختلفة ، وشيدوها فى مناطق متعددة من هضبة شرق إفريقيا ، وعلى الأخص بالقرب من بحيرة فكتوريا .

وبدخول المغتصب الأوروبى للقارة ، هبط ذلك النشاط التجارى الداخلى والخارجى ، ثم توقف تماماً ، وعندما سيطر المغتصب على القارة كلها ، واقتسم الغنائم وأصبحت إفريقيا مقسمة ، زال كل أثر للتجارة الداخلية ، وتركز النشاط على التجارة الخارجية ، ونقل ثروات القارة ، وكلها من المعادن الخام والسلع الزراعية النقدية ، من الداخل إلى الساحل ، ومنها إلى أوروبا بالطريق البحرى ، لذلك بنى السكك الحديدية وبعض الطرق التى تربط مناطق الإنتاج بموانى التصدير ، ولم يهتم بربط المناطق الداخلية بعضها بالبعض الآخر ، لذلك بقيت التجارة الداخلية متعثرة ، حتى بعد خروج ذلك المغتصب .

وبعد الاستقلال وتكون الدول الحديثة ، لا تزال السياسة الاقتصادية والتجارية ، التى سبق أن رسمها الاحتلال قائمة حتى الآن ، وبقيت صادرات الدول الإفريقية الحديثة ، تتكون من المنتجات الزراعية ، التى يعتبر أغلبها مواداً أولية للصناعة ، كالنباتات والأشجار التى تحمل ثماراً زيتية ، كنخيل الزيت وجوز الهند والفول السودانى والسمسم وغيرها ، وكذلك قصب السكر ، الذى يصدر عصيره الخام ليصنع فى مصانع أوروبا ، والقطن ، والبن ، والكاكاو والأخشاب والتبغ ، كما بقيت هذه الدول الحديثة تصدر معظم المعادن على شكل خامات دون تصنيعها ، ولا يمكن لهذه الدول فى يوم وليلة ، أن توقف إنتاج تلك الخامات والمواد الأولية ، أو توقف إنتاج المحاصيل الزراعية النقدية ،

---

(١) « إفريقيا ، دراسة عامة وإقليمية » : د . أحمد نجم الدين فليجة ، (ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩، ٢٨١) ، جامعة بغداد ومؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ١٩٧٨م .

لتبدأ بتصنيعها بنفسها ، فمعظم تلك الدول تركها المغتصب ، وهى فقيرة فى قدراتها على تصنيع منتجاتها ، لذلك فهى بحاجة إلى موارد لتبدأ فى البناء - بناء كل شىء - فهى تفتقر إلى كل شىء، كما أنها لا تزال مضطرة للتعامل مع أسواقها التقليدية ، إذ أن تغيير هذه الأسواق وبسرعة يربك اقتصادها .

وإذا أردنا المزيد من القرائن ، التى تؤكد أن المغتصب حينما احتل إفريقيا ، لم يكن ليفكر فى مصلحتها أو خدمتها ، وإنما كان شغله الشاغل ، امتصاص دمها النقى حتى آخر قطرة ، بلا مقابل ، فعلينا أيضاً أن نستعرض حالة النقل والمواصلات .

٣ - مشاكل النقل والمواصلات [١] :

يقول المغتصبون : إنهم بنوا طرقاً عديدة امتدت آلاف الكيلومترات ، ولكنها لم تبن لمصلحة الإنسان الإفريقى ، بل بنيت لاستيطان الرجل الأبيض ، وهذا كان الغرض من بناء سكة حديد (ممباساً - نيروبى) ، ولم تبن لنقل الغذاء والحضارة للإنسان الإفريقى، بل بنيت لنهب مصادر الثروة المعدنية والنباتية للقارة ، وهذا ينطبق على معظم الخطوط الحديدية ، فى وسط وغرب وجنوب القارة : فالخط الذى أنشئ ليربط المحيط الهندى بالأطلسى ، والذي يبلغ طوله ٤٧١٢كم ، والذى يخترق مناطق عديدة من وسط القارة ، لم ينشأ لمصلحة الإنسان الإفريقى ، بل لينقل الثروات المعدنية ، خاصة النحاس ، إلى الموانى ، ومنها إلى مصانع أوروبا . وحتى بعد أن ترك المغتصب إفريقيا ، نجد أن تلك الخطوط بقيت عاجزة عن تحقيق أهداف الإفريقيين ، فى تبادل ثقافاتهم وسلعهم التجارية. فهى إما أن تمر فى مناطق غير صالحة للاستيطان والاستغلال الزراعى ، أو أنها تبدأ من الداخل أو تنتهى فى الساحل ، فلا تربط مناطقها الداخلية بعضها بالبعض الآخر ، خاصة غرب إفريقيا وشرقها ، بالإضافة لكل هذا ، فهى مختلفة المقاييس من بلد إلى آخر، فالمستعمرات البريطانية لها مقياس يختلف عن مقياس الخطوط الحديدية فى المستعمرات الفرنسية ، فمثلاً نجد هناك أربعة أنواع من المقاييس : الأول بمقياس متر واحد و٤٣ سم، والثانى بمقياس متر واحد و٦٧سم ، والثالث بمقياس متر واحد فقط ، أما الرابع فمقياسه أقل من متر واحد . ونجد أن المقياس الثانى ينتشر فى المستعمرات البريطانية ، والثالث فى معظم المستعمرات الفرنسية . وكذلك بالنسبة لطرق السيارات ، فمعظمها بنى ليربط مناطق المهاجرين البيض بالساحل ، وكذلك لنقل المحاصيل الزراعية والثروات المعدنية التى ملكتها الشركات الأجنبية ، من الداخل إلى الموانى . أما بالنسبة للنقل النهرى ، فلم يطوره المحتل ، وبقيت جميع العقبات قائمة حتى بعد خروجه من القارة .

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ : « إفريقيا يراد لها أن تموت جوعاً » مرجع سابق (ص٩٢).

٤ - مشاكل الإنتاج الصناعى [1] :

الصناعة هى تحويل المادة الخام من صورة إلى أخرى تجعلها صالحة لاستعمال الإنسان ، وتوجد صناعات متعددة فى إفريقيا ، ولكنها ليست متقدمة ، حيث تحتل الصناعات اليدوية مكاناً هاماً ، أما الصناعات الميكانيكية ، فليست من النوع الثقيل ، الذى ينتج آلات إنتاجية كالماكينات ، بل تنتج سلعاً استهلاكية ، كصناعة الزيوت أو الصابون أو الصناعات الغذائية المختلفة ، وهى كلها صناعات يشوبها طابع معين ، لسيطرة الشركات الأجنبية التى تجعل من الصناعات ، ميداناً لتغذية السوق الاستهلاكية الإفريقية ، هذا فضلاً عن اهتمام هذه الشركات الاستغلالية الاستعمارية باستخراج المعادن ، ولذا كانت الصناعات الاستخراجية أو التعدينية استغلالاً أجنبياً .

ففى مجال البحث عن البترول : تقوم شركات أمريكية بالبحث عن البترول فى أرتيريا ، وشركات ألمانية تبحث عن البترول فى أوجاذين فى جنوب شرق الحبشة ، كذلك هناك شركات فى جابون تقوم بالبحث عن الحديد والبترول ، وتستغل شركات أمريكية وإنجليزية ، يورانيوم الكونغو وجنوب إفريقيا ، وتجنى أرباحاً هائلة ، ويستغل «اتحاد كاتنجا للتعدين » ، وهو مكون من مجموعة شركات أمريكية وبلجيكية وإنجليزية ، المعادن فى الكونغو ، ليحقق منها الأرباح الضخمة أيضاً . وبالرغم من إنتاج إفريقيا الهائل من المعادن فإنها تسهم بنصيب فى الصناعة ضئيل ، يقدر بحوالى ٢٪ من الصناعات العالمية .

وبجانب صناعة التعدين توجد صناعات أخرى : فالصناعات التحويلية توجد على نطاق ضيق ، وخاصة صناعة الآلات الصغيرة كقطع الغيار ، وصناعة الأنسجة . أما الصناعات الغذائية فإنتاجها أكبر ومجال نشاطها أوسع . هذا وتوجد صناعات الأسمنت فى إفريقيا ، ولكنها لا تفى بحاجة القارة ، لذا تستورد منه كميات كبيرة ، مع أنه فى إمكانها تصنيعه ، كما توجد صناعات الزيوت النباتية فى غرب إفريقيا ، وكلها برأس مال أجنبى .

والصناعة فى إفريقيا تقوم لسد الاستهلاك المحلى ، وعلى الأخص فى المصنوعات الغذائية ، أما الصناعات الميكانيكية الضخمة فلا تزال ضئيلة ، ونظراً لتفوق الدول الصناعية الأوروبية والأمريكية ، فإنها تكون منافساً شديداً للمصنوعات الإفريقية المماثلة ، مما يزيد من عرقلة الإنتاج الصناعى فى إفريقيا ، ويزيد من إثراء الجانب الرأسمالى من العالم ، على حساب تخلف القارة الإفريقية ، واستغلالها استغلالاً منظماً .

---

(١) « الجغرافيا السياسية لإفريقيا - مع دراسة شاملة للدول الإفريقية سياسياً واقتصادياً وطبيعياً » ، (ص ٢٣٩ - ٢٥٣) ، تأليف : د . فيليب رفلة - تقديم وإشراف : د . عز الدين فريد ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٦م .

وقد أوضحت تقارير اللجنة الاقتصادية للأمم المتحدة للبحث فى شئون إفريقيا ، أن معدل الإنتاج الصناعى الفردى ، فى دول العالم الصناعية ، يبلغ ٢٥ ضعفاً لمعدل الإنتاج الصناعى فى إفريقيا . ويوضح التقرير أن الصناعة هى الوسيلة الوحيدة التى تمكن الإفريقى من تحسن سريع فى مستواه .

٥ - التبعية الاقتصادية :

إن التبعية الاقتصادية من أخطر مشاكل التخلف ، التى تواجهها إفريقيا بصفة عامة ، فقد سحب المستعمر جنود الاحتلال فعلاً ، ولكنه ربط إفريقيا به برباط التبعية الفكرية والسياسية والاقتصادية [١] . ولعل أخطرها هو التبعية الاقتصادية ، المتمثلة فى تغلغل النفوذ الأجنبى الماثل فى : البنوك ، والشركات ، والمصانع الأجنبية ، والاتفاقات الاقتصادية فى شتى صورها ، التى تهدف إلى جعل الدول الإفريقية ، مورداً للمواد الخام التى تحتاجها الدول الرأسمالية ، وتكون فى نفس الوقت سوقاً لمنتجات الدول الصناعية .

وقد أدت تلك التبعية الاقتصادية إلى إغراق الدول الإفريقية بالديون الربوية ، وجعلت اقتصادها تحت سيطرة الدول الخارجية ، وأدت بها فى النهاية إلى تسولها رغيف الخبز من على موائد الأعداء . وبدلاً من أن تزرع إفريقيا القمح والأرز والذرة لقوتها ، تزرع بدلاً منه القطن والخضروات والزهور للتصدير ، لأنها محاصيل نقدية تنفيذاً للاتفاقيات الاقتصادية ، ثم تبحث بعد ذلك عن : من يعطيها رغيف الخبز باتفاقيات أخرى ، أكثر إجحافاً وأكثر مهانة ، وهكذا تظل إفريقيا تدور فى الحلقة المفرغة للفقر ، وما يتبعه من تخلف ومهانة ، ومدارك انحطاط لا نهاية لها ، تقود القارة بأسرها إلى مهالك ومهاوى تطيح بعزتها وكرامتها ، بل وبأسباب وجودها أصلاً .

كيف يعبر المسلمون فى إفريقيا مشاكل التخلف الاقتصادى ؟

تعتبر مشاكل التخلف من المشاكل المعقدة التى تثير كثيراً من الأسئلة الرئيسية فى دراسات التنمية الاقتصادية ، مثل ذلك [٢] :

- ما هى الأسباب وراء اختلاف مستويات المعيشة بين دول العالم ، واتساع هوة ذلك الاختلاف سنة بعد أخرى ؟

- ما هو جوهر مشكلة التخلف ؟ وما هو تعريف التخلف ؟ هل من الممكن الوصول إلى مقياس سليم دقيق للتخلف وتعريف جامع لهذه الظاهرة ؟

-هل التخلف مشكلة بسيطة أم مركبة ؟ هل هو مشكلة جزئية أم كلية ؟ . . . بمعنى

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ : « إفريقيا يراد لها أن تموت جوعاً » مرجع سابق (ص١٨٦) .

(٢) « التنمية والتخطيط الاقتصادى » : د . عمرو محيى الدين ، (ص ١٣) ، دار النهضة العربية .

آخر : هل يمكن النظر إلى ظاهرة التخلف من الزاوية الاقتصادية فقط ؟ أم أن التخلف ظاهرة شاملة ومركبة تشمل كافة الأبعاد الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية لتلك المجتمعات التى تسودها هذه الظاهرة ؟

- ما هى طبيعة التغييرات اللازم إجراؤها حتى يستطيع بلد ما أن يكسر إسار التخلف؟

- هل يرجع نجاح عملية التخطيط للتنمية ، إلى ما تستطيع حكومات الدول النامية تحقيقه فى المجال الاقتصادى ؟ أم أن مواجهة التخلف كمشكلة اقتصادية ، لا يمكن أن يصيبه النجاح ، إذا لم تتحقق تغييرات اجتماعية وسياسية وثقافية أساسية ؟

- كيف استطاع الاتحاد السوفييتى فى فترة قصيرة زمنياً ، أن يصل إلى مستويات مرتفعة للمعيشة ، وإلى تحقيق معدلات مرتفعة من النمو الاقتصادى والتكنولوجى ، لم يسبق لها مثيل ؟

- كيف استطاعت الصين أن تسبق الهند فى معدلات النمو الاقتصادى ، وفى مستويات التقدم الصناعى والتكنولوجى ، بالرغم من بدء عملية الإنماء الاقتصادى فى البلدين فى نفس الوقت تقريباً ، وبالرغم من تشابه ظروفهما إلى حد كبير ؟ هل يرجع ذلك إلى اختلاف فى استراتيجية الإنماء المتبناة فى البلدين ، أم إلى اختلاف النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية السائدة فى البلدين ، أم إلى كل هذه العوامل مجتمعة ؟

- لماذا كانت اليابان هى الدولة الوحيدة فى آسيا ، التى استطاعت أن تكسر إسار التخلف فى القرن التاسع عشر ، وأن تصبح دولة صناعية ، بالرغم من أنها كانت تعيش نفس الظروف الجغرافية والاقتصادية ، و. . . . كبقية بلدان آسيا ؟

والرد على هذه الأسئلة يمكن بلورته فى عبارة موجزة وهى إرادة الشعوب وحسن التخطيط وتوجيه الموارد :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة   فلا بد أن يســتجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجـــــلى   ولا بد للقــيد أن ينكســـر

فالإنسان هو المحرك الأول لعملية التنمية : فهو الذى يزرع الأرض ، ويدير الآلة ، وينظم العملية الإدارية فى المؤسسات والشركات، ويقود عملية التنمية فى جميع المجالات وعلى قدر العزيمة والإرادة والتقدم الفكرى لذلك الإنسان ، يكون نجاح عملية التنمية وتحقيقاً لأهدافها.

وإذا أصاب الإنسان الوهن ، فإن ذلك الخطر يستشرى فى المجتمع ككل ، مما يوهن الأمة بأسرها وينذرها بالويل والدمار [1] . وهذا ما حذرنا منه رسول الله ﷺ ، وكأنه

(١) « الوهن وباء خطير ومرض قاتل » : د . محمد الزحيلى ، مجلة الوعى الإسلامى (ص ٤٤) ، العدد (٢٤٣) ، ربيع الأول ١٤٠٥ هـ/ ديسمبر ١٩٨٤م

يستشف حجب الغيب ، لما سيكون عليه المسلمون فى عصرنا الحالى ، حيث قال صلوات ربى وسلامه عليه : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق ، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها » ، قيل : يا رسول الله ؛ فمن قلة نحن يومئذ ؟ قال : « لا ، بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن » ، فقال قائل : يا رسول الله ، وما الوهن ؟ قال : «حب الدنيا وكراهية الموت» (رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، عن أبى هريرة وثوبان) .

وهكذا يصور الرسول ﷺ حال الدول الإسلامية ، وقد تداعت عليهم الأمم الاستعمارية والشعوب المعادية ، وتكالبت على أرضهم وبلادهم ، وجزأت أوطانهم وديارهم ، وسلبت نصيباً كبيراً وعزيزاً من مقدساتهم ، وتآمرت ، ولا تزال تتآمر عليهم فى كل قطر وجانب ، وتحيك لهم المؤامرة تلو المؤامرة للإطاحة بهم ، وفرض الاستسلام عليهم ، وضمان الاستذلال والاستسلام لهم ، وتنوع عليهم أساليب الاستغلال والابتذاذ لثرواتهم واقتصادهم ، وتفرض عليهم الأفكار الخبيثة ، والمبادئ البراقة ، والقيم الدخيلة والقوانين الوضعية ، وتغزوهم فكرياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً فى عقر دارهم ، وتتقاسمهم النفوذ ومناطق السيطرة .

ولم يكن المسلمون فى إفريقيا أحسن حظاً ، من إخوانهم المسلمين فى بقاع الأرض ، بل على العكس ، لقد نالهم النصيب الأكبر من أكلة الأمم ، حيث اجتمعوا على اقتسامها والقضاء عليها كما يجتمع الجياع حول الطعام ليتناولوه ، فلا يرفعون أيديهم عنه، وفى القصعة أثر لوجوده ، وقد اشتد نصيب المسلمين فى إفريقيا لسببين رئيسين :

١ - إن إفريقيا زاخرة بالثروات الهائلة ، مما يزيد طمع الطامعين فيها .

٢ - إن غياب الوعى الإسلامى للإفريقيين كان أشد ، لغياب اللغة العربية التى هى أساس فهم الفقه والقرآن ، وترتب على ذلك زيادة ضعف المسلم الإفريقى وتخاذله وانكساره .

حلول حتمية لعبور مشاكل التخلف الاقتصادى :

ولذلك فإن الحلول الحتمية أمام المسلمين فى إفريقيا لعبور مشاكل التخلف الاقتصادى تتمثل فى الآتى :

- تفرض قضايا التنسيق والتكامل الاقتصادى نفسها على المسلمين حالياً ، فى كل بقاع الأرض لانتشالهم من مهاوى التخلف والضياع ، أمام التكتلات الاقتصادية العالمية [(١)] .

---

(١) « أهمية التكامل الاقتصادى بالنسبة للبلاد الإسلامية » : الأستاذ مجدى عبد الفتاح سليمان ، مجلة الوعى الإسلامى ، (ص ٣٢) ، العدد (٢٤١) ، محرم ١٤٠٥ هـ/ أكتوبر ١٩٨٤م .

- إن الرجوع إلى ينابيع الإسلام الصافية ، هو النجاة من طوفان الصراعات فى العصر الحديث : حيث نجد أن الإسلام هو أول من وضع أسس التعاون والتكامل الاقتصادى ، فالإسلام فى الأصل هو وحدة الأمة الإسلامية ، فى مواجهة الانعكاسات والتقلبات والسياسات الأجنبية ، وإن قسمت الأمة دول عدة .

- يروى لنا المؤرخون أروع صور التكامل الاقتصادى فى صدر الإسلام ، فيقول ابن الطقطقى : « وإذا ورد إلى المدينة مال من بعض البلاد ، أحضر إلى مسجد الرسول ﷺ، وفرق فيهم على حسب ما يراه الرسول ﷺ ، وجرى الأمر على ذلك مدة خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فلما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة ، وهى خلافة عمر رضى الله عنه ، رأى أن الفتوح قد توالت ، وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت ، وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت ، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم [(١)] .

- ويحدثنا التاريخ عن ازدهار الدولة الإسلامية ، فى عهد عمر بن عبد العزيز ، بسبب تحقيق سياسة التكامل الاقتصادى فى أروع صورها ، حيث أمر ولاته أن يبدأوا بتغطية حاجات أقطارهم ، وما فاض وبقى يرسل إلى الخزانة العامة ، ومن قصر إقليمه عن تغطية حاجات أهله ، أمده الخليفة بما يغطى عجزه .

ولم يكن فى هذا العصر الذهبى أية قيود ، على تنقل المسلمين من بلد إلى آخر ، من أجل العمل أو التجارة أو الاستثمار ، ولم يتقيدوا بأى قيود جمركية بين الولايات المختلفة، كما كان حق الملكية مكفولاً لكل مسلم ، من كل بلاد الأمة الإسلامية [(٢)] .

- إن التكامل الاقتصادى للدول الإسلامية ، يعد بمثابة قوة دافعة لعملية التنمية ، ليس فى إفريقيا وحدها ، إنما للأمة الإسلامية بأسرها نظراً لوحدة العقيدة ، وتنوع المناخ ، وتنوع الثروات ، حتى تنوع الاحتياجات :

فهناك مناطق تتمتع بثروة بشرية هائلة ، ومناطق تعانى من نقص الأيدى العاملة ، وهناك مناطق تتمتع بقدر وافر من الموارد الزراعية الغير مستغلة ، بينما هناك مناطق تعانى من قلة موارد الطعام وسوء التغذية .

- إن مواجهة قوى الكفر للرسول ﷺ وأصحابه ، ومقاطعتهم وعدم البيع لهم أو الابتياع منهم ، تعتبر أقدم صور التكتلات الاقتصادية ، التى استهدفت الإضرار بمصالح المسلمين ، فلا بد أن يفطن المسلمون اليوم إلى ذلك ، ويعيدون تنظيم أنفسهم ، والتعاون

---

(١) « من الآداب السلطانية والدول الإسلامية » : ابن الطقطقى الفخرى، طبعة القاهرة، (ص ٦٨).
(٢) كتاب « خلفاء الرسول » للأستاذ خالد محمد خالد .

بينهم ، خاصة بعد أن أصبحت البلاد الإسلامية هى أكثر الدول تضرراً من قيام التكتلات الاقتصادية الدولية فى الوقت الحاضر [1] .

– هناك حلول أخرى تلائم ظروف القارة الإفريقية نفسها ، وتفرضها ضرورة الاعتماد على النفس ، مواءمة لعقيدة الإسلام ، التى تستثير قدرات النفس البشرية إلى أقصى حدودها فى مواجهة الأزمات ، مثلما علمنا القرآن الكريم ، فى كيفية مواجهة شعب من شعوب إفريقيا لأزمته الاقتصادية ، وهو شعب مصر على عهد يوسف عليه السلام [2] :

﴿ قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلاً مما تأكلون * ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون * ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ [3] .

ومن تلك الآيات الكريمة ، تنبع تلك الحلول الذاتية لمسلمى إفريقيا ، فى مواجهة مشكلة التخلف الاقتصادى ، والتى تتمثل فى :

* عدم الاعتماد على الغير ، وخاصة الأعداء ، فى حل مشاكل الأمة ، لأن المعونات غالباً ما تكون مشبوهة ومشروطة ، وتعرض حرية الأمة للضياع ، لذلك لم يقل القرآن : اقترض أو اطلب معونة ، ولكن قال : **﴿ تزرعون ﴾** .

* العنصر البشرى عنصر إيجابى ، لذا يجب استغلاله ، وذلك من خلال إيجاد فرص العمل فى إطار الزراعة (الكثيفة العمل) [4] ، لأن العمل ، والعمل الجاد ، هو أساس نهضة الشعوب وتقدمها ، ولذا قال المولى سبحانه وتعالى : **﴿ دأباً ﴾** ، فمعظم المزارع التى تعتمد نظام المزروع الواحد ، تنتج غلة واحدة فى السنة ، ونتيجة لذلك تبقى المزرعة معطلة ، ويعانى معها العمال من البطالة الموسمية ، مما يفرض على المسئولين فى إفريقيا تسهيل فرص العمل لهم : بحفر الآبار لاستخراج المياه من جوف الأرض ، وشق الطرق ، وإنشاء المصانع التى تستغل الناتج الزراعى ، بدلاً من تصدير المنتجات الأولية بأرخص الأسعار ، واستيرادها مصنعة بأغلى الأسعار ، مما يحدث خللاً فى موازين مدفوعات الدول الإفريقية .

* الادخار الجماعى [5] وسيلة من أنجح الوسائل لمواجهة الأزمات الاقتصادية ، تنفيذاً لأمر

---

(١) « السوق الإسلامية المشتركة والترتيبات النقدية اللازمة لها » : الأستاذ جابر السيد جابر ، مجلة الوعى الإسلامى ، (ص ٨٩) ، العدد (٢٣٤) ، جمادى الآخرة ١٤٠٤ هـ/ مارس ١٩٨٤م .

(٢) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ « إفريقيا يراد لها أن تموت جوعاً » ، مرجع سابق (ص١٨٢) .

(٣) يوسف : ٤٧ – ٤٩ .

(٤) « مأساة البلدان النامية ، الجوع فى عالم الوفرة » : بقلم كاميل حسن ، مجلة الأمة ص (٧٦)، العدد (٥٢) – السنة الخامسة – ربيع الآخر ١٤٠٥ هـ/ يناير ١٩٨٥م .

(٥) من بحث « المعالجة الإسلامية للتضخم الاقتصادى » (ص ٧) للأستاذة خديجة النبراوى مقدم لمركز الشيخ صالح عبد الله كامل للاقتصاد الإسلامى ، كلية التجارة – جامعة الأزهر – عام ١٩٨٣م.

المولى عزَّ وجَلَّ : ﴿ **فذروه فى سنبله** ﴾ ، فهذا يعود الإنسان على مواجهة الشدائد ، بالاستعداد لها دون مد يده للآخرين ، وبالتالى يعود الأمة الصمود فى وجه التحديات

* يجب إعطاء الأولوية فى الزراعة للحبوب التى يأكلها الناس ، عملاً بقول الحكيم الخبير : ﴿ **مما تأكلون** ﴾ ، فمشكلة إفريقيا التى أوجدها الاستعمار ، هى زراعة المحاصيل النقدية ، لمواجهة احتياجات المصانع فى أوروبا ، وبالتالى يجب إعادة الاعتبار لزراعة المنتجات الأساسية ، اللازمة للاستهلاك المحلى ، بدل التركيز على زراعة التصدير ، التى تلبى رغبات المضاربين ، وتترك شعوب إفريقيا تحت رحمة أعدائها ، للحصول على رغيف الخبز.

* يجب الاهتمام بخصوبة التربة ، ومشاريع الرى ، وتدريب الأيدى العاملة ، وتأهيل قيادات التنمية الإفريقية ، وتشجيع الأبحاث العلمية ، لتحقيق الاستغلال الأمثل للموارد الطبيعية ، ومواجهة أزمة المديونية ، التى تعد أخطر حلقات قضية التخلف الاقتصادى ، وتوفير تخطيط طويل الأجل ، يشكل الاستراتيجيات التخطيطية اللازمة ، لتحقيق الأهداف المنشودة ، واستخدام المياه فى توليد الطاقة ، حيث يوجد فى إفريقيا حوالى ثلث إمكانيات العالم فى مجال توليد الطاقة من المصادر المائية [١] .

تلك كانت بعض ملامح الحلول ، أمام المسلمين فى إفريقيا ، لعبور مشاكل التخلف الاقتصادى ، حقيقى أن هناك الكثير من العقبات التى تعوق عملية التنمية ، ولكن ليس هناك مجال للخيار ، لأنها مسألة مصير أمة وكيانها وكرامتها ، وطريق الألف ميل يبدأ بخطوة ، تدفعها قوة العقيدة ، وحوافز الإيمان بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾ [٢] .

ثانياً - مشكلات ناتجة عن التخلف الاجتماعى :

* حقيقة التخلف الاجتماعى :

إن التخلف المادى الذى تشكو منه إفريقيا ، هو نتيجة للتخلف الاجتماعى الذي مر بها نتيجة تخلفها الفكرى والعقائدى : هوى فى النفوس ، ونقص فى الوعى والبصيرة بشمولية الرسالة الإسلامية ، التى توقظ الإنسان من سباته وخموله ، وتنطلق به إلى آفاق تحررية واسعة ، فتنطلق معه الأمة من إسار التخلف الذى تعيش فيه بكل أبعاده .

فالتنمية فى مفهوم الإسلام ، تستهدف الإنسان أولاً وأخيراً ، فهى ليست التنمية المادية التى يروجون لها - من الرأسماليين والماركسيين - لا فى أهدافها ولا فى وسائلها :

---

(١) مصر والتنمية الإفريقية - جمهورية مصر العربية - وزارة الإعلام ، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة ١٩٩٣م .

(٢) البقرة : ٤٥ .

فالتنمية الرأسمالية . تؤدى إلى مجتمعات استهلاكية فارغة الفؤاد قلقة ، تجعل التكنولوجيا إلهها المعبود ، وهى أنانية ، تعيش بحبوحتها المادية على حساب بؤس الآخرين وفقرهم، تهتم بكلابها فى أوروبا وأمريكا ، ولا تهتم بالبشر فى آسيا وإفريقيا . يقول « ستيوارت أودال » الوزير الأمريكى الأسبق [1] : إن الخرافة التى تقول : إن النمو المادى هو التقدم، ما هى إلا توراة الدمار ، ذلك أن التنمية والنمو ليسا هدفاً أو غاية ، بل وسيلة لحياة إنسانية كريمة أفضل .

والتنمية الشيوعية : تهدف إلى كبت احتياجات الإنسان ، بطريقة لا تتناسب مع كرامته، وتجعله ترساً فى آلة ، يدور فى رحى الحياة لإشباع حاجاته وحاجات الآخرين .
أما التنمية فى الإسلام : فهى تقوم على صلة العبد بربه حباً وإيماناً به ، فيتحول هذا الحب إلى عمل يشمل إتقان العبادة ، ورفع الضيم والفاقة عن أبناء الأمة المحرومين ، وإعادة الأمن إلى نفوسهم وأبدانهم ومجتمعاتهم ، ونشر العلم لتحرير العقول من أسر الجهل وظلماته ، والسعى لعمران الأرض زراعة وصناعة وتجارة ، لرفعة شأن الأمة ، وتحرير احتياجاتها من سيطرة الأعداء ، المتربصين بها الدوائر ، وجهاداً فى سبيل الله ، دفاعاً عن ثغور الأمة المكشوفة ، وتعرض المال أو العرض أو الأرض للضياع .

وهكذا فإن التخلف الاجتماعى الذى أصاب إفريقيا ، كان الضربة التى أصابت القارة فى صميم فؤادها ، لأنه أصابها فى عناصر حياتها : فى فكرها وثقافتها وسياستها وحريتها وصحتها ، وقبل ذلك كله فى عقيدتها ، ونكاد نجزم بأنه ما كان للاستعمار أن ينفذ إلى هدم أى شىء ، قبل زعزعة العقيدة ، إن لم يكن القضاء عليها .

وسنحاول تناول بعض مشكلات التخلف الاجتماعى ، التى يعانى منها المسلمون فى إفريقيا ، طالبين من الله العون أن يهدينا جميعاً سواء السبيل ، ويحررنا من ربقة التخلف التى تثقل صدورنا ، وتعوق نفوسنا عن الرقى فى ملكوت السموات والأرض .

١ - مشكلة الأمية :

- تبلغ نسبة الأمية فى إفريقيا حوالى ٦٠٪ حسب إحصاء ١٩٨١م [٢] .

ويرجع ارتفاع تلك النسبة إلى عدة عوامل ثقافية واجتماعية ، وخاصة بعد سن السادسة

---

(١) « الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين » : د . نبيل صبحى الطويل ، محاضرة مسجلة فى مجلة الأمة (ص ٦٢ - ٦٦) العدد الخامس والأربعون - السنة الرابعة - رمضان ١٤٠٤ هـ/ يونيو ١٩٨٤م .

(٢) « مؤسسات المسلمين بين معطيات الواقع والدور المطلوب » : حوار مع د . عبد الله عمر نصيف مجلة الأمة (ص ٤١) العدد الثالث والخمسون - السنة الخامسة - جمادى الأولى ١٤٠٥ هـ/ فبراير ١٩٨٥م

أما قبل ذلك فيرجع إلى الغذاء المفقود لدى فقراء المسلمين . يقول البرفيسور « آبل سميث» [1] : يضر سوء التغذية بنمو وتطور الإنسان ، وذلك بالتأثير على شكل وحجم الجسم . أما فى الصغار فيؤدى إلى تخلف خطير فى النمو العقلى ، ويؤدى سوء التغذية فى المدرسة إلى البلادة ، وضعف التركيز ، ونقص الحافز الشخصى ، وضعف الإنجاز ، والتغيب وترك الدراسة المبكر ، وصعوبة العلاقات مع المدرسين ورفاق المدرسة ، ثم يذكر أن نسبة الإصابة بسوء التغذية بين الأولاد - دون سن السادسة - تصل إلى ما بين ٦٠ - ٧٠٪ ، وتفيد المعلومات المستقاة من الملاحظات العلمية : أن الأثر المباشر لسوء التغذية على وظائف الدماغ ، يمكن أن يكون إبان الأشهر الثلاثة الأخيرة من الحمل ، والأشهر الستة الأولى من العمر .

ومما لا شك فيه أن محو الأمية ، أداة جوهرية لإحداث التغييرات الاجتماعية ، على كل المستويات [2] ، إذ هى المجال الأساسى لإثارة الوعى ، ويصبح الإنسان قادراً على تفهم المواقف المحيطة به ، وقادراً على تحرير نفسه وتغيير واقعه .

بل إنه من المستحيل تغيير المجتمع ، إذا كان معظم أفراده لا يلقون نظرة نافذة على الحقائق الاجتماعية وظواهر السيطرة ، وإذا لم يكونوا على وعى بأنفسهم وبتاريخهم ، وإذا لم يحسوا بالرغبة فى إقامة مستقبل أفضل ، والاضطلاع بالمسئولية من أجل مصيرهم الخاص .

وإذا كان للمستعمر عذره فى إبقاء الحالة على ما هى عليه ، لأنه لا يهمه محو الأمية عن الشعوب المستضعفة التى يتسلط عليها ، ما دامت هذه العملية قد تفتح الباب أمامهم للمطالبة بالاستقلال ، وللمشاركة الإيجابية فى صنع القرارات الوطنية ، ولأن الأمة الجاهلة أسلس قياداً من الأمة المتعلمة ، ذلك أن الأميين فى المجتمع كمثل الجماد الأصم المجرد من الحياة والفكر والإرادة ، لا حول له ولا قوة ، نقول : إذا كان للمستعمر عذره فإنه ليس لنا اليوم أى عذر ، خاصة ، إذا عرفنا أن محو الأمية لا يعنى تعلم الكبار القراءة والكتابة والحساب فحسب ، إنما يعنى تحرير الإنسان واكتمال وعيه ، بكل ما يحيط به من حقائق ، مما يمكنه من المشاركة الفعالة فى اتخاذ القرارات، التى تهم وطنه من قريب أو من بعيد ، لا أن يكون أداة طيعة فى يد هذا النظام أو ذاك ، إن محو الأمية هو عملية إعادة تربية للأفراد ، بحيث ترفع عنهم الأمية السياسية ، والأمية الاقتصادية ، والأمية الاجتماعية .

ولا يخفى على أحد ما سببه تأخر عملية محو الأمية فى إفريقيا ، حيث تسبب فى

---

(١) « الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين » د. نبيل صبحى الطويل . . مرجع سابق .

(٢) « قصور السياسة التربوية فى الوطن الإسلامى » : بقلم محمد الصالح عزيز ، مجلة الأمة (ص ٧٨) ، العدد (٥٠) - السنة الخامسة - صفر ١٤٠٥ هـ/ نوفمبر ١٩٨٤م .

إبقاء التفكير الخرافى ، الذى يفقد الإنسان قدرة السيطرة على بيئته ، كالاعتقاد بالعفاريت واستخدام الأحجبة واللجوء إلى قراءة الكف والمشعوذين ، مما يجعل الجهود المبذولة للخروج من التخلف لا تؤتى ثمارها المطلوبة ، ما لم تقترن بتحرير الإفريقى المسلم من الجهل ، ورجوعه إلى عقيدته الحقة ، التى لم تقف قط فى وجه التطور العلمى أو التطور الحضارى بمفهومه الواسع [1] .

٢ - مشكلة التعليم :

ركز النظام الاستعمارى فى إفريقيا جهده ، على جعل العملية التربوية نفسها ، عملية تنصيرية ، تمجد آثار المستعمر وثقافته ، وتعمل على تزييف الطابع الإسلامى ، وعلى طمس تراث الوطن الإسلامى ، وتقاليده وعاداته ، بحيث تقدم لجهازها الاستعمارى ، الرجال القادرين على القيام بمهمته الاستعمارية ، فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، إذا اضطر فى يوم من الأيام إلى مغادرة البلاد .

وهكذا أهمل هؤلاء الرجال التراث الإسلامى الإفريقى ، وخلقت هوة بينهم وبين مجتمعاتهم الإفريقية ، مما جعلهم مزعزعى العقيدة سقيمى الوجدان ، هذا بالنسبة للمدارس التنصيرية ، وكثير من المسلمين المخلصين لا يرغبون فى إلحاق أبنائهم بها ، وهنا يحكم عليهم بالتشرد أو التعلم فى العراء ، أو فى مدارس ضيقة وحقيرة أمام المدارس التنصيرية ، مما يغرس الدونية فى نفوس أطفال المسلمين ، وهذا يتنافى مع عزة الإسلام ، التى حكم الله بها لعباده : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ [2] .

وننقل هنا أحد الآراء المخلصة فى علاج تلك المشكلة :

يقول د . عبد الله عمر نصيف [3] : « الحل هو أن نبدأ بتعليم الأطفال أولاً ، وتوفير مدارس لهم . فالاهتمام بالمدارس وتوفير المدرسين لها ، أهم بكثير من أى أسلوب آخر فى الدعوة ، ونستطيع أن نستخدم المواد والخامات المتوفرة فى البيئة ، بدلاً من إنشاء مدارس ضخمة لغرض المباهاة ، إننا لا نزال نعانى من مركب النقص ، نريد أن نبنى مساجد بقباب ومنابر بالهواء المكيف ، وننسى أننا بحاجة إلى نشر دور لتعليم الأطفال ، فى مناطق المسلمين ، وأذكر أنه عندما ذهبت مجموعة من الأفراد لبحث موضوع المجاعة فى إفريقيا، وجدت فى بعض المناطق أن عدد الأطفال المسلمين الذين يهيمون بلا مدارس، يزيد عن ثلاثمائة ألف فى المنطقة الواحدة ، إننا نتهاون فى قضية تعليم الأبناء ، ثم نكافح الأمية عند الكبار ، فكأننا فى الحقيقة نعمل فى فراغ !! » .

---

(١) نفس المرجع « قصور السياسية التربوية فى الوطن الإسلامى » . (٢) المنافقون : ٨ .

(٣) « مؤسسات المسلمين بين معطيات الواقع والدور المطلوب » . حوار مع د. عبد الله عمر نصيف، مجلة الأمة (ص ٤١) العدد (٥٣) - السنة الخامسة جمادى الأولى ١٤٠٥هـ - فبراير ١٩٨٥م .

٣ - مشاكل صحية :

إن المرض والفقر فى إفريقيا صنوان لا يفترقان ، ويساعد على ذلك سوء التغذية ، وقلة الوعى الصحى [(١)] ، وهناك خسارة مادية تنتج من تعطل الأعمال ، بسبب الأمراض ، أو كثرة الوفيات ، أو ضآلة الإنتاج ، ويساعد على انتشار الأمراض ، المساكن غير الصحية ، وإهمال النظافة ، هذا إلى جانب العادات الضارة المتوارثة ، بنسبة الأمراض إلى الأرواح الشريرة .

ولقد رأينا فى بداية هذا الفصل : كيف أن حوالى ١٧١ مليون شخص مصابون بالسل من مجموع السكان البالغ عددهم ٦٤٠ مليون نسمة ، وهذا راجع إلى هجرة الفلاحين إلى المناطق الصناعية ، وازدحامهم فى أماكن ضيقة ، هذا مع الأجر الزهيد الذى لا يوفر لهم الطعام الجيد . ورأينا أيضاً أن عدد المصابين بالإيدز فى قارة إفريقيا وحدها ، نحو ٨ ملايين من إجمالى ١٢ مليون مصاب فى العالم . هذا علاوة على الأمراض الطفيلية ، وأمراض المناخ السيئ ، كاجتماع الحرارة والرطوبة والحميات ، والأمراض الناتجة عن عض الحيوان والثعبان ، ولدغ الحشرات .

ومما لا شك فيه أن تلك المشاكل الصحية ، راجعة إلى غياب العقيدة ، وتخلف الوعى الاجتماعى ، كما يرجع إلى نقص الغذاء الناتج عن الاتجاه إلى المحاصيل النقدية ، وترك المحاصيل التى كان يزرعها الفلاح الإفريقى لنفسه وأسرته ، قبل دخول المستعمر الأوروبى .

وتذكر التقارير أن الأطفال فى كينيا لا يصل منهم إلى سن الخامسة سوى ٦١٪ ، ولا يصل إلى سن السادسة سوى ٥٦٪ ، وهكذا فى جميع البلاد التى احتلها الأوروبيون ، والنتيجة أن يموت كل عام آلاف من الأطفال الإفريقيين ، لم يكن ليموتوا لو استخدمت ثروات بلادهم فى الخدمات الاجتماعية الخاصة بهم [(٢)] .

ويقول د . نبيل صبحى الطويل [(٣)] : إن المسلمين ليسوا بحاجة للتسول فى أروقة الوكالات الدولية ، من أجل العيش وتوفير الأساسيات فى الحياة . فالدول المسلمة الغنية، هى التى تدعم ميزانيات وكالات الأمم المتحدة . ومن الممكن أن تؤسس وكالة إسلامية ، ببعض وليس كل الموارد المتأتية من الزكاة على المعادن فى باطن الأرض ، والبترول (الركاز) بدلاً من انتظار مساعدات مؤسسات دولية قائمة ، ليس من أولوياتها رفع الظلم الاجتماعى عن المسلمين ، بل قد يكون فى المراكز الفعالة فى إداراتها ، من لا يريد مساعدة المسلمين أصلاً، إن لم نقل : إنه يريد العكس تماماً .

---

(١) الجغرافيا السياسية لإفريقيا - مرجع سابق (ص ٢١٦) .

(٢) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ : إفريقيا يراد لها أن تموت جوعاً - مرجع سابق (ص٩) .

(٣) « الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين » د. نبيل صبحى الطويل - مرجع سابق (ص ٦٣) .

٤ – مشكلة اللاجئين :

إن عدد اللاجئين فى إفريقيا ، كان حسب إحصاء ١٩٨١م أكثر من ستة ملايين نسمة ، وهو فى ازدياد مستمر ، وأكثرهم من البلاد الإسلامية مثل : تشاد وأوغندا والصومال وأرتيريا والحبشة [١] ، وتنتج مشكلة اللاجئين ، من النزاعات بين الدول والكوارث الطبيعية مما يسبب تشرد أعداد كبيرة من الناس ، وهذا يتطلب تضافر الجهود الإسلامية لمعالجة النزاع بين الأخوة المسلمين ، ثم معالجة أوضاع هؤلاء اللاجئين والمشردين ، بتوطينهم وتثقيفهم وتدريبهم ، لأن تركهم هكذا ، ضياع لأخوة الإيمان ، وتهاوناً بقول الله تعالى :

﴿ المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ [٢] .

٥ – مشكلة النزوح من الريف إلى الحضر [٣] :

سبب هذه المشكلة هو فترات البطالة المتقطعة بين المواسم الزراعية ، وضعف الدخول ، وانعدام الخدمات ، وغياب الحاجات الضرورية ، ولكن الهجرة إلى المدن والمعيشة فى حواشى الحواضر الكبرى ، لا تحل المشكلة ، فأكثر هؤلاء الريفيين النازحين ، هم من العمال غير المهرة ، لعدم تيسر التعليم والتدريب لهم ، وأكثرهم يعيش فى أكواخ ، من الصفيح البالى والخشب الرقيق ، يتكدسون فى مساحات ضيقة ، ينقصهم الماء النظيف ، والطعام المغذى الكافى ، وتحيط بهم البيئة الملوثة ، حيث تتجمع القمامة والأوساخ والمياه الآسنة والذباب والحشرات والفئران والحيوانات الشاردة . وهذا المحيط صالح لانتشار الأمراض السارية مع سوء التغذية .

وبما أن تخطيط المدن الجديدة ، أمر لا تعرفه أكثر المراكز الحضارية فى إفريقيا حتى الآن، فلا توجد استعدادات لتقديم الخدمات الأساسية لهؤلاء المساكين ، فتتعقد أمورهم الحياتية بين الفقر والجهل والمرض ، وفقدان الأمن النفسى والغذائى والاجتماعى ، وتفشى الانهيار الخلقى والانحرافات النفسية . وتكثر الأمراض الجنسية والجلدية . ولعل هذا يفسر انتشار الإيدز فى إفريقيا بنسبة أكبر من العالم كله ، وكلما ازداد عدد سكان هذه المراكز الحضارية ، تزداد المشكلة اتساعاً وعمقاً وتعقيداً ، فتنهار الخدمات على بساطتها أصلاً ،

---

(١) منظمة الوحدة الإفريقية – مؤتمر رؤساء الدول والحكومات – الدورة العادية التاسعة والعشرون ، مجلس الوزراء ، الدورة العادية الثامنة والخمسون ، مقدمة لتقرير الأمين العام (٢١ – ٣٠ يونيو ١٩٩٣م) – القاهرة – جمهورية مصر العربية .

(٢) التوبة : ٧١ .

(٣) « الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين » د. نبيل صبحى الطويل ، مرجع سابق (ص ٦٤) .

وينقطع التيار الكهربائى والماء ، ويتضاعف عدد المدمنين على الكحول والمخدرات ، وتنقص المواد الأساسية ، وتزيد الأنانية الفردية . ويشكل هؤلاء الناس قسماً كبيراً فى بلاد إفريقيا المسلمة .

يقول المفكر الفرنسى المسلم رجاء جارودى : فى عام ١٩٨٢م أنفق العالم على الأغراض العسكرية ٦٥٠ ملياراً من الدولارات ، كما مات جوعاً أكثر من خمسين مليون مواطن فى الدول الفقيرة ، ولو طبقت تعاليم الإسلام بعناية ما حدث ذلك !!

تلك كانت بعض مشاكل التخلف الاجتماعى فى إفريقيا ، وهى لا تختلف كثيراً عن مشاكل التخلف الاجتماعى فى كثير من البلاد الإسلامية ، وإن اختلفت الصورة بشكل أو آخر ، وهذا يتطلب نهضة اجتماعية شاملة فى جميع البلاد الإسلامية ، تتكامل فى مفهومها ، وتتضامن فى جوهها وأهدافها ، لأن الخطب عظيم والمستقبل ينذر بأوخم العواقب إن استمر المسلمون فى سباتهم وخمولهم وغياب وعيهم عن عقيدتهم .

كيف يساعد المسلمون أنفسهم فى تجاوز مرحلة العجز ؟ [1] :

١ - المسارعة بوضع أنظمة تربوية نابعة من واقعنا ، بمعطياته التاريخية والجغرافية والثقافية والحضارية ، وأن نستمد برامج التعليم فى البلاد الإسلامية كلها ، من الفكر الإسلامى الخالص ، الذى يتميز عن غيره بنظرته الخاصة للفرد والجماعة ، وبنظرته للذكر والأنثى وأهمية كل منهما فى بناء الأمة الإسلامية ، وبنظرته الخاصة للحياة والكون والمعرفة .

وبهذا يمكن تنشئة المواطن المسلم ، الذى يعيش من أجل إرساء قيمه ، ويضحى فى سبيل مبادئه ، بكل ما يملك من فكر وجهد ومال . ولعل ذلك أهم ما يميز الإنسان المتحضر ، عن الإنسان المتخلف ، أو إنسان ما قبل الحضارة ، كما يسميه مالك بن نبى رحمه الله ، وقد بينت الدراسات الجامعية العديدة ، ما يزخر به الفكر التربوى الإسلامى من قدرات وطاقات ، تنتظر من يفجرها ويستثمرها ، من أولى العزم المخلصين ، الذين تفرض عليهم تحديات الواقع المر ، خوض معركة العلم والجهاد ، حيث يقاس فى عصرنا هذا ، مداد العلماء بدماء الشهداء .

٢ - يجب أن نعيد للمسجد دوره فى القيام بمهمته التربوية ، جنباً إلى جنب مع المدرسة والمعهد والجامعة ، ولا ننسى أن المسجد كان فى أول عهده ، مدرسة للعلوم الحربية والعلوم السياسية والعلوم التجارية وغيرها ، وفى المسجد وقعت المعاهدات ، واتخذت القرارات الهامة والخطيرة ، ومن المسجد تخرج أعلام الفكر الإسلامى ، فى الطب وفى الفلك وفى الحساب وفى الجغرافيا . كل ذلك أمر طبيعى ، إذ فى المسجد يتحسس المسلم

---

(١) « قصور السياسية التربوية فى الوطن الإسلامى » محمد الصالح عزيز -مرجع سابق (ص٨٠) .

خطواته نحو الطريق الصحيح ، ويتلقى المبادئ التى ستعيد له طريق حياته بأكلمها .
وذلك يناسب شعوب إفريقيا المسلمة ، حيث تعانى من قلة الإمكانيات فى بناء المدارس ، وما لا يدركِ كله ، لا يترك كله ، فلا بد أن يقوم المسجد بدوره فى تلقين العلم ومبادئ الحياة ، أفضل من ترك أطفال المسلمين فى الشارع للضياع والتشرد .

٣ - يجب أن تخضع المنح الدراسية التى تمنح لأبناء إفريقيا لنوع من الدراسة ، يتم بموجبها اختيار مجالات معينة تسد احتياجات قائمة فى المجتمعات الإفريقية ، مثل العلوم الشرعية ودراسة الطب والهندسة والصيدلة ، و . . . فالمجتمعات الإسلامية فى إفريقيا قد لا يوجد ببعضها طبيب واحد ، من أهل البلد نفسه ، وإنما هناك أطباء أجانب ، وغالباً ما يكونون تابعين للكنيسة (١) .

٤ - يجب أن توجه الدول الغنية المسلمة عناية خاصة ، إلى الإعلام الإسلامى فى إفريقيا باللغات المتداولة ، فهذا إنفاق فى سبيل الله يعظم أجره ، لأنه يوجه إلى خدمة الأهداف الفاضلة ، والتأثير على وجدانيات وسلوك الإنسان المسلم ، بما تراه العقيدة الإسلامية ، مع التأكيد على أن حرية التعبير والإجادة الفنية ، لا تعنى الاستهتار بعقيدة الأمة .

٥ - هناك نوع آخر من الجهاد العلمى ، مطلوب من الدول الإسلامية التى أفاء الله عليها من فضله ، ليبلوها أيها أحسن عملاً . ألا وهو العمل على نشر الكتاب الهادف ، باللغات الإفريقية المتداولة ، وتنقية سوق الكتب ، من كل ما من شأنه أن يشوه الإسلام، أو يطعن فيه من مزاعم الحاقدين ، والعمل على إيصال الكتاب إلى القارئ بأقل الأثمان، إن لم نقل بالمجان ، حيث يكون من أولى أهداف أعمال الخير لكل القادرين ، هو إنشاء مكتبات عامة فى إفريقيا ، تكون منارات حضارية ، وإشعاعات ثقافية ، تواجه أعلام الفكر الغربى والتنصيرى .

٦ - على مسلمى إفريقيا المخلصين ، أن يستعيدوا جهاد أجدادهم ، للدفاع عن عقيدتهم الإسلامية الغالية ، وليس المطلوب منهم حمل السلاح ، فهذا يزيد مأساة الشعوب الإسلامية الإفريقية ومعاناتها ، من الفقر والجهل والمرض والتشتت والتشرد . ولكن المطلوب منهم وقف زحف الأفكار الغربية ، والإعجاب بها لدي شباب إفريقيا ، وذلك بالتعرض لنقدها النقد الموضوعى العلمى ، وليس العاطفى ، لإقناع الشباب بأن ما عندهم يفوق ما يأتيهم من الخارج ، ومتى اكتسب الشباب الثقة فى نفسه ، وآمن بعظم رسالته ومسئوليته فى حماية أمته من الذوبان ، أصبح قادراً على العطاء والبذل .

وهنا فقط تستعيد إفريقيا حيويتها وقدرتها على خط أقدارها بنفسها ، وانتشال شعوبها

---

(١) مؤسسات المسلمين بين معطيات الواقع والدور المطلوب ، حوار مع د. عبد الله عمر نصيف ، مرجع سابق (ص ٤٣) .

من مدارك التخلف ، إلى مدارج العز والتقدم ، لتعلن على العالم أجمع ، أن الإسلام بحق - يوم أن يعتز به أبناؤه - هو دين الحضارة ودين الكرامة ، وأنه قادر على إحياء النفوس من مواتها ، والشعوب من سباتها ، وتصبح أمته التى تؤمن بمبادئه حقاً وفعلاً ، هى خير أمة أخرجت للناس ، وليس هناك خيار آخر أمام مسلمى إفريقيا : فإما الضياع أمام طوفان المادية ، وأطماع القوى البشرية ، وإما الاعتصام بحبل الله المتين وسراجه المنير : ﴿**ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم**﴾ [1] .

ثالثاً - مشكلات التخلف السياسى :

*** جذور التخلف السياسى :**

بقيت إفريقيا يحكمها الإفريقيون أنفسهم (وغالباً كانوا مسلمين) دون غيرهم ، قروناً عديدة ، حتى جاء الاحتلال ، وبدأ التقسيم ، وقضى على الحكومات الإسلامية والوطنية التى كانت من الشعب الإفريقى ، وتعمل من أجله ، لها قواعدها وقوانينها الخاصة التى تحكم بها ، والتى كان يقوم معظمها على شريعة الإسلام ، فكانت العلاقة بين الحكومة والشعب علاقة متينة واضحة لا غموض فيها .

حتى جاء الحكم الأوروبى فغير الأساليب المعروفة تغييراً جذرياً ، وفرض أسلوباً جديداً من الحياة لم يألفه ويتفهمه الإنسان الإفريقى ، ولم يعد للإفريقى حق النقاش والإقناع ، حيث حل نظام العقوبات الأوروبى ، محل الشريعة الإسلامية ، والأعراف التقليدية الإفريقية ، التى كان يعرفها الأهالى ويطيعونها ، طاعة نابعة من الاقتناع بصلاحيتها للمجتمع، الكل يعرف حقوقه وواجباته [2] ، حيث كان نظام الحكم الإسلامى لا يغير نظام القبيلة الهيكلى ، ولا يتعارض معه ، بل كان على شيخ القبيلة أن يحكمها، فى ضوء القواعد الأساسية للسياسة الإسلامية وهى : العدل ، الشورى ، المساواة ، الأمن على النفس والمال والعرض ، التكافل الاجتماعى بين المسلمين ، الجهاد دفاعاً عن حرية العقيدة ، وحرية المسلم فى العيش الآمن المستقل .

جاءت طريقة الحكم الأوروبى وأنظمته الوضعية ، بدلاً من الحكم الإسلامى ، فأحدثت خللاً جوهرياً فى الفكر السياسى الإفريقى ، فلم يكن للأوروبيين دراسة ومعرفة بالأقاليم وسكانها ، فهم لا يعرفون حدود انتشار القبائل والممالك ، لكى يضعوا لكل منها أنظمة وقوانين ، تتمشى مع ما ألفوه من قبل ، وكانت النتيجة أن أصبحت قبيلتان أو شعبان يخضعان لإدارة واحدة ، ما تقبله قبيلة ترفضه الأخرى . ونجد أحياناً أن

---

(١) آل عمران : ١٠ .

(٢) « الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام » : د . عبد الستار فتح الله سعيد ، دار الوفاء ، الطبعة الرابعة .

الشعب الواحد أو القبيلة الواحدة أصبحت بعد التقسيم مقسمة بين إقليمين ، لكل إقليم إدارته الخاصة ، فأصبح كل جزء من القبيلة ، خاضع لأسلوب فى الحكم واللغة ، يختلف عن الجزء الآخر .

ويعترف الأوروبيون أنفسهم بفشلهم فى إدارة الأقاليم ، التى كان يديرها أشخاص غير مؤهلين ، وشديدى التعصب ، أوائاهم من حثالة بريطانيا (كما يقول درك كارتن فى كتاب إفريقيا) [1] : ومن المغضوب عليهم فى بلدان أوروبا الأخرى ، لم يكتسبوا من الأهالى سوى الخوف والكراهية .

كانت القوانين والتشريعات والأنظمة ، تصدر من هيئات الاحتلال ، الذين لا يمثلون مصلحة الشعب الإفريقى ، بل كانت من جملة أعضائها ، أصحاب المصالح والشركات الأجنبية ، كالتعدين والتجارة والصناعة ، وحتى لو دخل أعضاء من الأفارقة المجالس الدستورية ، وأعطوا الحق فى مناقشة القوانين ، والأنظمة المقترحة ، ونقد الميزانية السنوية وأسلوب الإدارة ، ليس من الضرورى أن تأخذ الحكومة وأعضاء المجالس الآخرين بآرائهم فوجودهم كان للتضليل والدعاية فقط . أما المجالس التنفيذية أو السلطة المنفذة للقوانين ، فكانت بيد حاكم عام ، يساعده موظفون كبار كلهم من الأوروبيين ، كانت هذه السلطة فى البداية ، أشبه بإدارة شركة كبيرة يرأس إدارتها الملك ، يعطى أوامره لحكام المقاطعات، وكان حكام المقاطعات الفرنسية ، يُمنحون سلطة إعلان حالة الطوارئ ، وهى السلطة التى لا يمارسها فى فرنسا ، إلا البرلمان أو رئيس الجمهورية ، ولما أرادت بريطانيا إشراك الإفريقيين فى الحكم ، جاءوا بزعماء موالين لهم ، لذلك لم يتعاون معهم الشعب، إذ أن كثيراً من الأمور التى تحلو للزعماء ، لا تقبلها الشعوب ، وهذا ما حصل فى المستعمرات الفرنسية وغيرها .

أين هذا من أصول السياسة الحكيمة ، التى كانت تعرفها إفريقيا من قديم الزمان ، حيث عرفت العدل فى أرقى صوره ، لدرجة أن رسولنا محمد ﷺ وجه المسلمين الأوائل إلى الهجرة إلى الحبشة ، فراراً من الظلم السياسى ، المتمثل فى اضطهاد قريش لهم ، وقال لهم صلوات ربى وسلامه عليه : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » [2] .

وقد زاد الإسلام الذى عرفته إفريقيا ، تلك الأصول السياسية حكمة وازدهاراً ، فعاشت عصوراً حضارية راقية ، ذاقت فيها معنى العزة والرفاهية والكرامة والسيادة على أرضها ،

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ : إفريقيا يراد لها أن تموت جوعاً - مرجع سابق (ص٨٥).

(٢) « السيرة النبوية » للإمام أبى الفداء إسماعيل بن كثير ، تحقيق : د . مصطفى عبد الواحد (جـ٢ ص ٤) ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٦ هـ .

حتى جاء المستعمر ، وأعمل فيها معاول الهدم فى كيانها ، إلى أن خرجت صريعة ، تقاسى من كل مظاهر التخلف وما يتبعه من ألوان الهوان والتبعية .

مشاكل الحدود السياسية فى إفريقيا :

إن الضربة القاضية ، التى وجهها المستعمر بلا شك إلى إفريقيا ، هى ذلك التمزق الذى أحدثه الاستعمار فى حالة القبائل ، وتكوينه لوحدات سياسية مصطنعة ، لا تستند إلى أساس طبيعى أو بشرى [١] ، فقوة الدولة أو ضعفها تتمثل فى مقدرتها على اتخاذ قرارات معينة ، وكذلك فى مقدرتها على اتخاذ وسيلة للتنفيذ ، فيما تراه مناسباً لها داخل حدودها أو خارجها ، وقوة الدولة تعتمد على مساحتها ومواردها وسكانها والتكنولوجيا (المستوى الفنى أو التقدم العلمى) . فأساس القوة جغرافى ، وأهم دوافع العمل السياسى هو حفظ الأمن الداخلى والخارجى .

وتقسم القوة السياسية فى المحيط الدولى إلى ثلاثة أقسام : قوة عسكرية ، وقوة اقتصادية ، وقوة فكرية ، وكانت عملية التجزئة التى أحدثها الاستعمار ضد صالح الشعوب الإفريقية ، حيث أدت إلى تعدد الثقافات وتعدد الأحزاب ، وتعدد السياسات الاقتصادية ، وكلها عقبات وضعت فى طريق استعادة إفريقيا لقوتها وحيويتها .

فالحدود الإفريقية التى اصطنعها الاستعماريون الأوروبيون ، عملت وهم يجهلون الكثير عن حقائق القارة الطبيعية والبشرية ، بل إنهم عبروا عن الحدود التى رسموها بعبارة «الحدود الاستعمارية Colonial boundaries » [٢] .

ويمكن للدارس لتلك الحدود أن يستنتج من المشاحنات الكثيرة على الحدود ، أثر التنافس الاستعمارى ، للدول التى أرادت أن تحدد مناطق النفوذ ، فأنشأت حدوداً كانت ولا تزال معرقلة لحركة السكان ، فبعضهم يعيش فى حالة قبلية ، وآخرون يحترفون الرعى ، لا يفهمون معنى الحدود السياسية ، وكيف يجوز أن تعرقل أو تمنع ارتياد قطعانهم للمرعى وهى مسألة حياة أو موت بالنسبة للرعاة .

لم تكن الحدود معروفة فى إفريقيا ، حتى خمسين سنة خلت ، لانتصاف القرن العشرين ، وقد ارتبط إنشاء الحدود فى هذه القارة بقيام الوحدات السياسية المتمايزة التى

---

(١) « الجغرافيا السياسية لإفريقيا » ، مرجع سابق .

(٢) " In a World where many boundaries are unsatisfactory, it is certainly the case that colonial boundaries are the most unsatisfactory of all " . Church H. modern colonization' London, 1951 .

ابتدعها الأوروبيون ، وهذه لم تكن معروفة حتى وصل إفريقيا الاستعمار الرسمى ، وحتى مؤتمر برلين لتقسيم القارة سنة ١٨٨٥م لم تكن خططت أية حدود [١] .

لم يكن للوطنيين فى إفريقيا أى دور فى إنشاء الحدود ، ولا فى تكوين الوحدات السياسية المكونة اليوم ، والتى يعتبر بعضها بحدودها الحالية ، ليس لها من المقومات الجغرافية والبشرية ، ما يمكن أن يساعدها على البقاء كوحدة سياسية ، والأمثلة على ذلك كثيرة :

نجد غمبيا التى كانت تمثلها بريطانيا : لها شكل شاذ على الخريطة ، فعرضها من الشمال للجنوب بضعة أميال ، وطولها ٣٠٠ ميل على طول نهر غمبيا ، وقد عاقت الحدود استخدام النهر ، نحو المناطق الخلفية لغمبيا ، التى تتحكم فى المصب ، وهذه المناطق الخلفية ، كلها تقع فى جمهورية السنغال .

وبعد استقلال غمبيا ، تظل أسفينا داخل السنغال ، تعوق الاتصال بين شمال السنغال وجنوبه ، فضلاً عن أن غمبيا نفسها لا تملك وحدها مقومات الدولة ، لا من الناحية العسكرية البحتة ، ولا من الناحية الاقتصادية ، ومن الأفضل أن يطلب سكان غمبيا ، الانضمام مع السنغال فى وحدة سياسية واحدة ، نظراً لأنه لم يكن يوجد ما يسمى بجمهورية غمبيا ، قبل مجىء الاستعمار (وهناك تفكير بعد أن استقلت غمبيا فعلاً فى جعل اسم البلدين هو «سنغمبيا») .

وكذلك يلاحظ أن جنوب شرق غينيا ، منعزل عن باقى أجزاء الجمهورية ، وعن خطها الحديدى ، وأن اتصالها المباشر بالبحر تعوقه سيراليون وليبيريا ، وهذه مشكلة اقتصادية خلفتها الحدود المصطنعة ، دون حساب لظروف طبيعية أو بشرية .

وحدود نيجيريا مع داهومى ، تعرقل طرق الاتصال الطبيعى عبر الحدود التى تقطع البحيرة ، بين لاجوس وبورتونوفو عاصمة داهومى ، ولو تركت هذه المناطق حرة بدون تدخل الاستعمار ، وبدون إنشاء هذه الحدود ، فإن حركة النقل التجارى ، كانت تسلك الطريق السهل إلى لاجوس ، بدلاً من إنشاء سكة حديد تعبر البحيرة إلى رصيف (كوتونو) ومنها تشحن البضائع على قوارب إلى السفن المحيطية ، ولم يكن لهذا كله ضرورة ، إذا مرت التجارة عن طريق لاجوس .

ومن الأمثلة على الأثر السىء ، الذى جلبه المستعمر على إفريقيا : هو ذلك التعقيد الذى ابتدعه بإنشاء حد إدارى ، بعد حد إدارى سابق ، بين مصر والسودان ، وأصبحت

(١) مشكلة الحدود إلى حين انتهائها من كتاب « الجغرافيا السياسية لإفريقيا » (مرجع سابق ص ١٠٣).

المراجع العالمية تثبت الحدين ، وبعضها يثبت حداً دون الآخر ، وترسل عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى ، تستفهم عن معنى وجود حدين فى الجنوب الشرقى لمصر ، بينها وبين السودان ، ولم يصلها رد مفيد ، وكانت اتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩م بين مصر وبريطانيا بشأن إدارة السودان ، وهو الذى كان يقع جنوب خط عرض ٢٢ شمالاً .

كذلك استعمار الألمان لتوجو ، أوجد أضراراً كبيرة بالغة ، بالعناصر البشرية فيها ، فقد قسمت قبائل الأيوى ، فجزء منها فى غانا ، والآخر فى توجو ، كما قسمت قبائل الداجومبا فى شمال توجو ، ثم بعد زوال الألمان ، قسمت توجو بين الانتداب الفرنسى والإنجليزى ، ولا تزال توجو الآن بسبب صغر حجمها ، تعانى مشكلات اقتصادية واجتماعية ، بسبب تفتيت الاستعمار لهذه الوحدة البشرية ، من نهر النيجر حتى نهر فولتا ، وكانت جماعات الأيوى تنتقل إلى ساحل الذهب (غانا قبل استقلالها) للاشتغال فى مزارع الكاكاو ، كما كان كثير من الأفراد فى أومى عاصمة توجو ، يمتلك المزارع فى « ساحل الذهب » (سابقاً) .

وحدود الكاميرون وكونغو برازافيل ، وكونغو ليوبولدفيل ، وذلك الشريط الضيق على امتداد نهر الكونغو ، والذى يصلها بالمحيط ، وموقع ليوبولدفيل أمام برازافيل ، لا يفصلهما سوى مجرى نهر الكونغو ، وهما عاصمتان لدولتين ، مع العلم بأن الأنهار عوامل ربط لا عوامل فصل ، كل هذا يوضح على الخريطة مساوىء التقسيمات بحدودها الغريبة ، فإذا انتقلت من شاطئ النهر إلى الشاطئ الآخر ، انتقلت من دولة إلى أخرى، مع ما فى صعوبة تخطيط الحدود فى منتصف الأنهار ، وعرقلة الاتصال البشرى والمادى .

هذه مجرد أمثلة وغيرها كثير فى إفريقيا التى نكبت ، ليس فقط باستنزاف الإنسان الإفريقى إلى خارج قارته ، وليس فقط باستنزاف ثروته ، بل وأضاف المستعمر إلى ذلك مشاكل داخل القارة ، باستحداث حدود عقيمة ، يخططها بسرعة على الخرائط ، حتى إذا أراد تخطيطها على الطبيعة - وهذا ما حدث مؤخراً بعد بداية القرن العشرين - وجد المستعمر الأوروبى صعوبات ، سواء فى الطبيعة أو من ناحية القبائل ، هذا فضلاً عن الجهل بالتغييرات الجغرافية ، هذا الجهل أدى إلى جعل الحدود على الضفة الغربية (اليمنى) لنهر كافالى بين ساحل العاج وليبيريا ، مما جعل سيطرة فرنسا التى كانت تحتل ساحل العاج ، سيطرة تامة على الملاحة فى النهر .

إن دراسة الحدود ومشكلاتها ، تدل على مقدار ما فى طبيعة الإنسان من فساد ، إن آخر الناس الذين يوثق بهم فى عمل الحدود هم السياسيون ، لأنهم لا يهتمون بالاعتبارات الجغرافية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو اللغوية ، بل يهتمون بالقوى السياسية ، فالمنتصر يستحوذ على أكبر جزء من الأرض .. **إن دراسة تلك الحدود ، تثير بلا شك تساؤلات عدة :**

– هل كانت منابع الأنهار ذات الروافد المتعددة فى الاعتبار عند تخطيط الحدود ؟ هل كانت هناك آلات مساحية دقيقة لمسح الأرض لمعرفة المرتفعات والمنخفضات حين رسم الحدود عند خطوط تقسيم المياه ؟

– كيف تعقد معاهدات نخطط بها الحدود ، إذا كانت هذه العمليات غير دقيقة ، أو كانت الخرائط الموجودة – إن وجدت – غير دقيقة ؟ لقد كان الشيوخ ورؤساء القبائل يوقعون دون معرفة لما فى الأوراق .

إن كل من نظر إلى خريطة لغرب إفريقيا هاله أمرها : خطوط رأسية أو منحنية ، تمثل وحدات سياسية متعددة ، بعضها صغير مثل توجو وداهومى .

– أيختلف السكان فى غرب إفريقيا ، فى أجناسهم وعقائدهم ولغاتهم وظروفهم الاقتصادية والاجتماعية ، حتى تحدث كل هذه الخطوط ، معلنة قيام هذه الوحدات السياسية ، التى لا معنى لها ؟ إن مساحة غرب إفريقيا وسكانها ، أكبر من مساحة الهند ذات اللغات المتعددة والوحدة السياسية الواحدة ، أليس أدعى لرفاهية السكان وقوتهم السياسية والاقتصادية ، أن يكون غرب إفريقيا وحدتين أو ثلاث وحدات سياسية ؟

– لماذا تقسم قبائل الأنواك فى جنوب شرق السودان ، بين السودان والحبشة ؟ إنها قبائل رعوية اعتادت فى موسم الجاف أن ترعى حيواناتها فى داخل الحبشة ، قبل أن تكون هناك حدود وإدارات وحراس .

● الحروب والصراعات الناتجة عن مشاكل التخلف السياسى فى إفريقيا :

١ – الأزمة الصومالية :

تعتبر أزمة الصومال نموذجاً حياً للدسائس الأجنبية ، التى تثير القلاقل والثورات والحركات الانفصالية ، حتى تستنفد القوى الإسلامية ، ولا تتفرغ القارة أبداً إلى حركات التنمية .

قال الرئيس مبارك : « نحن لا نقبل الادعاء القائل أن ما يدور على الأرض الصومالية فى منطقة الحدود مع أثيوبيا ، هو حرب أهلية صومالية ، لأن الدلائل تشير إلى الأيدى الأجنبية ، وعناصر التدخل الخارجى ، بقصد تهديد أمن الصومال وسلامة أراضيه ، والقضاء على النظام الوطنى القائم ، وتلك كلها أهداف باطلة غير مشروعة ، ولا بد من مقاومتها ، والقضاء عليها ردعاً للعدوان ، ومنعاً لاستفحاله ، وانتشاره إلى أقطار متجاورة، وما يعنيه هذا من إضعاف للقوة العربية والإفريقية ، فى هذه المنطقة الحيوية . ومصر من جانبها ، لن تتردد فى دعم الشعب الصومالى ، والوقوف إلى جانبه فى

محنته ، بالنظر إلى الوشائج القائمة بين الشعبين ، وإلى ارتباط الأمن الاستراتيجى المصرى ، بما يدور فى منطقة القرن الإفريقى [1] .

فإذا عرفنا أن الصومال دولة إسلامية ، يبلغ عدد سكانها حوالى ٨ مليون نسمة [2] معظمهم مسلمون سنيون ، وأن الصومال تقع على المحيط الهندى ، وتتحكم فى باب المندب، عرفنا سر القلاقل التى تتعرض لها ، فلن يهدأ للقوى الأجنبية بال ، وهى ترى دولة إسلامية فى إفريقيا بهذا الثقل ، ولها هذا الموقع الممتاز ، فلا بد من القضاء على إمكانياتها الاقتصادية والاجتماعية ، مستغلة فى ذلك غياب الوعى الإسلامى وتكالب المسلمين على السلطة ، حتى لو أدى ذلك إلى هدم البنية الأساسية بالصومال ، وتفشى المجاعة والأوبئة بالبلاد ، فقد لقى أكثر من ٢٤ ألف صومالى مصرعهم ، وأصيب أكثر من ٢٧ ألف شخص ، وعانى الشعب الصومالى من المجاعة ، حيث شهدت بلدان مثل بلدة «بيدوا» موت حوالى ٦٠٠ شخص جوعاً كل يوم . أما اللاجئون (وهم أكثر من مليون صومالى) فحاصرهم الجفاف فى كينيا ، فضلاً عن امتداد النزاعات القبلية إلى مخيماتهم[3] .

٢ - النزاع بين موريتانيا والسنغال :

موريتانيا دولة إسلامية ، يبلغ عدد سكانها حوالى ٢ مليون نسمة ، كلهم مسلمون ، والسنغال أيضاً دولة إسلامية ، بلغ عدد سكانها حوالى ٧٧ مليون نسمة ٩٠٪ منهم مسلمون و٥٪ مسيحيون و٥٪ معتقدات إفريقية متوارثة .

ولهذا ونظراً لأن كل منهما تتمتع بأغلبية مسلمة وموقع ممتاز على الساحل مباشرة على (المحيط الأطلنطى) فى أقرب نقطة للقارة الأمريكية ، فلا بد أن تعمل القوى الأجنبية عملها ، فى بث بذور الفتنة والنزاع ، حتى يفشلا فى توجيه جهودهما إلى التنمية الحقيقية

---

(١) من خطاب الرئيس مبارك فى الاحتفال بالعيد الثلاثين لثورة يوليو ، القاهرة ٢٧/ ٧/ ١٩٨٢م ، من كتيب « مبارك وإفريقيا » (ص ١٥) ، جمهورية مصر العربية ، وزارة الإعلام ، الهيئة العامة للاستعلامات .

(٢) معظم بيانات السكان هنا من :

Regional surveys of the world .
Africa South of the Sahara 1993 .
Twenty Second edition .
Europa Publications limited .

إلا إذا أشرنا إلى غير ذلك .

(٣) « القمة الإفريقية الثلاثون » (١٣ - ١٥ يونيو ١٩٩٤م) تونس (ص ١٠) ، جمهورية مصر العربية ، وزارة الإعلام ، الهيئة العامة للاستعلامات .

والاستعلاء بالمسلمين إلى المكانة التى تليق بهم ، ولكن الفوضى السياسية والعقائدية التى يعيشها المسلمون فى إفريقيا ، تجعل منهم مجالاً خصباً لنشر أى أفكار ، تحلو للغرب أن يزرعها بينهم ، حتى ولو كان فيها هلاكهم .

وقد بذلت جهود مضنية للمصالحة بينهما ، بناء على تكليف من مؤتمر القمة الخامس والعشرين ، بعد النزاع الذى نشب بينهما فى مايو ١٩٨٩م ، كان آخر ما علمناه عقد اجتماع لوزيرى خارجية البلدين ، فى العاصمة الفرنسية فى شهر يونيو ١٩٩٠م [1] ، تمهيداً لاتخاذ خطوات ، للبدء فى تسوية محددة ، فى المستقبل القريب ، وهذا فى حد ذاته مأساة ، إذ لا تستطيع الدول الإسلامية مدارسة مشاكلها ، إلا تحت رعاية الدول الأوروبية !!

٣ - مشكلة جنوب السودان :

يبلغ تعداد السودان حوالى ٢١ مليون نسمة ، أكثر من ٧٥٪ منهم مسلمون ، والباقى مسيحيون يتركزون فى جنوب السودان .

ويمكن التعرف على أبعاد المشكلة الحقيقية ، لتمرد جنوب السودان ، إذا عرفنا أن نحو ٨٠٪ من الثروة القومية المستقبلية فى المناطق الجنوبية من السودان [2] .

وطبعاً لن يهدأ للقوى الطامعة قرار : كيف تترك تلك الثروة الهائلة لمسلمى السودان ؟ فلا بد من إثارة القلاقل والفتن ، بدعوى حماية الأقليات المسيحية ، مستغلة طبعاً غياب الوعى الإسلامى ، وتخبط المسلمين فى دوامات الحياة المادية ، والأهواء الشخصية ، فتشغلهم بتلك الصراعات الأهلية ، غير مبالية بوحدة السودان وسيادته على أراضيه ، وغير مبالية بعدالة التوزيع : كيف يترك ٨٠٪ من الثروة القومية للسودان فى يد ٢٥٪ من أهلها المسيحيين ، ويترك ٧٥٪ من أهلها المسلمين يعانون ضراوة العيش وضيق الرزق .

ولكن نرجع ونقول : إن الشر من أنفسنا والخير من عند الله : فلو سمع المسلمون نداء الله باستغلال الأرض والسعى فى مناكبها ، لأرغموا العالم على احترامهم ، والإذعان لإرادتهم ، ولكن المشكلة أن هناك أراض كثيرة ، ومجالات تنمية كبيرة ، فى شمال السودان ، غير مستغلة أصلاً ، وهنا يسيل لعاب ذئاب البشرية ، للاستيلاء على الثروات فى الجنوب ، التى لا يفهم فيها أهلها ، ولا يقدرونها حق قدرها ، وتلك عدالة الله فى الأرض!

---

(١) من خطاب الرئيس مبارك فى القمة الإفريقية السادسة والعشرين ، أديس بابا ، بالجلسة الافتتاحية ٩/ ٧/ ١٩٩٠م ، « مبارك وإفريقيا » (ص ١٨) ، جمهورية مصر العربية ، وزارة الإعلام ، الهيئة العامة للاستعلامات .

(٢) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ : إفريقيا يراد لها أن تموت جوعاً - مرجع سابق .

٤ - مشكلات الحدود بين الكاميرون ونيجيريا :

الكاميرون يبلغ عدد سكانها حوالى ١٢ مليون نسمة : ٢٢٪ منهم مسلمون ، ٥٣٪ مسيحيون ، ٢٥٪ معتقدات إفريقية متوارثة ، ونيجيريا يبلغ عدد سكانها حوالى ٨٩ مليون نسمة : ٤٨٪ منهم مسلمون ، ٣٤٪ مسيحيون ، ١٨٪ معتقدات إفريقية متوارثة .

والنزاع على مسألة الحدود ، هى من نتائج الاستعمار لإفريقيا ، كما شرحنا سابقاً ، والضحية فيها المسلمون ، حيث يعانون من التشرد والجوع والأمراض ، نظراً لانخفاض مستوى معيشتهم أصلاً من جهة ، ولغياب التضامن الإسلامى من جهة أخرى .

وقد بدأت بوادر النزاع بين البلدين فى الأسبوع من يناير ١٩٩٤م [١] ، حيث أعلنت الكاميرون أن نحو ٥٠٠ جندى نيجيرى ، قاموا باحتلال جزيرتى « داياموند » و«جابانى» التابعتين للكاميرون (تقعان فى خليج غينيا) ، وهو ما وصفته الكاميرون بأنه أسوأ حادث حدودى ، منذ عقدين كاملين بين البلدين ، بينما أعلنت نيجيريا أن تلك التحركات روتينية ، وتقع داخل الأراضى النيجيرية ونفت احتلال الجزيرتين .

وتزايدت حدة النزاع يومى ١٨ و١٩ فبراير ١٩٩٤م فى أعقاب إصدار الرئيس النيجيرى « سانى أباتشا » أوامره لقواته ، بغزو أراضى شبه جزيرة باكاس الكاميرونية ، بعد ساعات من توجيه الدعوة لرئيس بول بيا (الرئيس الكاميرونى) لزيارة أبوجا .

أدي التوتر بين الجانبين ، إلى فرار المواطنين فى المنطقة من منازلهم ، وتوافد اللاجئين على معسكرين للاجئين أقيما فى جنوب شرق نيجيريا ، مما أسفر عن تفشى الأوبئة خاصة الكوليرا ، وإضافة مزيد من العجز والجهل والمرض واللاجئين ، إلى رصيد القارة البائسة ، ومما يزيد القلب حزناً ، أن غالبية هؤلاء من المسلمين . أما المأساة فى الموضوع فهى : إتاحة الفرصة للتدخل الأجنبى ، حيث ترتبط فرنسا بالكاميرون ، باتفاقيات دفاع مشترك عام ١٩٦٥م ، وأرسلت فرنسا ١٥ مظلياً ، وطائرتين هيليكوبتر ، للعاصمة ياوندى ، فى نهاية فبراير ، فضلاً عن وجود قطع بحرية ضخمة فى ميناء دوالا الكاميرونى ، القريب من الساحل النيجيرى .

وهكذا ستظل إفريقيا تدور فى دائرة الاستعمار القديم والجديد بكل أشكاله وتوابعه ، طالما فقد أهلها إرادتهم النابعة من عقيدتهم ، والتى تأمرهم أن يكون لهم دورهم الإيجابى فى الحياة ، ويرفضون التبعية بكل أشكالها ، وذلك لن يحدث إلا بتحرير الإرادة من رقدتها ، والعمل الجاد المثمر فى كل ميادين الحياة بدون كلل أو ملل .

---

(١) « مبارك وأفريقيا » ، الهيئة العامة للاستعلامات - مرجع سابق .

٥ - الخلاف على الحدود بين ليبيا وتشاد :

يبلغ عدد سكان ليبيا حوالى ٤ مليون نسمة غالبيتهم مسلمون ، ويبلغ عدد سكان تشاد حوالى ٥ر٥ مليون نسمة : ٥٠٪ منهم مسلمون ، و٧٪ مسيحيون ، والباقى معتقدات إفريقية متوارثة .

ويختلف البلدان حول شريط « أوذو » ، حيث أصدرت محكمة العدل الدولية فى لاهاى حكماً لصالح تشاد بأغلبية ١٦ صوتاً ضد صوت واحد ، وذلك فى ٣ فبراير ١٩٩٤م ، وأعرب الرئيس الليبى معمر القذافى فى ٢٤ مارس ١٩٩٤م عن استعداد بلاده للانسحاب من شريط أوذو خلال ٢٤ ساعة .

وكان قد تم توقيع اتفاقية الجزائر عام ١٩٨٩م بين تشاد وليبيا حول قطاع أوذو ، وهو الاتفاق الذي لم يسفر عن إنهاء الخلاف الليبى التشادى ، إلا أنه حدد الوسائل التى تحكم الخلاف ، وتتضمن بنوده التزام الفريقين بتسليم الأسرى ، والامتناع عن التدخل المباشر وغير المباشر ، فى الشئون الداخلية والخارجية لكل من الدولتين ، والامتناع عن الدعم السياسى والمادى والعسكرى ، لأية قوى معارضة ضد البلد الآخر ، وتعهد الدولتين بعرض الخلاف حول قطاع أوذو ، أمام محكمة العدل الدولية [(١)] .

إنها صورة من صور مشاكل الحدود ، التى زرع ألغامها الاستعمار قبل رحيله ، ليضمن إشرافه على الدول الإفريقية ، عن طريق حل المنازعات بينها ، وليضمن استنزاف الوقت والجهد والمال لتلك الدول ، فلا تلتفت أبداً إلى تنمية نفسها ، ولا تصبح يوماً قوة لها وزنها على صعيد السياسة الدولية ، وهذا أسى ما بعده أسى ، يعتصر قلوب المؤمنين المخلصين ، داعين الله أن يؤلف بين قلوب عباده المسلمين ، وينتشلهم من جرف الهاوية الذى ينزلقون إليه ، بتخلفهم ونزاعهم ، وذهاب ريحهم ، مما يؤدى إلى فشلهم .

٦ - الخلاف على الحدود بين توجو وغانا :

يبلغ عدد سكان توجو حوالى ٣ مليون نسمة : ١٥٪ منهم مسلمون ، ٣٥٪ مسيحيون، ٥٠٪ معتقدات إفريقية متوارثة . ويبلغ عدد سكان غانا حوالى ١ مليون نسمة : ١٢٪ مسلمون ، ٤٢٪ مسيحيون ، والباقى معتقدات إفريقية متوارثة .

ومشكلة الحدود بينهما مثل باقى الحدود الإفريقية ، التى خطت بناء على الجهل الاستعمارى بطبيعة القبائل ، وطبيعة الاعتبارات الجغرافية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو اللغوية ، بل كان الباعث الأكبر للمستعمر ، هو الاستحواذ على أكبر جزء من الأرض ، بدون

---

(١) المرجع السابق « مبارك وأفريقيا » الهيئة العامة للاستعلامات .

النظر إلى صالح السكان الإفريقيين ، أو إلى العقبات التى تنتظرهم مستقبلاً ، من جراء تلك الحدود العشوائية . والمشكلة أن الحدود بين توجو وغانا ، تشطر قبيلة الإيفى حول خط الحدود بين البلدين ، ولكل منصف واع ، أن يتصور المشاكل ، التى يمكن أن تنشأ عن فصل قبيلة واحدة ، بين حكومتين مختلفتين ، وسياستين متباعدتين !!

ويذكر أن الحدود بين البلدين ، أغلقت ست مرات ، نتيجة المنازعات والمشاحات ، وذلك فى أعوام ١٩٦٦ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٦ ، ١٩٩١ ، ١٩٩٣م ، وكان آخرها فى ٦ يناير ١٩٩٤م إثر الهجوم على القاعدة العسكرية فى القاعدة لومى ، حيث يقيم فيها الرئيس أياديما (رئيس توجو) .

كيف يمكن للمسلمين مواجهة مشكلات التخلف السياسى فى إفريقيا ؟

إن مواجهة مشكلة التخلف السياسى ، أصبحت ضرورة حيوية ، للحفاظ على كيان المسلمين وإتاحة الفرصة لهم ، للتفرغ لمواجهة تحديات التنمية ، وتطويق المشاكل الطاحنة، التى أفرزتها الحروب الأهلية ، ومشاكل الحدود والصراعات القبلية .

ويمكن تلخيص ما يمكن تنفيذه فى هذا الصدد فى تلك النقاط الرئيسية :

- يجب أن تدخل الدول الإفريقية ، التى تعانى من ضآلة الحجم والموارد والسكان ، وصعوبة الاتصال بالساحل ، فى اتحادات كبرى ، تضم دولاً متعددة فى غرب إفريقيا ، وفى شرقها ، وفى شمالها الشرقى ، وفى جنوبها . وهذه الاتحادات الكبرى ، تكون مرتبطة ببعضها فى السياسة الخارجية ، بدون أن تنمحى الشخصية الدولية لكل اتحاد ولكل دولة داخل الاتحاد ، حتى ولو أدى الأمر ، إلى خلق نوع من الاتحادات لم تعرفه النظم القانونية الدولية الآن [1] .

- فى ظل النظام الاتحادى ، يمكن نشر ثقافة موحدة ، تنبع من العقيدة الإسلامية ، وتساعد على التقارب الاجتماعى ووحدة الهدف ، وتقلل من الاختلافات الفكرية ، وهذا مدعاة لإعطاء قوة لمسلمى إفريقيا ، الذين أنهكهم التشتت والفرقة والضياع ، فى خضم المادية نتيجة البعد عن التعاليم السماوية .

- فى داخل الاتحادات تكمن أقاليم متباينة ، من ناحية الجغرافيا الطبيعية ، ووسائل المواصلات ، والتجارة الخارجية ، وهذا معناه إمكانية التكامل الاقتصادى ، بما يعالج مشكلة التخلف فى كل صورها ، والتى تحرم البلاد الإسلامية فى إفريقيا ، من الاستفادة الحقيقية بثرواتها ، والوسائل المثلى لاستغلالها ، كما أن تلك الوحدة ، لها من المقومات العقائدية ، ما يجعل السعى إليها مستنداً إلى ضرورة إيمانية .

---

(١) « الجغرافيا السياسية لإفريقيا » - مرجع سابق (ص ١٢٠) .

- إن الاتحاد بين الدول الإفريقية الإسلامية ، سيؤدى بلا شك إلى التقليل من المشاكل التى افتعلتها التقسيمات والحدود ، التى أوجدتها الظروف الاستعمارية ، وسيعطى المسلمين قوة فى مواجهة الضغوط الدولية ، وفى مواجهة عقبات التنمية المتمثلة فى [1] :

* عقبات جغرافية : وهى عدم ارتباط أجزاء القارة الإفريقية وترامى أطرافها ، وانعدام المواصلات الحديثة بينها .

* عقبات سياسية : وهى الاستعمار الغربى الحديث ، الذى يريد التدخل فى القارة بكل الصور ، بحكم ما كان له من نفوذ سابق فى هذه البلاد .

* عقبات فنية : وهى ضعف الكيان القومى لهذه البلاد ، ضعفاً يجعلها لا تستطيع تحمل أعباء التنمية بمفردها ، بدون تعاون حقيقى ، يستفيد بمحصلة خبرات المتخصصين ، فى مجموعة من البلاد .

وبعد . . تلك كانت بعض ملامح التخلف بكل أبعاده ، التى يعانى منها المسلمون فى قارة إفريقيا، وبحثنا هذا دعوة لاستنهاض الهمم ، لمعالجة ذلك التخلف وما يتبعه من مشكلات، لأن إفريقيا ستبقى القارة المريضة فى العالم ، إلا إذا حصل تحول جذرى فى منهاج حياتها، وهذا التحول الجذرى ، لا يمكن أن يحدث ّإلا عن طريق قيام حركة تعاون كثيف بين البلدان الإفريقية ، لأن أى بلد إفريقى - باستثناء أربعة أو خمسة بلدان - لا يملك فرصة تنمية حقيقية ، خارج مجموعات اقتصادية وسياسية أكبر . وهذه ليست مسألة طموح عاطفى نحو وحدة إفريقية ، بقدر ما هو ضرورة مطلقة [2] .

ولن تتم وحدة - أية وحدة - دون وحدة العقيدة والهدف والمصير ، وعلى القارة التى وحدها الإسلام قبل عشرات القرون ، وأعزها بمبادئ الإسلام الكريمة ، التى ترتكز على العدل والمساواة والشورى والحرية ، والقوة التى تحمى الأرض والعرض والنفس والمال ، عليها أن تعود إلى شمس الإسلام ، لتسطع أنوار الحق على القارة من جديد ، فتستعيد معها عزتها وتقدمها ورخاءها ، وتحقق مخاوف الغرب من ذلك العملاق الأسود ، حيث يبذلون كل الجهد ، لاستمرار حبسه فى قمقم الغياب العقائدى ، وما يتبعه من تخلف فى جميع الميادين .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

---

(١) « المدخل فى علم السياسة » (ص ٧٢٦) : د . بطرس غالى ، د . محمود خيرى عيسى ، مكتبة الأنجلو المصرية .

(٢) « تنافس القوى العالمية فى إفريقيا المسلمة » : للأستاذ : شهاب الديونى (ص ٤٠) ، منار الإسلام ، العدد (٦) - السنة الثامنة - جمادى الثانى ١٤٠٣ هـ/ مارس ، أبريل ١٩٨٣م .

الخــــاتمة

ما إن وصلت إلى كلمة الخاتمة ، حتى شعرت برغبة شديدة فى استئناف البحث ، فتلك الخاتمة لا تعنى عندى سوى البداية لطريق طويل ، مشحون بالبحث العلمى الجاد ، ليس لى فقط ، ولكنه لعامة المسلمين ، إنه فرض عين على كل مسلم ومسلمة .

إن استعراض تاريخ المسلمين فى إفريقيا ومشكلاتهم ، قد فجر ينابيع كثيرة فى أعماقى لأنه تاريخ الإسلام عبر خمسة عشر قرناً ، وما أشبه اليوم بالبارحة ، حيث بدأ الدين غريباً على نفوس عاشت الجاهلية بكل أبعادها ، وبدأ ضعيفاً أعزل من كل مظاهر القوى المادية ، وبدأ مهاجماً من كل قوى الشرك والطغيان ، حيث تجمعت حوله كل أحزاب البغى ، وأصحاب المصالح المادية ، الذين يرون فى الإسلام خطراً يهدد مصالحهم وأطماعهم ، خطراً يزلزل الأرض تحت أقدامهم ، ويوقظ النفوس الغائبة عن وعيها ، لترى بوضوح وقع خطواتها فى الحياة ، وتخط بنفسها أقدارها :

- الدعوة التى كانت تتحرك فى طرقات مكة خائفة وجلة ، أصبحت تقول كلمتها بمواجهة عروش كسرى وقيصر ، فتسقطها وتذلها .

- الصلوات التى كانت تقام سراً ، فى دار منزوية فى تخوم أم القرى ، صارت تقام على شواطئ الأطلسى وتخوم الصين ، يطمح أصحابها أن يجتازوا البحر والتخوم ، لكى لا تبقى ثمة مساحة فى العالم ، لا تقام فيها صلاة ولا يذكر فيها اسم الله ، وقد كان لهم ما أرادوا بحمد الله .

- المستضعفون فى الأرض الذين كانوا يطاردون ويضطهدون ويعذبون ويجلدون ، غدوا قادة العالم وساسته وحكامه .

- كتاب الله الذى كان يحكم بالإعدام على قارئه ، أصبح دستور الدنيا ومرشدها .

● كيف تحقق للإسلام وللمسلمين تلك العزة والمكانة السامية ؟

إنه سؤال جوهرى ، والإجابة عليه تعنى الإجابة على كل الأسئلة التى تدور فى أعماق كل مسلم ، عن كيفية الخروج من التيه الذي يعيش فيه المسلمون ، واستعادة أمجادهم وحضارتهم ، مهما كانت الدرجة التى وصلوا إليها من ضعف وتخلف ، ومهما اشتدت قوى الطغيان التى تواجههم .

وبداية نحب أن نواجه أنظار المسلمين فى جميع أقطار الأرض أنه :

- مهما كان ضعفهم ، فلن يصل إلى مستوى المسلمين الأوائل ، وهم الذين خرجوا إلى غزوة بدر ، فى أول مواجهة عسكرية للباطل : حفاة عراة جياع .

- ومهما كانت قوى الشر التى تتحداهم ، وتخطط فى الخفاء للقضاء عليهم ، فلن تزيد فى ضراوتها ، عن الأحزاب التى تجمعت لمحاربة الإسلام ، والقضاء عليه ، فى غزوة الأحزاب .

- ومهما كانت درجة تخلفهم ، فلن تزيد عن بداية عهد بناء الأمة الإسلامية فى المدينة حيث ترك المهاجرون أموالهم وممتلكاتهم فى مكة ، وبدأوا عملية التنمية ، بإمكانيات تقرب من الصفر .

كيف إذن انتصر المسلمون الأوائل على تلك التحديات الضخمة ، وحققوا أعظم حضارة فى التاريخ ؟

إن الإجابة على ذلك تكمن فى : **روح العلم فى الإسلام** .

- فالعلم هو مصدر بناء الإنسان الروحى والنفسى والعقلى .
- والعلم هو أصل الحضارة والرقى بكل معانيه .
- والعلم هو المعبر من التخلف إلى التقدم ، ومن الظلمات إلى النور .
- والعلم هو المقياس الذي يمتاز به الناس فى الدنيا والآخرة .
- والعلم يعنى القدرة على الفهم ، وإخراج البشرية من أزمتها ، ودفعها على الطريق الصحيح.

ونظراً لأهمية العلم التى يقصر المجال هنا عن حصرها ، فلم يكن عجباً أن تكون أول كلمة فى القرآن ، الذى نزل من السماء ، لإصلاح أحوال الناس ، وتحريرهم من ظلمات الجاهلية هى : ﴿ **اقرأ** ﴾ [1] .

إنها كلمة من نور استقرت فى وجدان المسلمين ، وعملوا بها يقيناً ، فأخذوا ينهلون من نواحى المعرفة ، حتى حققوا أعلى مراتب التقدم . ومن عجائب ما يسجله لنا التاريخ، عن روح العلم عند المسلمين التى سادوا بها :

- حين كان العالم المسلم « أبو الريحان البيرونى » على فراش الموت ، زاره أحد العلماء فما كان من - البيرونى - إلا أن سأله عن إحدى المسائل العلمية !! فقال العالم الزائر : سبحان الله تسأل عن العلم وأنت مفارقه ؟ فقال البيرونى : أفارق الدنيا وأنا عالم بتلك المسألة ، خير من أن أكون جاهلاً بها .

---

(١) العلق : ١. .

- وعن فرقد - إمام مسجد البصرة -: أن جماعة دخلوا على سفيان الثورى ، فى مرض موته ، فحدثه أحدهم بحديث فأعجبه ، فضرب سفيان يده إلى تحت فراشه ، وأخرج ألواحاً ، وكتب الحديث ، فقالوا له : على هذه الحال منك ؟! فقال : إنه حسن ، إن بقيت ، فقد سمعت حسناً ، وإن مت فقد كتبت حسناً .

- ويؤثر عن الإمام الجليل - أحمد بن حنبل - أنه اضطر أن ينسج الثياب ويبيعها ، وأن يلتقط بقايا الزرع من الحقول بعد الحصاد ، وأن يعمل حمالاً مع الحمالين ، فى رحلته من بغداد إلى اليمن ، فى سبيل طلب العلم ، وقد ظل طوال حياته مخلصاً لشعاره الرائد: « مع المحبرة إلى المقبرة » .

● نتائج اهتمام المسلمين الأوائل بالعلم :

استطاع المسلمون إثراء الفكر بكل أنواع المعرفة ، وكان لهم الفضل فى تلقين البشرية أصول العلم والحضارة الحديثة :

- أعلن الأستاذ براون فى المؤتمر الدولى للعلوم التاريخية ، الذى عقد فى مدينة أوسلو عاصمة النرويج فى ١٤ أغسطس ١٩٢٩م أنه أصبح من المقرر : اعتبار ظهور الإسلام هو خاتمة العصور القديمة ، وبداية إيقاظ الإنسانية فى أول عصورها المتوسطة ، وأن الإسلام هو بداية العصر الوسيط .

- أورد المؤرخ التونسى الأستاذ عثمان الكعاك فى بحث له أنه وجد إشارة من الفيلسوف « ديكارت » على كتاب الإمام الغزالى « المنقذ من الضلال » الموجود فى مكتبة باريس ، تفيد أنه سينقل هذه العبارة إلى بحثه « مقال عن المنهج » .

- وقد أشار كثيرون أن فكرة « ديكارت » فى إثبات وجود الذات « أنا أفكر فأنا موجود » المسماة بالكوجنتو مأخوذة من إنية « ابن سينا » التى أوردها فى كتابه « الشفاء » فى أكثر من موضع ، أو قرأها فى كتاب « حيوم الأقرونى » .

- بل إن تقسيم ديكارت للعلوم ، هو تقسيم « الفارابى » فى كتابه « إحصاء العلوم » دون أن ينسبه إلى صاحبه : فقد قدم الرياضة المجردة ، فالعلوم الطبيعية، فالعلم الإلهى.

- وقد أشار الباحثون إلى أن الغزالى تفوق على ديكارت فى نقطتين :

أولاهما : أنه حدد العلم اليقينى ، قبل أن يتقدم فى اختباراته وأبحاثه ، حتى يكون التحديد ميزاناً صادقاً ، يزن به العلم اليقينى من غيره .

ثانيهما : أن تعريف ديكارت للعلم اليقينى كان ضعيفاً ، إذ جعل صدق المعرفة فى وضوحها ، ونسى أن الوضوح أمر نسبى .

ولما كانت فكرة ديكارت هى القاعدة الأساسية للفكر الغربى الحديث ، فإن مصدرها إسلامى .

– أثبت المستشرق الأسبانى « أسين بلاسيوس » بأن كتاب « الفتوحات المكية » لابن عربى أوحى إلى « دانتى » هذا الأثر ، الذى يعده « كاريل » فى كتابه « الأبطال وعبادة الأبطال » من أروع ما قدمه الأدب الغربى .

وهكذا ساد المسلمون عندما اهتموا بالعلم اهتماماً بالغاً ملك عليهم وجدانهم ، وصدق عليهم قول الحق عَزَّ وجَلَّ : ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾[1] .

● لماذا أفلت شمس الحضارة الإسلامية فى إفريقيا ؟

عندما تحول المسلمون عن ذلك الولع بالعلم ، حول الله مكانتهم ، وتبوأها الغربيون الذين واصلوا البحث العلمى ، بشغف المسلمين الأوائل ، لأنهم عرفوا نعمة العلم بعد عصور الظلام التى عاشوها ، وقاسوا ويلاتها ، كما عرفوا أيضاً أهمية العلم ، فى توجيه الشعوب الوجهة التى يريدونها ، فاستعملوا العلم فيما يحقق أطماعهم ، فأعطوا منه الشعوب الإفريقية النذر اليسير ، وحرموها من الفيض الثمين .

لقد تناسى المسلمون مكانة العلم العظيمة فى الإسلام ، وأخلدوا إلى الدعة والراحة ، وهم لا يعرفون أن فى هذا هلاكهم ، وتخلفهم فى جميع الميادين ، فالعلم هو روح الحياة، وهو الطريق للنضج العقلى للشعوب ، بحيث تميز الخبيث من الطيب ، والحق من الباطل وتعرف كيف تفند الدعاوى الكاذبة ، وترفض الإغراءات الخادعة ، والحجج الباطلة ، وتعرف كيف تستثمر موارد ثرواتها ، وتختار قادتها وزعماءها .

ولذلك لم يكن عجيباً أن تركز القوى الاستعمارية جهودها ، فى محو ثقافة الشعوب الإفريقية الإسلامية ، بدءاً بمحو لغتها العربية ، وإضعاف صلتها بقرآنها ، فهو مصدر العلوم وأرفعها . قال رسول الله ﷺ : « تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، بذله لأهله قربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل أهل الجنة ، وهو الأنس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة ، والمحدث فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة قائمة تقتص آثارهم ، ويقتدى بفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم ، ترغب الملائكة فى خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، ويستغفر لهم كل رطب ويابس ، وحيتان البحر وهوامه ، وسباع

---

(١) المجادلة : ١١ .

البر وأنعامه ، لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصابيح الأبصار من الظلم ، يبلغ العبد بالعلم ، منازل الأخيار والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة ، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام ، به توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال من الحرام ، وهو إمام العمل ، والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء » (رواه ابن عبد البر النمرى فى كتاب « العلم » عن معاذ بن جبل رضى الله عنه) .

● كيف يستعيد مسلمو إفريقيا مكانتهم وعزتهم ؟

إن الطريق إلى ذلك يبدأ من حيث أعملت قوى الغزو معاول الهدم للحضارة الإفريقية الإسلامية : يبدأ من العلم .

حيث يجب الاهتمام باللغة العربية ، اهتماماً يليق بمكانتها ، لأنها لغة القرآن ، كنز العلوم كلها ، لا مانع أن يتكلم مسلمو إفريقيا أى لغة أجنبية ، ولكن من العار أن يجيدوا لغة عدوهم ، وينسوا لغة قرآنهم .

إن إجادة اللغة العربية ، ستكون وسيلة ربط بينهم وبين شمال القارة الإفريقية ، وبقية الدول العربية ، وبالتالى ستكون وسيلة للتبادل الثقافى ، وما يتبعه من تبادل حضارى واقتصادى وسياسى واجتماعى . وعلى كل مسلم قادر أن يساهم فى هذا الجهاد العلمى، كل على قدر طاقته ، فلسنا أقل إخلاصاً لديننا ولغتنا ، من المسيحيين الذين يأتون من أقصى البلاد لنشر لغتهم ودينهم ، صحيح أن وراء ذلك أطماع ومصالح مادية ، ولكن طمعنا نحن المسلمين ، فى نيل الثواب الأخروى أشد وأعظم ، إن مسلمى إفريقيا هم جيراننا ، وشمال إفريقيا غنى بالمعاهد العلمية : كالأزهر والزيتونة والقيروان والقرويين و . . . وبالتالى فنشر العلم فرض علينا ، كما أن طلب العلم فرض على من يجهله ، من الشعوب الإفريقية المسلمة ، عملاً بقول الرسول ﷺ معلم البشرية الأكبر :

عن علقمة بن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى ، عن أبيه ، عن جده قال : خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً ، ثم قال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ، والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة ، ثم نزل ، فقال قوم : من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قال : الأشعريين هم قوم فقهاء ، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب ، فبلغ ذلك الأشعريين ، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، ذكرت قوماً بخير وذكرتنا بشر ، فما بالنا ؟ فقال: ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم

ويتعظون ويتفقهون ، أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا ، فقالوا : يا رسول الله ؛ أنفطن غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم ، فأعادوا قولهم : أنفطن غيرنا ؟ فقال ذلك أيضاً ، فقالوا : أمهلنا سنة ، فأمهلم سنة ليفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم ، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ [1] (رواه الطبرانى فى الكبير) .

إن هذا الحديث الشريف يجعل ضريبة الجهاد العلمى ، فرض عين على كل مسلم ومسلمة، وهو دعوة للتعاون العلمى ، وللأسف فمن قام بتنفيذ ذلك هم الغربيون ، الذين يقومون بالتبشير على أوسع نطاق ، مهما كلفهم ذلك من جهد ومال .

- إننا مدعوون جميعاً للتعاون والتكتل ، لنخرج أنفسنا من هوة التخلف المهينة ، وقد وجدنا أن كثيراً من شعوب إفريقيا ، مشكلتها تتمثل فى توفر الدعاة والمال ، وفى توفر البنية الأساسية للمشروعات الحيوية ، وهذا هو الجهاد المفروض علينا فى العصر الحديث: الإنفاق فى شتى المشروعات الاقتصادية ، وفى سبيل تدعيم العقيدة الإسلامية .

وبهذا نكون قد بدأنا بما يخيف إسرائيل حقاً ، وذكرناه خلال البحث وهو : « المال والإسلام » ، وعلينا أن نعمل جاهدين ، مهما تكاتفت ضدنا قوى البغى والطغيان ، ومهما ادلهمت الخطوب ، لأن شعارنا دائماً : إنه لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس ، عملاً بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ [2] .

وندعو الله أن يهدى مسلمى إفريقيا ، ومسلمى العالم كله ، سبل الرشد والتقدم والرفعة يقيناً بقول المولى تبارك اسمه : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ [3] .

* * *

---

(١) المائدة : ٧٨ .　　(٢) يوسف : ٨٧ .　　(٣) العنكبوت : ٦٩ .

نتائج وتوصـــيات

بعد جولتى فى تاريخ الإسلام فى إفريقيا ومشكلات المسلمين فيها خلال هذا البحث خرجت بعدة نتائج ، أهمها :

– يقينى بعظمة الإسلام فى إيقاظ الشعوب من رقدتها ، وبعث الأمم من تخلفها ، بتحريرها من أسر الجهل والأطماع والشهوات .

ولكن هل يكفينا ويقنعنا أن نردد نحن المسلمين : إن الإسلام نظام صالح لكل زمان ومكان ، ثم نقيم على ما نحن عليه من رضى بالجهل والتخلف ، موقنين بأننا قد قمنا بما فرض علينا من الدعوة إلى الله أتم قيام ؟

الواقع المر الذى يعيشه العالم الإسلامى يفرض غير ذلك كلية . فعلى علماء الأمة أن ينهضوا – كل فى مجال تخصصه – بدراسة الدين عقيدة وشريعة ، وأن يبرزوا للعالم ما فى الإسلام من قيم رشيدة ، ومبادئ إنسانية كفيلة بهداية البشرية ، ثم عليهم بعد ذلك أن يصوغوها فى صورة تلائم العصر ، وتقنع العقل ، وترضى الذوق ، قبل أن تقدم للناس فى شتى اللغات واللهجات .

– إن الدول الإسلامية عموماً – والإفريقية منها بصفة خاصة – تدور فى الحلقة المفرغة للفقر ، وكما يقول علماء التنمية : إن الخروج من تلك الحلقة يستلزم قوة دافعة كبيرة ، تشبه تلك القوة التى يحتاجها الصاروخ ، للخروج من نطاق الجاذبية الأرضية ، وقد شرحوا لذلك عدة طرق منها : أن تكون التنمية على جميع القطاعات فى وقت واحد ، وهذا ليس فى مقدرة معظم الدول النامية ، أو تكون التنمية مركزة فى قطاع واحد ، يسمى القطاع القائد ، وهو يقود التنمية فى بقية القطاعات ، ونحن نرى أن القوة الدافعة التى تستلزمها الدول الإفريقية ، هى قوة العقيدة ، وأن القطاع القائد ، الذى يمكن أن يقود التنمية فى إفريقيا بأسرها هو القطاع الاجتماعي ، فالإنسان هو محور الحياة وسيدها ومحركها .

– ممكن أن تطبق فكرة القطاع القائد هذه ، على مستوى العالم الإسلامى ، فتقوم الدول الإسلامية التى أنعم الله عليها بنعمة العلم أو المال ، بالأخذ بيد الدول التى تئن تحت ظلمات الجهل والفقر ، جهاداً فى سبيل الله وتعاوناً على البر والتقوى وعملاً بقول الله عَزَّ وجَلَّ : **﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾** [١] .

---

(١) التوبة : ١٢٠ .

فالتكامل العلمى والاقتصادى والسياسى والاجتماعى ، شريعة واجبة على المسلمين فى كل زمان ومكان ، ومن ينفك عنها ، فقد انفك عن عرى الإسلام ، وسيضيع هو قبل غيره سواء أكان فرداً أم دولة .

- من متناقضات الحياة أن نجد قوى الكفر والضلال ، قد اجتمعوا على الظلم والعدوان وتعاونوا عليه ، وأن قوى المسلمين قد تباعدت وتنازعت ، ففشلت وذهب ريحها ، مع أن الحق معهم ، ووعدهم بالنصر إذا نصروه وتمسكوا به ، ولكنهم آثروا الهوان على العز ، والفقر على الغنى ، والصراع فى الدنيا على الجهاد من أجل الآخرة ، وأخلدوا إلى الأرض ، فلم تعد عيونهم قادرة على النظر إلى السماء ، فهل من قلوب تقية ، وسواعد فتية وعزائم قوية ، تحمل على عاتقها أمانة الكلمة وأمانة العقيدة ، فتعيد توحيد صفوف الشعوب الإسلامية عامة ، والإفريقية خاصة ، فتنقذها من هاوية الجحيم ، التى تسير إليها معصوبة العينين ؟!

هناك الكثير من ميادين الجهاد ، التى تنتظر أولى العزم من المخلصين المجاهدين ، مثل: الاهتمام بنشر اللغة العربية ، لأنها لغة القرآن والدين ، ووسيلة لتفهم أحكام الإسلام الفقهية والاجتهاد بما يلائم ظروف الشعوب ، وانتشال الإفريقيين من البدع والخرافات والتنصير ، محاولة وضع مناهج تعليمية لشعوب إفريقيا ، تستوعب الميول والطاقات والمواهب ، وتلائم عملية التنمية فيها ، محاولة إظهار وجه الإسلام الحقيقى السمح ، لمواجهة حركات التبشير التى تطمس معالمه وتهدم منارته ، المساهمة فى إنشاء المدارس والمكتبات العامة والمستشفيات ، وإقامة المشاريع الاقتصادية التى تحقق الفائدة المباشرة للشعوب الإفريقية الجائعة ، لأن تلك منافذ الإرساليات التبشيرية .

- لا بد لشعوب إفريقيا أن تدرك حجم الخطر ، الذى يتهددها فى حاضرها ومستقبلها، فأوقات الخطر هى دائماً فرصة الأمم الحية ، لإبراز كل ما لديها من الملكات الإنسانية والذخائر المادية والحضارية ، لكى تستطيع مواجهة الخطر وهزيمته ، ومواجهة هذا الخطر تتم بأمرين فى غاية الأهمية :

١ - توحيد كلمة المسلمين فى إفريقيا : فالخطر الحقيقى عليها ، يأتى من الذين يشقون بنيان الأمة ، ويعيثون فى أرض المسلمين فساداً وفوضى ، ويشعلون نار الفتنة والشر ، فيزيدون من متاعب القارة استنزافاً لمواردها ، وتشتيتاً لشعوبها ، وزيادة عدد اللاجئين والمشردين ، مما يزيد معهم نسبة الأمراض الصحية والنفسية والاجتماعية ، ولذلك تقتضى المصلحة العامة توحيد صفوف الأمة ، والضرب بيد من حديد ، على من يحاول زرع بذور الشقاق بينها ، عملاً بقول الرسول ﷺ : « إنه ستكون هنّات وهنّات ، فمن أراد أن

يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع ، فاضربوه بالسيف ، كائناً من كان » (رواه مسلم والنسائى) .

٢ - توليد أقوى الحوافز والدوافع إلى بناء القوة الذاتية ، القادرة على تحقيق التنمية المطلوبة فى إفريقيا والدفاع عنها ، وتأمين سلامتها ، وما زالت تذخر برجال يحنى التاريخ لهم رأسه إجلالاً وتعظيماً لهم ، وعندهم القدرة على إعادة إفريقيا إلى ركب الحضارة ، متى توفرت النيات وشحذت العزائم ، ولن يقيم إفريقيا من كبوتها إلا رجالها، فمهما حصل المسلمون على معونات ومساعدات ، من إخوانهم فى بقية الدول الإسلامية ، فتلك حلول مؤقتة ، أما الحلول الجذرية التى تنفع على المدى الطويل ، لصالح المسلمين فى إفريقيا ، فلا بد أن تكون حلولاً تنبع من القوة الذاتية للقارة ، وهى بلا شك غنية بمواردها الاقتصادية، وغنية برجالها ، المهم هو القوة الدافعة الذاتية لعملية التنمية .

- الشباب هم الرؤوس المفكرة والأيدى المحركة ، لأى تغيير يريده المسلمون فى إفريقيا لذلك يجب أن توجه لهم عناية خاصة ، سواء من داخل إفريقيا أو من خارجها : بحيث توفر لهم الدول الإسلامية القادرة ، بعثات دراسية تناسب احتياجات بلادهم إليهم ، كما توفر لهم وسائل إعلام ، تجيد تخاطبهم ، وتبعث روح اليقين والحماس فيهم . فالمسلم يملك إمكانيات هائلة ، وطاقات بغير حدود ، وحين يعقد العزم على العمل والحركة ، تلين له الصخور الصلدة ، ويذوب أمامه الحديد بإذن الله ، والذين يتصورون فى عصرنا الحاضر ، أن المسلم قد أصبح محكوماً بالهزيمة والهوان ، واهمون ومخطئون ويائسون ، فهناك موعدة وعدها الله عباده المسلمين ، وهى النصر أو الجنة إذا نصروه .

- يجب ألا تنخدع شعوب إفريقيا المسلمة وساستها ، بالكلام المخادع للدول الغربية وعلى رأسها أمريكا ، لتزييف الحقائق ، وتضليل الرأى العام ، وذلك حتى تكون لها كلمة موحدة فى المحافل الدولية ، والمؤتمرات والتنظيمات . . والتكتلات الإفريقية تستطيع بها أن تعطى صوتها لإحقاق وإرساء أسس العدل ، فعلى سبيل المثال ، أقامت أمريكا الدنيا على الصين منذ سنوات قليلة ، اتهمتها بخرق قواعد حقوق الإنسان ، وفرضت عليها العقوبات الاقتصادية ، بدعوى أنها عاملت المتظاهرين من رعاياها بقسوة ، فى الميدان السماوى فى بكين ولم تعر اهتماماً ، لما أبدته الصين من أن تلك مسألة داخلية ، لا يجوز لدولة أجنبية التدخل فيها ، وأعلنت أمريكا أن الدفاع عن حقوق الإنسان خط استراتيجى لها ، ستمارسه فى أى مكان فى العالم ، فى ظل النظام العالمى الجديد الذى تنفرد برئاسته .

على حين تخلت أمريكا عن هذا المبدأ ، تجاه أزمة البوسنة والشيشان ، وتركت المسلمين فريسة سهلة لقوى البغى والعدوان ، تحقيقاً لمصالحها ، وإرضاء لنزعاتها ، بل وأعلنت على لسان رئيسها ، أن مسألة الشيشان مسألة داخلية ، لا يستطيع حتى إبداء الرأى فيها، وعندما سارعت إلى نجدة الكويت ، من غزو صدام حسين كان أيضاً تحقيقاً لصالح أمريكا، ودول الغرب واستنزافاً لخزائن العرب المسلمين .

وفى الوقت الذى يرفض فيه مجلس الأمن بإصرار ، رفع العقوبات الاقتصادية أو تخفيفها عن شعبى العراق وليبيا ، نجده يتلمس الأسباب الواهية ، للإسراع برفع العقوبات الاقتصادية عن الصرب ، رغم العدوان المستمر على مسلمى البوسنة .

وهذا كله يتطلب اليقظة السياسية ، من شعوب إفريقيا المسلمة وحكامهم ، لتحقيق رأي عام قوى ، عنده القدرة على اتخاذ القرار السليم ، وتمييز الحق من الباطل ، لرد الاعتبار إلى الشعوب المسلمة فى العالم أجمع ، وفى هذا رد الاعتبار لهم ، وتحقيق مكانة لائقة بهم ، على الصعيد العالمى ، تجعل قوى الشر تحسب حسابها ، قبل تنفيذ خططها، التى تستهدف العدوان على المسلمين دائماً .

- مهما يكن من شىء ، فإن المحنة التى تمر بها قارة إفريقيا ، ينبغى ألا تجعلنا نيأس من روح الله ، بل تدعو إلى مزيد من العمق والجهد والمثابرة ، بالإيمان والعلم والعمل الجاد الدءوب ، والتعاون المخلص المثمر : ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ (١) .

* * *

(١) الروم : ٤ - ٦ .

المراجع

١ - الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا ، د. حسن أحمد محمود - دار الفكر العربى .

٢ - أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ : أفريقيا يراد لها أن تموت جوعاً ، د. جمال عبد الهادى محمد مسعود - د. وفاء محمد رفعت جمعة - دار الوفاء للطباعة النشر ، المنصورة .

٣ - موسوعة تاريخ العالم ، المجلد الأول ، معالم تاريخ الإنسانية المجلد الأول .

٤ - جغرافية أفريقيا ، تأليف د. فتحى محمد أبو عيانه - دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٣م .

٥ - تاريخ كشف أفريقيا واستعماره - د. شوقى الجمل .

٦ - Istoria Arabshoi Gerrgrafivheskou . Literatury , Moskovo - Liningrad, 1957 .

٧ - تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبى وشركاه .

٨ - Regional Surveys of the world .
Africa South of the Sahara 1993 .
22 nd edition .
Europa Publiations limited .

٩ - Regional Surveys of the world .-
The middle East and North Africa 1993 .
39 th edition .
Europa publiations limited .

١٠ - المسلمون والاستعمار الأوروبى لأفريقيا - د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم عن سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - الكويت (عالم المعرفة) .

١١ - إسرائيل وإفريقيا - د. عواطف عبد الرحمن - حلمى شعراوى - دار الفكر العربى ١٩٤٨ - ١٩٨٥م .

١٢ - الجغرافية السياسية لأفرقيا مع دراسة شاملة للدول الإفريقية - تأليف د. فيليب رفلة - إشراف د. عز الدي فريد - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٦م .

١٣ - د. حامد ربيع « نحو ثورة القرن الواحد والعشرين الإسلام والقوى الدولية » - دار الموقف العربى .

١٤ - بحث عن دور الأزهر فى الدعوة الإسلامية فى الداخل والخارج - بحث فى ثلثمائة صفحة بمناسبة العيد الألفى للأزهر - للأستاذة خديجة النبراوى .

١٥ - د. عبد الرحمن النجار - أفريقيا فى ظل الإسلام - مجلة الوعى الإسلامى - الكويت - السنة الرابعة عشرة - العدد ١٦٤ - شعبان ١٣٩٨هـ ، يوليو ١٩٧٨م .

١٦ - أرنولد - الدعوة إلى الإسلام - الطبعة الثانية - القاهرة .

١٧ - Timingham : Islam in Ethiopia - P 20 .

١٨ - مصطفى مسعد : الإسلام والتوبة فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩٦٠ .

١٩ - تاريخ السودان القديم الحديث - القاهرة ١٩٥٦م - نعوم شقير ج٢ .

٢٠ - تاريخ الثقافة العربية فى السودان بين الحبشة والعرب - القاهرة ١٩٥٢م .

٢١ - Coupland : East Africa and its invaders .

٢٢ - Trimingham : Islam in the Sudan .

٢٣ - Andre : L'islam noir .

٢٤ - مصطفى مسعد : الممالك المسيحية فى النوبة .

٢٥ - القلقشندى : صبح الأعشى .

٢٦ - Meak : Noithem Nigerls .

٢٧ - Eage : West Africa .

٢٨ - Paul : History of Beja tribes ; .

٢٩ - Ani : Seafaning - 2 .

٣٠ - Dubois : Tombouctou.

٣١ - Palmer : op . cit VII .

٣٢ - Trimingham : Sudan .

٣٣ - Dubois : Op . cit .

٣٤ - Trimingham : Ethiopia .

٣٥ - خلف الله : مستقبل أفريقيا السياسى .

٣٦ - Gihb : op . cit .

٣٧ - أرنولد : الدعوة إلى الإسلام .

٣٨ - Smith (Edwin W) . The golden stool - London - 1922 .

٣٩ - عالمية الدعوة الإسلامية ، بحث للأستاذة خديجة النبراوى قدم إلى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٤٠ - دور الإسلام فى تحرير المرأة ، بحث للأستاذة خديجة النبراوى قدم إلى هيئة الإغاثة العالمية بجدة .

٤١ - حركة المد الإسلامى فى غربى إفريقيا - د. عبد الفتاح مقلد الغنيمى - مكتبة نهضة الشرق - جامعة القاهرة .

٤٢ - عبد الله عبد الرازق : الإسلام والحضارة الإسلامية فى نيجيريا ، القاهرة ١٩٨٤ .

٤٣ - هوبير ديشان : الديانات فى أفريقيا السوداء ، القاهرة ١٩٥٦م .

٤٤ - Hrbek, Ivan : The early period of Mahamadu Lamin's activities , in studies in West african islamic history vol. I (ed) John Ralf Willis .

٤٥ - Griffith , R : Samori Toure , essays from Tarikh , published in Leadarship in 19th century Africa , London , 1982 .

٤٦ - Crowder , M : West African Resistance , Lagos , 1978 .

٤٧ - Carpenter : The Role of Christianity , Africa to day .

٤٨ - L.D. Tumer : The impact of Western education on the African way of life , African to day .

٤٩ - Blyden : Christianity , islam and the Negro .

٥٠ - Trimingham : Christian churc .

٥١ - سامى حكيم : إسرائيل والدول النامية ، القاهرة ١٩٦٦ .

٥٢ - Baten , T.R. problem of Africa development .

٥٣ - أفريقية : دراسة عامة وإقليمية ، د. أحمد نجم الدين فليجة - جامعة بغداد ومؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٧٨م .

٥٤ - مصر والتنمية الأفريقية - جمهورية مصر العربية - وزارة الإعلام - الهيئة العامة للاستعلامات - القاهرة ١٩٩٣م .

٥٥ - القمة الأفريقية الثلاثون (١٣ - ١٥ يونيو ١٩٩٤م) تونس ، جمهورية مصر العربية - وزارة الإعلام - الهيئة العامة للاستعلامات .

٥٦ - (مبارك وأفريقيا) ، جمهورية مصر العربية ، وزارة الإعلام ، الهيئة العامة للاستعلامات .

٥٧ - التنمية والتخطيط الاقتصادى ، د. عمرو محيى الدين ، دار النهضة العربية .

٥٨ - ابن الطقطقى الفخرى « من الآداب السلطانية والدول الإسلامية » - طبعة القاهرة.

٥٩ - من بحث للأستاذة خديجة النبراوى « المعالجة الإسلامية للتضخم الاقتصادى » ، مقدم لمركز الشيخ صالح عبد الله كامل للاقتصاد الإسلامى ، كلية التجارة جامعة الأزهر عام ١٩٨٣م .

٦٠ - منظمة الوحدة الإفريقية - مؤتمر رؤساء الدول والحكومات الدورة العادية التاسعة والعشرون ، مجلس الوزراء ، الدورة العادية الثامنة والخمسون ، مقدمة لتقرير الأمين العام - (٢١ - ٣٠ يونيو ١٩٩٣م) - القاهرة جمهورية مصر العربية .

٦١ - السيرة النبوية للإمام أبى الفداء إسماعيل بن كثير ، تحقيق د. مصطفى عبد الواحد، ج٢ ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٦هـ .

٦٢ - المدخل فى علم السياسة - د. بطرس غالى ، د. محمود خيرى عيسى ، مكتبة الأنجلو المصرية .

٦٣ - " in a world where many boundaries are unsatisfactory , it is ce- tainly the case that colcnial boundaries are the most unsatisfactory of all " . Church H. modern colonization' London , 1951 .

٦٤ - الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام . د. عبد الستار فتح الله سعيد . دار الوفاء ، الطبعة الرابعة .

* * *

الفهرس

الموضوع | الصفحة

* * *